بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب التفسير

الجزء الخامس

سورة النساء

من الآية رقم ٢٤ / ١٤٧

* وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

المفردات :

﴿ **المحصنات** ﴾ واحدتهن محصنة (بفتح الصاد) يقال حصنت المرأة (بضم الصاد) حِصْنا محصانة : إذا كانت عفيفة ، فهى حاصن وحاصنة وحصان (بفتح الصاد) . ويقال أحصنت المرأة : إذا تزوجت ، لأنها تكون فى حصن الرجل وحمايته ، وأحصنها أهلها زوجوها . ﴿ **ما ملكت أيمانكم** ﴾ أى بالسبى فى حروب دينية وأزواجهن كفار فى دار الحرب ، فينفسخ عند ذلك نكاحهن ، ويحل الاستمتاع بهن بعد وضع الحامل حملها ، وحيض غير الحامل ثم طهرها ، والإحصان : العفة و[المسافح] : الزانى ، والاستمتاع بالشىء : هو التمتع به و[الأجور] واحدها أجر : وهو فى الأصل الجزاء الذى يُعطى فى مقابلة

شىء مَّا من عمل أو منفعة والمراد به هنا المهر . ﴿ **فريضة** ﴾ أى حصة مفروضة محدودة مقدرة . ﴿ **ولا جناح** ﴾ أى لا حرج ولا تضييق [الاستطاعة] كون الشىء فى طوعك لا يتعاصى عليك ، و[الطول] الغنى والفضل من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب ، ﴿ **والمحصنات** ﴾ هنا الحرائر ، ﴿ **والفتيات** ﴾ الإماء . ﴿ **محصنات** ﴾ أى عفيفات ، ﴿ **مسافحات** ﴾ مستأجرات للبغاء ، و[الأخدان] واحدهم خِدن وهو الصاحب ويطلق على الذكر والأنثى ، وهو أن يكون للمرأة خدن يزنى بها سراً فلا تبذل نفسها لكل أحد ، و﴿ **الفاحشة** ﴾ الفعلة القبيحة وهى الزنا ، والمحصنات هنا : الحرائر . و﴿ **العذاب** ﴾ هو الحد الذى قدره الشارع وهو مائة جلدة ، فنصفها خمسون ولا رجم عليهن لأنه لا يتنصف . ﴿ **العنت** ﴾ الجهد والمشقة .

المراد بالمحصنات من النساء هنا المتزوجات ، وهن من المحرمات اللائى ذكرهن الله تعالى فى قوله : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ إلى آخر الآيات فقد حرَّم الله الزواج بالمرأة المحصنة أى التى لها زوج ، وهى على عصمته ، وقد جاء الإحصان فى القرآن الكريم على أربعة معان :

١ ـ التزوج كما فى هذه الآية ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ .

٢ـ العفة كما فى قوله تعالى : ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ .

٣ـ الحرية كما فى قوله تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات ﴾ .

٤ـ الإسلام كما فى قوله تعالى : ﴿ فإذا أُحْصِنَّ ﴾ أى أسلمن .

واستثنى الله تعالى من المحصنات المملوكات ملك اليمين ، وهن النساء اللاتى وقعن أسيرات فى حرب دينية ، فقد رأى الإسلام من باب إكرامهن ورعايتهن أن يقسمن على المجاهدين ، إذا كانت المصلحة فى ذلك .

فإن كانت المصلحة فى غير ذلك ؛ بأن يكون هناك تبادل أسرى ، فإنهن يرجعن إلى أزواجهن من باب درء المفاسد .

هؤلاء السبى يحل نكاحهن ولو كن فى عصمة الرجال الكافرين ، ما دمن قد وقعن فى السبى فى حرب دينية ، ليس الهدف منها متاع الدنيا .

أخرج مسلم[١] عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : أصبنا سبيا يوم (أَوْطاس)[٢] ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ، فسألنا النبى ﷺ فنزلت الآية فاستحللناهن .

وقال الحنفية إن من سُبى معها زوجها لا تحل لغيره ، إذ لابد من اختلاف الدار بين الزوجين دار الإسلام ودار الحرب . . .

إن الإسلام لم يفرض السبى ولم يحرمه ولكنه أدى إلى القضاء عليه فالإسلام هو محرر العبيد الذى كرَّم البشرية ، ونطقت آياته مصرحة بذلك قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[٣] . جاء فى كتابنا رياض الجنة ، تحت عنوان «الإسلام محرر البشرية» ما نصه :

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم ، وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة البشرية إليه ، والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد ، وركز فيه سبل الإصلاح ! والإسلام هو الذى حرر العقل من

---

(١) ، (٢) أوطاس واد فى ديار هوازن ، وكانت غزوة أوطاس فى غزوة حنين بعد فتح مكة ونص حديث أبى سعيد كما رواه مسلم : « أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشا إلى « أَوْطاس » فلقوا العدو فقاتلوهم وظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا ، فكان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾

(٣) الآية : ٧٠/ من سورة الاسراء .

الجمود والتقليد وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير ! والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء .

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الإسلام ، فجعلوا من مسألة الرق ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه ، بعدما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن أو طعنة لغامز . ولو تدبر هؤلاء مسألة «الرق» لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الإسلام » .

يقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه «ما يقال عن الإسلام» .

مسألة الرق فى الإسلام موضع حملة من أقوى الحملات العصرية ، يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك .

ويتفق الماديون والمبشرون ؛ لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ؛ أولاهما : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الإنسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال فيهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون أن الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعدُ شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء . .

أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون ؛ فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية خوفا من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ؛ قياسا على نجاح الإسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة ، مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظيم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم على حكومات الدول الغربية .

فالماديون والمبشرون يجتهدون – غاية الجهد – لنشر دعوتهم إغراء بالمال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب . ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم ، إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشتركون معهم فى الموطن ومصالح المعيشة ، فيتوسلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة «النخاسة» ، وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا «النخاسة» قديما وحديثا وهم – أى دعاة المادة والتبشير – أول من يعلم من تاريخ «النخاسة» أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية ، تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين .

ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين . أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسمومة ، وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة ، فهى واضحة قريبة المنال ، كفيلة بإقناع من يستمع إليها ، مسلما كان أو غير مسلم ، ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير .

إن الأديان جميعا ـ قبل الإسلام ـ أباحت الرق ، وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخريهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم ، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ، ويضلون عن سبيله . .

وجاء الإسلام ، فشرع العتق ، ولم يشرع الرق ، وقد ندب المسلمين إلى فك الإسار عن الأسرى ، فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة .

لقد أوجب الإسلام قبول الفداء ؛ مع استحسان فك الإسار بغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث فى يمينه ، ومن يظاهر من زوجه ، ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ، ومنها فدية الرقاب ــ ولم يبق الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى ، أو ببذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة .

وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون ؛ قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الإسلام وأوجبه على الدولة الإسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة «فى الرقاب» .

فإذا كانت الدول غير الإسلامية لم تعرف لها نظاما تتبعه لإطلاق أسراها من الرق ، فهى المسئولة عن التقصير ، وليس على الإسلام أو الدولة الإسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الإسلامية وغيرها ، فنعلم أن هذه الدول الأخرى ، قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء ، منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى ، وحكومات المسلمين التى تجاورها ، ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية ، لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون .

ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنيعا أكرم من صنع الإسلام ، يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق ، أو يوجبوه فى مقام التكفير والإحسان[1] ؟

إن صنيع الإسلام الذى أوجبه ــ قبل أربعة عشر قرنا ــ هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فإما أن يكون لها صنيع أكرم منه ؛ فلا ندرى كيف يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه .

---

(١) وذلك ما نصت عليه الآية الكريمة من سورة « محمد » ﷺ : « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها . . » الآية/٤

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الإسلامى فى تشريعات الرق ، بغير استثناء دولة منها ، فى أحدث تشريعاتها الإنسانية كما تسميها : فالإسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء ، بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية ، أو منازعة اقتصادية ، أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداء بالسلاح .

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء ، جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى ، فى بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع ، وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدى الأرقاء ، ولا تنفق عليها أجورا ، فإن أصحاب الأموال والصناع معاً ، حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية : يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم ، أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت .

وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة ؛ يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون ، وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها ، وتحررت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم ، فى سباق التنافس على التحرير ، واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الطريق أو ذاك .

فلما وصلت الحضارة الأوربية إلى هذا المدى ، بعد طول التعثر ، لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ، ولكنها كانت ولا تزال مساومة واضطراراً ، وحيلة من حيل السياسة والإدارة ، وخطة من خطط التأجير والاستغلال . .

والفارق الأكبر فى مسألة الرق ــ من جانب الواقع التاريخى ــ هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الإسلامية ، وعددهم فى البلاد الغربية . حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين ، فإن الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الإسلامية ــ بعد ثلاثة عشر قرنا ــ على ثلاثة ملايين ، أو نحو هذا العدد القليل ، بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليونا ، ولم يمض على قيام الحكم «الأبيض» هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وبعد هذا الفارق فى العدد ، هناك : فارق المعاملة التى لقيها الأرقاء فى البلاد الإسلامية والمعاملة التى لقيها إخوانهم فى الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال ، وبين تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم ، انتقاما من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته «البيض» ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلا :

إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية ، والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها ، وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التى يحارب بها الإسلام . . فإذا انعكست الآية ، وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب

الحملة الشعواء على الإسلام ، بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟ .

وهكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المغرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير .

وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى ، للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة . . ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق ؟ إن الوقائع تثبت والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر : أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق بعض،فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة ، على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه . . كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادئ الذى يدفع الشراع ، دون أن يغرق المركب ، أو كالنار الهادئة ، التى تقتل الجراثيم ، دون أن تحرق المريض .

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه «فى الدين والأخلاق والقومية» ما نصه:محمد ﷺ محرر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق ، كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان ، إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشىء أو لأحد غير الله ؟ . . إن الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟ .

وإن تعجب لشىء فأعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق ، أبيضه وأسوده ، وأنهم الذين أفشوه ، ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : عن طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب ! وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام.لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب ، فى اليونان وفى الرومان ، وفى غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه ، فكان جزاء القاتل أن يكون عبدا لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال ؛ ومصداقه فى قصة يوسف ــ عليه السلام ــ ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قال جزاؤه من وجد فى رحله ، فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين ﴾[1] وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها ، يبيح له أن يقتل منهم

---

(١) الآيتان : ٧٤/ ، ٧٥ من سورة يوسف

من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر ، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ خاتم النبيين وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر ، وثورته على الربا ، وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة ، والرذائل الموروثة المستحكمة . . لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل ، موصدة المخارج ، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام ﷺ لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لينطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم برداً وسلاماً ، ريثما يتيسر لهم الخروج منها .

ويمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحا واقعيا فى ظلال الإسلام فيقول : فأما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف من سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين . ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه ، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ؛ فاليوم لا الخطف ولا البيع والشراء ، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ولا القتل لم يعد شىء من ذلك كله — منذ ظهر الإسلام — يصلح مبررا لاستعباد الإنسان .

ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا فى حالة الاضطرار ، وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام - قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل - أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء . .

غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها ؛ أما الشبهة فهى أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها ، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ، قد ترك — إلى جانب هذه الأبواب — منفذا صغيراً لم يغلقه ، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين — فى هذا الحال — أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟ .

والجواب : أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية ؛ فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم ، لم نجد فيه أثراً لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيراً واحداً كريماً ، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾[1] كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير ، إلا فى حالة شاذة نادرة ، كان الأسير فيها معروفاً بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم ؛ عقوبة «مجرمى الحرب» .

بقى الاسترقاق ؛ وواضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة .

ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ ؛ تحرير رقبة ؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة .. فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجاً له فى زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوباً فى عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ، ولا فى نصوصه ، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير فإنما يكون ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة اتقاء لخطره وكسراً لشوكته وشوكة قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى ، وإنما يتخذه إجراء مؤقتاً ، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه ، ويلح فى المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، أعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية ؛ ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب . كان هو مفتاح القلوب فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ، ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل . قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ﴾[2] .

وقال عليه الصلاة والسلام : «من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار»[3] .

ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهماً مقرراً فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين . .

ومفتاح ثالث : هو مفتاح «قانون الكفارات» وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا ؛ كالحنث فى اليمين ، والفطر فى رمضان ، والقتل الخطأ ، وغير ذلك . . ومن أهم هذه الأنواع : « كفارة الإساءة » ، التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه ، وفى ذلك يقول رسول الرحمة صلوات

(١) من الآية :/٤ من سورة محمد ﷺ
(٢) الآيات :/١١ ـ ١٣ من سورة البلد
(٣) رواه ابن ماجه والترمذى

الله وسلامه عليه : «من لطم مملوكه أو ضربه ؛ فكفارته أن يعتقه»[1] . هذا جزاء الضربة أو اللطمة ، أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن حكمه -عند أكثر الأئمة- أن يصير العبد حرا بمجرد إصابته ، فينزع من ملك السيد قهراً عنه ، وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامي الرحيم ؛ لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين نرى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك ينتظرون دورهم فى أستنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة فى فترة الانتظار ؟ نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحبون حياة الإنسان ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات ، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم ؛ هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين « إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[2] صدقت يا نبى الرحمة — صلوات ربى وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق :

١ - منع لإنشائه وابتدائه . ٢ - عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ - عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معى : أما والله لعبد فى ظل الإسلام : خير من كثير من الأحرار فى كل نظام .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متئدا وداووا طفرة ... وأخف من بعض الدواء الداء

أبعد كل هذا الوصايا بالبشرية وإحاطتها بالكرامة ؛ يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء ؟ إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساوين فى الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد . «إن أباكم واحد ، وإن ربكم واحد»[3] ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[4] . وهذه المساواة العامة الإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب وهى فوارق الانحراف البشرى ، والظلام الإنسانى . . فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط والتعالى الكاذب ، والتمييز المصطنع ، وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق — فى قليل أو كثير — من طبيعة الخلق والولادة ، والمأكل والمشرب والحياة ، وأسباب المعرفة والإدراك .

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقى

(٢) رواه البخارى ومسلم وباقى السنة

(٣) متفق عليه ، وهو من وصايا خطبة الوداع المشهورة

(٤) من الآية : ١٣/ — من سورة الحجرات

قوله تعالى : ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ لما كانت هاتان الآيتان تتعلقان بالأحكام فإننا نذكر ما ورد فيهما على ألسنة العلماء الفاقهين فنقول وبالله التوفيق .

وحرم عليكم نكاح المتزوجات ؛ إلا ما ملكت الأيمان بالسبى فى حروب دينية ، تدافعون بها عن دينكم ، وأزواجهن كفار فى دار الكفر ، وقد رأيتم من المصلحة ألا تعاد السبايا إلى أزواجهن ، فحينئذ ينحل عقد زوجيتهن ويكن حلالاً لكم .

وحكمة هذا أنه لما كان الغالب فى الحروب أن يقتل بعض أزواجهن ويفر بعضهم الآخر ولا يعود إلى بلاد المسلمين ، وكان من الواجب كفالة هؤلاء السبايا بالإنفاق عليهن ومنعهن من الفسق ؛ كان من المصلحة لهن وللمجتمع أن يكون لكل واحدة منهن أو أكثر ، كافل يكفيها البحث عن الرزق ، أو بذل العرض وفى هذا ما لا يخفى من الشقاء على النساء .

والإسلام لم يفرض السبى ولم يحرمه ، لأنه قد يكون من الخير للسبايا أنفسهن فى بعض الأحوال كما إذا استأصلت الحرب جميع الرجال من قبيلة محدودة العدد فإن رأى المسلمون أن من الخير أن ترد السبايا إلى قومهن جاز لهم ذلك عملاً بقاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» فإن كانت الحرب لمطامع الدنيا وحظوظ الملوك ، فلا يباح فيها السبى .

وقوله ﴿ من النساء ﴾ قد جىء به لإفادة التعميم ، وبيان أن المراد كل متزوجة لا العفيفات ولا المسلمات .

وقد جاء الإحصان فى القرآن لأربعة معان ؟

١ - التزوج كما فى هذه الآية .
٢ - العفة كما فى قوله ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ .
٣ - الحرية كما فى قوله ﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات ﴾ .
٤ - الإسلام كما فى قوله ﴿ فإذا أحصن ﴾ أى : أسلمن .

أخرج مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، أنه قال : أصبنا سبيا يوم (أوطاس) ولهن أزواج فكرهنا أن تقع عليهن فسألنا النبى ﷺ فنزلت الآية فاستحللناهن .

وقال الحنفية إن من سبى معها زوجها لا تحل لغيره ، إذ لابد من اختلاف الدار بين الزوجين ، دار الإسلام ودار الحرب .

﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أى كتب عليكم تحريم هذه الأنواع كتابا مؤكدا ، وفرضه فرضاً ثابتا محكما ، لا هوادة فيه ، لأن مصلحتكم فيه ثابتة ، لا يدخلها شك ولا تغيير . ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ أى وأحل الله لكم ما وراء ذلكم ، مما هو خارج من مدلول اللفظ وإفادته ، ولا يتناوله بنص أو دلالة فيدخل بطريق الدلالة فى الأمهات الجدات وفى البنات بنات الأولاد ، وفى الجمع بين الأختين الجمع بين المرأة

وعمتها وخالتها ، كما يؤخذ بعض المحرمات من آيات أخرى كتحريم المشركات ، والمطلقة ثلاثا على مطلقها فى سورة البقرة[1] .

﴿ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ أى أحل لكم ما وراء ذلكم لأجل أن تبتغوه وتطلبوه بأموالكم التى تدفعونها مهراً للزوجة ، أو ثمناً للأمة . محصنين أنفسكم ومانعين لها من الاستمتاع بالمحرم ، باستغناء كل منكما بالآخر ، إذ الفطرة تدعو الرجل إلى الاتصال بالأنثى والأنثى إلى الاتصال بالرجل ليزدوجا وينتجا .

فالإحصان هو هذا الاختصاص الذى يمنع النفس أن تذهبه أى مذهب ، فيتصل كل ذكر بأى امرأة ، وكل امرأة بأى رجل ، إذ لو فعلا ذلك لما كان القصد من هذا إلا المشاركة فى سفح الماء الذى تفرزه الفطرة إيثاراً للذة على المصلحة ، إذ المصلحة تدعو إلى اختصاص كل أنثى بذكر معين لتتكون بذلك الأسرة ، ويتعاون الزوجان على تربية أولادهما فإذا انتفى هذا المقصد انحصرت الداعية الفطرية فى سفح الماء وصبه وذلك هو البلاء العام الذى تصطلى بناره الأمة كلها ، فإن بعض الدول الأوربية التى كثر فيها السفاح وقل النكاح بضعف الدين ، وقف نموها وقل نسلها وضعفت حتى اضطرت إلى الاعتزاز[2] بمحالفة بعض الدول الأخرى .

﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ أى وأى امرأة من النساء اللواتى أحللن لكم تزوجتموها ، فأعطوها الأجر وهو المهر بعد أن تفرضوه فى مقابلة ذلك الاستمتاع .

وسر هذا : أن الله لما جعل للرجل على المرأة حق القيام ، وحق رياسة المنزل الذى يعيشان فيه : وحق الاستمتاع بها ، فرض لها فى مقابلة ذلك جزاء وأجراً تطيب به نفسها ويتم به العدل بينها وبين زوجها .

والخلاصة : أن أى امرأة طلبتم أن تتمتعوا وتنتفعوا بتزوجها ، فأعطوها المهر الذى تتفقون عليه عند العقد ، فريضة فرضها الله عليكم ، وذلك أن المهر يفرض ويعين فى عقد النكاح ، ويسمى ذلك إيتاءً وإعطاءً ، ويقال عقد فلان على فلانة وأمهرها ألفاً ، كما يقال فرض لها ألفاً ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وقد فرضتم لهن فريضة ﴾[3] وقوله : ﴿ ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ﴾[4] فالمهر يتعين بفرضه فى العقد ويصير فى حكم المعطى ، وقد جرت العادة بأن يعطى كله أو أكثره قبل الدخول ، ولكن لا يجب كله إلا بالدخول ، فمن طلق قبله وجب عليه نصفه لا كله ، ومن لم يعط شيئا قبل الدخول وجب عليه كله بعد .

﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ أى ولا تضييق عليكم إذا تراضيتم على النقص فى المهر بعد تقديره ، أو تركه كله ، والزيادة فيه ، إذ ليس الغرض من الزوجين إلا أن يكونا فى عيشة راضية يستظلان فيها بظلال المودة والرحمة ، والهدوء والطمأنينة ، والشارع الحكيم لم يضع لكم إلا ما فيه سعادة الفرد والأمة ، ورقى الشؤون الخاصة والعامة .

---

(١) وهو قوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن . . » الآية
وقوله تعالى : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره . . » الآية .
(٢) أى طلب العزة
(٣) من الآية :/٢٣٧ من سورة البقرة
(٤) من الآية :/١٣٦ من سورة البقرة

﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ وقد وضع لعباده من الشرائع بحكمته ما فيه صلاحهم ما تمسكوا به ، ومن ذلك أنه فرض عليهم عقد النكاح الذى يحفظ الأموال والأنساب ، وفرض على من يريد الاستمتاع بالمرأة مهراً يكافئها به على قبولها قيامه ورياسته عليها ، ثم أذن للزوجين أن يعملا ما فيه الخير لهما بالرضا فيحطا المهر كله أو بعضه أو يزيدا عليه .

ونكاح المتعة «وهو نكاح المرأة إلى أجل معين كيوم أو أسبوع أو شهر» كان مرخصاً فيه فى بدء الإسلام ، وأباحه النبى لأصحابه فى بعض الغزوات لبعدهم عن نسائهم ، فرخص فيه فى مرة أو مرتين ، خوفاً من الزنا ، فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين ، ثم نهى عنه نهياً مؤبداً ، لأن المتمتع به لا يكون مقصده الإحصان وإنما يكون مقصده المسافحة وللأحاديث المصرحة بتحريمه تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة ، ونهى عمر فى خلافته وإشادته بتحريمه على المنبر ، وإقرار الصحابة له .

قوله تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ المحصنات : هنا الحرائر خاصة بدليل مقابلتها بالإماء ، والحرية كانت عندهم داعية الإحصان ، كما كان البغاء من شأن الإماء ، ومن ثم قالت هند للنبى ﷺ على سبيل التعجب : أو تزنى الحرة ؟ وعبر عن الإيماء بالفتيات تكريماً لهن وإرشاداً لنا إلى ألا نادى بالعبد والأمة بل بلفظ الفتى والفتاة وقد روى البخارى قوله ﷺ : «لا يقولن أحدكم عبدى ! أمتى ! ولا يقل المملوك ربى ! ليقل المالك فتاى وفتاتى ، وليقل المملوك سيدى وسيدتى فإنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل»[١] .

والمعنى : ومن لم يستطع منكم طولاً فى الحال أو المآل نكاح المحصنات ، اللواتى أحل لكم أن تبتغوا نكاحهن بأموالكم ، وتقصدوا بنكاحهن الإحصان لهن ولأنفسهم فلينكح أمة من الإماء المؤمنات ، والطول «هو السعة المعنوية أو المادية» يختلف باختلاف الأشخاص ، فقد يعجز الرجل عن التزوج بحرة ، وهو ذو مال يقدر به على المهر ، لنفور النساء منه لعيب فى خَلْقِه أو خُلقِه ، وقد يعجز عن القيام بغير المهر من حقوق المرأة الحرة ، فإن لها حقوقاً كثيرة من النفقة والمساواة وغير ذلك ، وليس للأمة مثل هذه الحقوق .

وقد قدر الحنفية المهر بدراهم معدودة ، فقال بعضهم : ربع دينار. وقال بعضهم : عشرة دراهم .

وليس فى الكتاب ولا فى السنة ما يؤيد هذا التحديد ، فقد ورد أن النبى ﷺ قال لمن يريد الزواج «التمس ولو خاتماً من حديد»[٢] وروى أن بعض المسلمين تزوج امرأة وجعل المهر تعليمها شيئاً من القرآن .

﴿ والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ﴾ أى فأنتم أيها المؤمنون إخوة فى الإيمـان ، بعضكم من بعض ، كما قال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾[٣] فلا ينبغى أن تعدوا نكاح الأمة عاراً عند الحاجة إليه .

---

(١) رواه ابن ماجه

(٢) رواه الشيخان

(٣) من الآية : ٧١/ من سورة التوبة

وفى هذا إشارة إلى أن الله قد رفع شأن الفتيات المؤمنات ، وساوى بينهن وبين الحرائر ، وهو العليم بحقيقة الإيمان ودرجة قوته ، وكماله ، فرب أمة أكمل إيماناً من حرة ، فتكون أفضل منها عند الله ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[1] .

﴿ **فانكحوهن بإذن أهلهن** ﴾ الأهل هنا الموالى المالكون لهن ؛ أى فإذا أحببتم نكاحهن ورغبتم فيه لأن الإيمان قد رفع من قدرهن فانكحوهن بإذن مواليهن .

وقال بعض الفقهاء : المراد من الأهل من لهم عليهن ولاية التزويج ، ولو غير المالكين ، كالأب والجد والقاضى والوصى ، إذ لكل منهم تزويج أمة اليتيم .

﴿ **وآتوهن أجورهن بالمعروف** ﴾ أى وأدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن ، إذ أن المهر هو حق المولى لأنه بدل عن حقه فى إباحة الاستمتاع بها .

وقال مالك : المهر حق للزوجة على الزوج ، وإن كانت أمة فهو لها لا لمولاها ، وإن كان الرقيق لا يملك شيئاً لنفسه ، لأن المهر حق الزوجة تصلح به شأنها ، ويكون تطييباً لنفسها ، فى مقابلة رياسة الزوج عليها ، وسيد الأمة مخيّر بين أن يأخذه منها بحق الملك ، أو يتركه لها لتصلح به شأنها ، وهو الأفضل والأكمل ومعنى قوله ﴿ **بالمعروف** ﴾ أى بالمعروف بينكم فى حسن التعامل ومهر المثل وإذن الأهل .

﴿ **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** ﴾ أى أعطوهن أجورهن حال كونهن متزوجات منكم ، لا مستأجرات للبغاء جهراً ، وهن المسافحات ، ولا سراً وهن متخذات الأخدان والأصحاب .

وقد كان الزنا فى الجاهلية قسمين : سرى وعلنى ، فالسرى يكون خاصاً فيكون للمرأة خدن يزنى بها سراً ، ولا تبذل نفسها لكل أحد ، والعلنى يكون عاماً وهو المراد بالسفاح ؛ قاله ابن عباس :

وكان البغايا من الإماء ينصبن الرايات الحمر لتعرف منازلهن. وروى عن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا ، ويقولون إنه لؤم ، ويستحلون ما خفى ويقولون : إنه لا بأس به ، وقد نزل فى تحريم هذين النوعين قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾[2] وقصارى القول : أن الله فرض نكاح الإماء ، مثل ما فرض نكاح الحرائر ، من الإحصان والعفة لكل من الزوجين ، لكن جعل الإحصان وعدم السفاح فى نكاح الحرائر من قبل الرجال أولاً وبالذات ، فقال : ﴿ **محصنين غير مسافحين** ﴾ لأن الحرائر ولا سيما الأبكار أبعد من الرجال عن الفاحشة ، وأقل انقياداً لطاعة الشهوة ، إلى أن الرجال هم الطالبون للنساء ، والقوامون عليهن ، وجعل قيد الإحصان فى جانب الإماء ، فاشترط على من يريد أن يتزوج أمة أن يتحرى فيها أن تكون محصنة مصونة فى السر والجهر ، فقال : ﴿ **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** ﴾ وذلك أن الزنا كان غالباً فى الجاهلية على الإماء ، وكانوا يشترونهن للاكتساب ببغائهن ،

---

(١) من الاية : ١٣/ من سورة الحجرات

(٢) من الآية : ١٥١/ من سورة الأنعام

حتى أن عبد الله بن أبي كان يكره إماءه على البغاء بعد أن أسلمن ، فنزل فى ذلك ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾[1] إلى أنهن لذلهن وضعفهن وكونهن مظنة للانتقال من يد إلى أخرى لم تمرن نفوسهن على الاختصاص برجل واحد ، يرى لهن عليه من الحقوق ما تطمئن به نفوسهن فى الحياة الزوجية ، التى هى من شؤون الفطرة .

﴿ فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ أى : أن الإماء إذا زنين بعد إحصانهن بالزواج فعليهن من العقاب نصف ما على المحصنات الكاملات ، وهن الحرائر ، إذا زنين ، وهذا العقاب ما بينه سبحانه بقوله ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾[2] فتجلد الأمة المتزوجة خمسين جلدة،وتجلد الحرة مائة جلدة ، والسر فى هذا هو كون الحرة أبعد عن داعية الفاحشة والأمة ضعيفة عن مقاومتها ، فرحم الله ضعفها ، وخفف العقاب عنها ، وقد قيدوا المحصنات هنا بكونهن أبكاراً ، لأن من تزوجت تسمى محصنة بالزواج ، وإن آمت بطلاق أو بموت زوجها وحينئذ ترجم بالحجارة إذا زنت .

وفى الصحيحين عن عمر رضى الله عنه : «أن الرجم فى كتاب الله حق على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو كان حمل أو اعتراف ، وأمر النبى ﷺ يرجم ماعز الأسلمى والغامدية لاعترافهما بالزنا ، لكنه أرجأ المرأة حتى وضعت وأرضعت وفطمت ولدها» رواه مسلم وأبو داود .

﴿ ذلك لمن خشى العنت منكم ﴾ أى ذاك الذى ذكر لكم من إباحة نكاح الإماء ، عند العجز عن الحرائر ، جائز لمن خشى عليه الضرر من مقاومة دواعى الفطرة ، والتزام الإحصان والعفة ، ففى كثير من الأحيان تفضى هذه المقاومة إلى أمراض عصبية وغير عصبية ، إذا طال العهد على مقاومتها كما أثبت ذلك الطب الحديث .

﴿ وأن تصبروا خير لكم ﴾ أى وصبركم عن نكاح الإماء خير لكم . من نكاحهن ، لما فى ذلك من تربية قوة الإرادة ، وتنمية ملكة العفة ، وتغليب العقل على عاطفة الهوى ، ومن عدم تعريض الولد للرق ، وخوف فساد أخلاقه ، بإرثه منها المهانة والذلة ، إذ هى بمنزلة المتاع والحيوان ، فربما ورث شيئاً من إحساسها ووجدانها وعواطفها الخسيسة .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : «إذا نكح العبد الحرة فقد أعتق نصفه وإذا نكح الحر الأمة فقد أرق نصفه» ورحم الله القائل :

إذا لم تكن فى منزل المرء حرة تدبـــره ضاعت مصالح داره

---

(١) من الآية : /٣٣ من سورة النور
(٢) من الآية : /٢ من سورة النور

إن معنى الزوجية حقيقة واحدة مركبة من ذكر وأنثى ، كل منهما نصفها ، فهما شخصان فى صورة واحد ، اعتباراً بالإحساس والشعور والوجدان والمودة والرحمة ، ومن ثم ساغ أن يطلق على كل منهما لفظ (زوج) لاتحاده بالآخر ، وإن كان فرداً فى ذاته مستقلاً فى شخصه .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ فهو غفار لمن صدرت منه الهفوات ، رحيم بعباده إذ رخص لهم فيما رخص فيه ، ببيان أحكام شريعته ، فلا يؤاخذنا بما لا نستطيعه منها .

رحمة الله بعباده

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

المفردات : ﴿ سنن ﴾ : جمع سنة وهى الطريقة والشريعة . ﴿ ضعيفاً ﴾ : غير قادر على مخالفة نفسه وهواه .

قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ جاءت هذه الآيات كأجوبة لأسئلة من شأنها أن تدور بخلد السامع لهذه الأحكام ، فيطوف بخاطره أن يسأل ــ ما الحكمة فى هذه الأحكام ؟ وما فائدتها للعباد ؟ وهل من كان قبلنا من الأمم السالفة كلف بمثلها ؟ فلم يبح لهم أن يتزوجوا كل امرأة ؟ وهل كان ما أمرنا الله به أو نهانا عنه تشديداً علينا أو تخفيفاً عنا ؟

والمعنى : يريد الله بما شرعه لكم من الأحكام ؛ أن يبين لكم ما فيه مصالحكم ومنافعكم ، وأن يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين ، لتقتفوا آثارهم وتسيروا سيرتهم ، فالشرائع والتكاليف وإن اختلفت باختلاف أحوال الاجتماع والأزمان ، كما قال : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾[1] فهى متفقة فى مراعاة المصالح العامة للبشر ، فروح الديانات جميعاً توحيد الله وعبادته ، والخضوع له على صور مختلفة ، ومآل ذلك تزكية النفس بالأعمال التى تقوم بها وتهذيب الأخلاق ، لتبعد عن سيء الأفعال والأقوال .

﴿ ويتوب عليكم ﴾ أى ويريد أن يجعلكم بالعمل بتلك الأحكام تائبين راجعين ؛ عما كان قبلها من تلك الأنكحة الضارة ، التى كان فيها انحراف عن سنن الفطرة ، إذ كنتم تنكحون ما نكح آباؤكم ،

---

(١) من الآية : ٤٨/ من سورة المائدة

وتقطعون أرحامكم ،ولا تلتفتون إلى المعانى السامية التى فى الزوجية ، من تقوية روابط النسب ، وتجديد قرابة الصهر ، والسعادة التى تثلج قلوب الزوجين ، والمودة والرحمة اللتين تعمر بهما نفوسهما .

﴿ والله عليم حكيم ﴾ فبعلمه المحيط بما فى الأكوان ، شرع لكم من الدين ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم ، وبحكمته لم يكلفكم بما يشق عليكم ، وبما فيه الأذى والضرر لكم ، وبها يتقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات .

﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ أى أنه تعالى بما كلفكم من تلك الشرائع ، يريد أن يطهركم ويزكى نفوسكم فيتوب عليكم .

﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ متبعو الشهوات هم الفسقة الذين يدورون مع شهوات أنفسهم ، وينهمكون فيها ، فكأنها أمرتهم باتباعها فامتثلوا أمرها ، فلا يبالون بما قطعوا من وشائج الأرحام ، ولا بما أزالوا من أواصر القرابة ، فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة .

أما الذين يفعلون ما يأمر به الدين فليس غرضهم إلا امتثال أوامره ، لا اتباع شهواتهم ولا الجرى وراء لذاتهم .

﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ فأباح لكم عند الضرورة نكاح الإماء ؛ قاله مجاهد وطاووس وقيل بل خفف عنكم التكاليف كلها ، ولم يجعل عليكم فى الدين من حرج فشريعتكم هى الحقيقية السمحة كما ورد فى الحديث .

﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ يستميله الهوى والشهوات ، ويستشيطه الخوف والحزن ، ولا يقدر على مقاومة الميل إلى النساء ، ولا يقوى على الضيق عليه فى الاستمتاع بهن .

وقد رحم الله عباده ، فلم يحرم عليهم منهن إلا ما فى إباحته مفسدة عظيمة ، وضرر كبير ، ولا يزال الزنا ينتشر حيث يضعف وازع الدين ، ولا يزال الرجال هم المعتدين فهم يفسدون النساء ، ويغرونهن بالأموال ، ويحجر الرجل على امرأته ويحجبها ، بينما يحتال على امرأة غيره ويخرجها من خدرها ، وإنه لغر جاهل ، أفيظن أن غيره لا يحتال على امرأته ، كما احتال هو على امرأة سواه ؟

فقلما يفسق رجل إلا يكون قدوة لأهل بيته فى الفسق والفجور ، وفى الحديث: «عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم» . رواه الطبرانى من حديث جابر .

الديــن المعاملــة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾

المفردات : ﴿ لا تأكلوا ﴾ : المراد لا تأخذوا وإنما عبر بذلك عن الأخذ ، لأن الأكل هو المقصود المهم . ﴿ الباطل ﴾ : ما قابل الحق ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ : لا يقتل بعضكم بعضا .
﴿ عدواناً ﴾ : العدوان التعدى على الغير مع القصد ﴿ وظلماً ﴾ : هو تجاوز الحق بالفعل .
﴿ نصليه نارا ﴾ : ندخله ونحرقه .

لما كان الإسلام مستقيماً فى كل شئونه ، معتدلاً فى جميع أموره ، عدلاً فى كل قضاياه ، لما كان ذلك ، كذلك فقد أمر بالحفاظ على الدين عقيدة وشريعة ، كما أمر بالحفاظ على النفس والعرض والعقل والمال ، ونهى عن الاعتداء على المال ، وذلك بأكله بالباطل كالربا والرشوة والغصب والسرقة ، لكن إذا كان تجارة عن تراض فذلك حلال طيب ، كذلك إذا كان هبة ، فإن النبى ﷺ قال : « تهادوا تحابوا »[1] .

كذلك إذا دفع مضاربة وهو ما يسمى « بعقد القراض » وصورته أن يكون هناك مال من أحد الطرفين ، وعمل من الآخر ، فإن هذا كله مما شرعه الله ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : ادفعُوا مال اليتيم مضاربة .

واعلم أنه لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه ، وأن ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام .

إن الإسلام أحاط المال بالصيانة والعناية والرعاية ، فقال الله تبارك وتعالى فى هذا الشأن بعد آيات الصيام ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾[2] .

كما أحاط مال اليتامى خاصة بأسوار منيعة حصينة فقال : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾[3] .

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى حسن الخلق (١٦) .
(٢) الآية ١٨٨ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢ من سورة النساء .

وشدد الوعيد والنكير على الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً فقال سبحانه : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾[١] .

وقال ﷺ فى شأن الرشوة ، وهى أيضاً من باب الباطل : (لعن الله الراشى والمرتشى والرائش)[٢] .

ولما كان المال شقيق الروح ؛ فقد جمع الله بين حرمة المال وحرمة النفس فى هذه الآية حيث قال تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ والنفس هنا تشمل اعتداء الانسان على نفسه أو على نفس غيره ، فالمؤمنون جميعاً(كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[٣] .

لذا كانت نفس الغير كنفسك أنت ، (ولا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيّب الزانى والتارك لدينه المفارق للجماعة)[٤] .

واعلم أن الآدمىَّ بنيان الرب ، ملعون من هدمه ، ومن أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه : (أيس من رحمة الله) .

﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جنهم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾[٥] .

والقتل أحد السبع الموبقات ، أى المهلكات ، بل إن حرمة المسلم أعظم عند الله من حرمة البيت الحرام ، أوما علمت أن امرأة دخلت النارفى هرة ! لماذا ؟ لأنها (حبستها لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض)[٦] حتى ماتت جوعاً ، أوما علمت أن رجلاً دخل الجنة ، لأنه سقى كلباً كان قد اشتد به العطش فشكر الله له صنيعه ، فغفر له ؟ .

هذا هو الإسلام إذا سُئلت عنه فقل : إنه دين الرحمة ، ربه رحمن رحيم ، وكتابه يقول فيه مولانا : ﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾[٧] ونبيه يقول فيه مولانا : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٨] . لذا جاء ختام الآية ﴿ إن الله كان بكم رحيماً ﴾ .

---

(١) الآية ١٠ من النساء .
(٢) أخرجه الترمذى فى الأحكام (٩) . وأبو داود فى الأقضية (٤) . وابن ماجه فى الأحكام (٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٦٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢١٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨) وفى (٥ : ٢٧٩) .
(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) .
(٤) أخرجه البخارى فى الديات (٦) . ومسلم فى القسامة (٢٥ ، ٢٦) . وأبو داود فى الحدود (١) . والترمذى فى الحدود (١٥) وفى الديات (١٠) . والنسائى فى القسامة (٦) وفى التحريم (٥) . وابن ماجه فى الحدود (١) . والدارمى فى الحدود (٢) وفى السير (١١) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٢ ، ٤٢٨ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥) وفى (٤ : ١٨١) .
(٥) الآية ٩٣ من سورة النساء .
(٦) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (١٦) وفى الأنبياء (٥٤) وفى المساقاة (٩) . ومسلم فى الكسوف (٩ ، ١٠)) وفى البر (١٣٣ ، ١٣٥) . وفى التوبة (٢٥) . والنسائى فى الكسوف (١٤ ، ٢٠) . وابن ماجه فى الإقامة (١٥٢) وفى الزهد (٣٠) . والدارمى فى الرقاق (٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٥٩ ، ١٨٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٥٠١) وفى (٣ : ٣١٨ ، ٣٣٥ ، ٣٧٤) وفى (٤ : ٣٥١) .
(٧) الآية ٥٧ من سورة يونس .
(٨) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

ثم يقرن القرآن الكريم الوعد بالوعيد لتدور حال المسلم بين الترغيب والترهيب ، فيقف بين نور الوعد ونيران الوعيد ، راغباً فى رحمة الله ، خائفاً من عقابه ، قال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ﴾ أى من يخالف أوامرنا فيعتدى على المال والنفس وغير ذلك مما نهى الله عنه فقد ظلم نفسه ، وسوف ندخله ناراً . ﴿ وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[١] ، ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[٢] ، ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئنا كم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون * أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون * أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾[٣] . ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[٤] . ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٥] . ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٦] .

إننى أكتب هذه السطور والجفاف يجتاح القارة الأفريقية ، والقحط يهدد بسوء المصير ، ولعل فى هذا بلاغاً لقوم عابدين ، وإنذاراً يذكر البشرية بأن للكون إلهاً خالقاً . ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾[٧] .

فاللهم إنا نسألك ونتوجه إليك أن تستر العورات ، وتؤمن الروعات ، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا ، وارحمنا فإنك بنا راحم ، ولا تعذبنا فأنت علينا قادر ، والطف بنا فيما جرت به المقادير ، إنك على كل شيء قدير ، فإننا نعلم أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بتوبة ، وأن الذنوب هى التى ترفع البركة من الأرض ، وإذا أراد الله بقوم قحطاً نادى مناد من قبل الله تعالى : « يا أمعاء اتسعى يابركة ارتفعى ياعين لا تشبعى » .

إذا كنت فى نعمة فارعها	فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله	فإن الإله سريع النقم

وليت البشرية تتأمل سنة الله فى خلقه : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾[٨] .

والله تعالى لا يُقهر ولا يستطيع أحد أن يعطل إرادته ، قال تعالى : ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾[٩]

وقال جل شأنه : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴾[١٠] .

---

(١) الآية ٦ من سورة التحريم .
(٢) الآية ٧٦ من سورة الزخرف .
(٣) الآيات ٧٧ - ٨٠ من سورة الزخرف .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٥) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٦) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٧) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة نوح .
(٨) الآية ٦ من سورة الأنعام .
(٩) الآية ١٩ ، ٣٠ من سورة الأحزاب .
(١٠) الآيات ١١ - ١٥ من سورة الشمس .

المبشرات

إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

المفردات :

الاجتناب : ترك الشىء جانباً . والكبائر : واحدتها كبيرة ، وهى المعصية العظيمة . والسيئات : واحدتها سيئة ، وهى الغفلة التى تسوء صاحبها عاجلاً أو آجلاً والمراد بها هنا الصغيرة . ونكفر : نغفر ونمحو . ومدخلاً كريماً : أى مكاناً كريماً وهو الجنة .

هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾[1] .

فالله تعالى ، جلت قدرته ، وعمت رحمته ، علم أن فينا ضعفا ، ففتح لنا أبواب الأمل ، إذ يقول : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾[2] وإذ يقول : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾[3] وإذ يقول : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾[4] .

والله جل جلاله بعد أن نهى عن أكل أموال الناس بالباطل وعن قتل النفس ، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات ، نهى عن جميع الكبائر التى يعظم ضررها وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها ووعد من تركها بالمدخل الكريم .

قوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ أى إن تتركوا جانباً كبائر ما ينهاكم الله عن ارتكابه من الذنوب والآثام نمح عنكم صغائرها ، فلا نؤاخذكم بها .

وقد اختلف فى عدد الكبائر ، فقيل : هى سبع ، لما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[5] ، وفى رواية لهما عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أنبئكم

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النجم .
(٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ٣ من سورة الزمر .
(٤) الآية ٤٩ من سورة الحجر .
(٥) أخرجه البخارى فى الوصايا (٢٣) وفى الحدود ، وفى الطب (٤٨) . ومسلم فى الإيمان (١٤٤) . وأبو داود فى الوصايا .

بأكبر الكبائر ؛ قلنا بلى يا رسول الله ؛ قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ــ وكان متكئاً فجلس وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[١] . وفيها أيضاً من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ؛ قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه)[٢] .

والأحاديث الصحيحة مختلفة فى عددها ، ومجموعها يزيد على سبعة ، ومن ثم قال ابن عباس لما قال له رجل : الكبائر سبع : قال : هى إلى سبعين أقرب ، إذ لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطة غضب ، أو ثورة شهوة وصاحبه متمكن من دينه يخاف الله ولا يستحل محارمه فهو من السيئات التى يكفرها الله تعالى ، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس ، لم يكن ليجترحها تهاونا بالدين ؛ إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى ، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله ، فهو إذ ذاك أهل لأن يتوب الله عليه ويكفر عنه .

وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة بنظر الله إليه ورؤيته إياه حيث نهاه ، فهو مهما كان صغيرا فى صورته أوفى ضرره يعد كبيراً من حيث الإصرار والاستهتار ، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده ، والهمز واللمز (عيب الناس والطعن فى أعراضهم) لمن تعوده ، كل ذلك كبيرة ولا شك !! وكان النبى ﷺ يذكر فى كل مقام ما تطلبه الحاجة ولم يرد الحصر والتحديد .

وقال بعض العلماء : الكبيرة كل ذنب رتب عليه الشارع حداً ، أو صرح فيه بوعيد . ﴿ وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ أى وندخلكم مكاناً لكم فيه الكرامة عند ربكم ، وهى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار . والعرب تقول : أرض كريمة وأرض مكرمة أى طيبة جيدة النبات . قال تعالى : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم ﴾[٣] .

يقول الشيخ « محمد المدنى رحمه الله تعالى » تحت عنوان « الآيات المبشرة » ما نصه : قديماً تصور أحد الفلاسفة ما سماه « المدينة الفاضلة » أو « المجتمع المثالى » وفهم بعض الذين انساقوا مع الخيال أن تلك المدينة ، وهذا المجتمع هما أمل الإنسان الذى يصبو إليه ، وأن الحياة البشرية على هذا الكوكب ربما وصلت إلى تحقيقه يوماً ما ، فيصبح الناس ولا أخطاء ولا ذنوب ولا جرائم ولا عقوبات ولا حدود ؛ لأن كل فرد يعمل ما يجب عليه دون موجب إلاّ من ضميره ، وينتهى عما ليس من شأنه وعما يضر غيره أو يفسد شأنا من شئون الحياة ، ولا وازع له إلا من نفسه ، وحينئذ تكون الحياة متعة صافية خالية من كل ما يكدرها ، أو يجعل الناس على حبهم إياها يألمون منها ، ويود بعضهم لو استطاع التخلى عنها .

والحقيقة أن هذا خيال فيه تسلية للنفوس ، وأمل حلو قد يراود بعض الناس ، فيستريحون إليه من لأواء الحياة حيناً ، كما يستريح المرء عادة إلى الآمال التى لا تكون ، فشأن الإنسان وطبيعة تكوينه أنه إنسان ،

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٤٣) . والترمذى فى الشهادات (٣) وفى تفسير (سورة ٤ : ٥) والإمام أحمد فى (٥ : ٣٧) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ١٦٤ ، ١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢١٦) . ومسلم فى الإيمان (١٤٥) . والترمذى فى البر (٤) .
(٣) الأيتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة الشعراء .

ركبت فيه عوامل الإساءة والإحسان ، والخطأ والصواب ، والشر والخير ، والفساد والصلاح ، وهكذا من المتقابلات والأضداد ، ولولا ذلك ما صلح للحياة على الأرض ولا استحق أن يكون هو الخليفة فيها ، المخلوق لعمارتها بإذن الله ، دون غيره من الملائكة ﴿ الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ، ودون الجان الذين خلقوا من مارج من نار ، ليمثلوا قوى العصيان والشر والتمرد .

إن الإسلام قد صور الإنسان على هذه الطبيعة الجامعة بين الصلاح والفساد ، فيما جاء به القرآن من قصة آدم حين أراد الله أن يخلقه ، وأن يجعله خليفة فى الأرض من دون الملائكة ، فتساءل هؤلاء قائلين : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾[1] .

فقولهم : ﴿ من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ معناه من يقع منه ذلك أحيانا ، وفى ذلك دلالة على أن أمر هذا الإنسان وطبيعة تكوينه ووظائف جسمه وأعضائه كانت منبئة بحاله ، مفصحة عما سيكون من أمره فى عمل الشر والفساد أحيانا . أما الخلق الآخر ــ الذين هم الملائكة ــ فإن طبيعة خلقهم ووظائفهم التى هيئوا لها ، تجعلهم على حالة لا يقع معها الخطأ ولا يقترف معها الاثم ولا العصيان والتمرد ، وإذن فبمقتضى علمهم وتفكيرهم قالوا إنهم أصلح لعمارة الأرض والخلافة فيها ، ولكن الله تعالى رد عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون وأجرى أمامهم من مقدرات هذا المخلوق وإمكانياته ما دلهم على أنه أليق منهم بعمارة الأرض على حاله التى خلق عليها ومع ما وصفوهُ به من أنه يأتى الفساد ويسفك الدماء ، ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾[2] .

فتعليم آدم الأسماء كلها . هو عبارة عما ركب فيه من غرائز وقوى يستطيع بها أن يعرف الخواص ، ويفحص الأشياء ويتتبع بالتجارب دخائلها ومنافعها وما فيها من قوى ظاهرة وباطنة ، فالإنسان بطبيعته طلق ؛ ولذلك نرى الطفل إذا أمسك بيده لعبة أو شيئا من الأشياء يقلبه ويديره ويتأمله ويحاول أن يحطمه ، ليعلم ما فيه أو ما ينتهى إليه ، ولا يستريح حتى يصل فى ذلك إلى حد يرضى شهوته الطبيعية فى التطلع والتعرف ، وبذلك كان الإنسان مخترعاً مبتدعا ، وكان خراجا ولّاجا طموحاً مجازفا فى سبيل إرضاء نفسه التواقة إلى الاستطلاع والكشف والمعرفة .

وما كان تعبير ابن عباس وغيره فى هذا المقام ــ بأن الله علم آدم الأسماء لكل شىء ــ حتى القصعة وحتى كذا وكذا والخ ــ إلا تمثيلا على ما يتصورون ، وإلا تقريبا لما خلق عليه الإنسان من إمكانه تصور الأشياء وتمثلها تمثل من يعرفها بأسمائها وأعلام أشخاصها .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيات ٣١ - ٣٣ من سورة البقرة .

وقد اختلف الناس قديما وحديثا فى أن هذه الآيات تصور واقعاً قد كان حسًا بين الله والملائكة ، أو تصور حقيقة الأمر ، ومعناه فى صورة أخذ ورد على النحو القولى ، وسواء أكان الأمر هذا أم ذاك ، فإن الذى يهمنا هو أن القرآن الذى هو كتاب الإسلام ، يصور الإنسان من أول عهده بالأرض على صورته التى تؤذن بأنه مخلوق يصيب ويخطئ ويصلح ويفسد ، وبأن خلقه على هذه الطبيعة مقصود وملائم لوظيفته التى ندب لها وأوثر بها على غيره ، وأن هذا كله إنما وقع من الله تعالى بمقتضى علمه وحكمته وتمام مشيئته .

وهذا التصوير القرآنى لمبدأ الخلق ، ولطبيعة الإنسان الأول هو جزء من بيان الحقيقة الكونية الكبرى ، وهناك أجزاء أخرى فى بيان هذه الحقيقة منها ما ورد فى سورة (الحجر) : وفيه تصوير جانب العداوة بين الإنسان والشيطان ، وأن هذا الأخير يتوعد غريمه الأبدى فيقول : ﴿ قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط علىّ مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[1] .

وقد جاء هذا الحوار على الأسلوب نفسه الذى جاء عليه الحوار فى سورة البقرة وفسر بالتفسيرين السابقين ،والذى يعنينا من ذلك هو أن هناك بمقتضى الخلق ومشيئة الله تعالى الصادرة عن الحكمة والعلم ، عوامل إغواء بجانب هذا المخلوق المعهود إليهم بالخلافة فى الأرض ، وقد جاء مثل ذلك فى سورة الإسراء حيث يقول الله عز وجل : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا * قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلا * قال اذهب فمن تبعك منهم فإنَّ جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾[2] .

وقد عرضت سورة النساء نفسها إلى هذا الشأن حين تحدثت عن بعض الصور التى كانت تمثل ضلال المشركين ، وذلك حيث تقول : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبينا * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾[3] .

والغرض من هذا هو أن نعرف أن هذا الإنسان مخلوق على طبيعة تجعله مستعداً للخير والشر جميعاً . وأنه محاط بعوامل الإغراء والإغواء من الشيطان الذى يمثل قوة الشر والإفساد ، وقد أبقاه الله وخلده إلى يوم القيامة قائماً بهذا الدور مع التحذير منه . وتحصين الإنسان من دعوته بالهداية والإرشاد .

---

(١) الآيات ٣٩ - ٤٢ سورة الحجر .

(٢) الآيات ٦١ - ٦٥ سورة الإسراء .

(٣) الآيات ١١٧ - ١٢١ من سورة النساء .

وأن هذا الخلق على هذا النحو وعلى إحاطته بتلك العوامل هو ما أراده الله عن علم وحكمة ، لأنه هو المناسب لقدرات الخلافة والمستخلف وما استخلف عليه .

وليس من سبيلنا أن نتوسع فى البحث لنصل إلى بيان تلك المناسبة ، أو بعبارة أخرى إلى بيان كيف يناسب الأرض وعمارتها وإقامة الحياة ووجوه النشاط فيها ، أن يكون ساكنها والخليفة فيها على هذا الطراز الجامع بين الخير والشر ، والصلاح والفساد ، ليس من سبيلنا أن نتوسع فى بيان ذلك ، وإنما نريد أن نصل إلى أن الإسلام كما ينطق كتابه ــ يعرف وضع الإنسان حق المعرفة ، ولا يكلف الناس أن ينسوا هذا الوضع الطبيعى ، وأنه لذلك يسلك معاملته ، والتشريع له ، وتنظيم مجتمعه ، ما يتفق وهذه الحقيقة الواقعية من السبل .

فالإسلام لا يفرض أن الإنسان يمكن أن يكون مجتمعاً ملائكياً لا تقع فيه معصية ما ، ولا مجتمعاً مبرأ من كل عيب أو إثم ، فلا يقع فيه إلا الخير والصلاح والاستقامة وأداء الحقوق ونحو ذلك ، ولكنه فرض المجتمع الإنسانى مجتمعاً إنسانياً فعامل الفريقين على أنه قد يخطىء وقد يميل على الصراط المستقيم وقد يأتى الشر ، ويقع فى الفساد ، ولم يضق بهذا ، ولم ينظر إليه على أنه أمر يثير اليأس ، ويبعث على القنوط والإياس ، وإنما نظر إليه فى كثير من السماحة والرفق والإيناس والتبشير ، والمعالجة التى تعتمد الاعتراف بحقوق الفطرة ، وتتقبل المعذرة عما لا يمكن أن يجتنب دائماً بحكم الطبيعة .

رسالة الإسلام فى المجتمع رسالة رحمة وتيسير وتبشير :

لهذا كله كانت رسالة الإسلام فى بناء المجتمع رسالة رحمة وتبشير وتخفيف وتيسير ، لارسالة قسوة ولا تيئيس ولا تشديد ولا تحجير ولا تزمت ونستطيع أن نجد ذلك فى آيات من سورة النساء تصور أهداف التشريع الإسلامى للمجتمع تصويراً واضحاً رائعاً ، وهى قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[1] .

وكأنى بهذه الآيات الثلاث تصور لنا دعوة إلهية توجه إلى الناس ، يقول الله فيها : ياعبادى : إنما أريد مما أشرعه لكم من الأحكام ، ومما أوجهكم إليه من المبادىء والمثل والإرشاد ، أن أبين لكم ، فإن رحمتى تأبى أن أكلكم إلى مجرد تفكيركم ، فإن الإنسان قد يلتوى به التفكير ، وقد يرى حسنا ما ليس بالحسن ، وقبيحاً ما ليس بالقبيح ، وللعقول خداعها كما للحواس خداعها ، وللنفوس شهواتها ، وإملاءتها دون أن يشعر أصحابها فى كثير من الأحيان أنهم متأثرون بهوى ، أو نازعون عن شهوة ، فأنا أريد معاونتكم بالبيان والتوجيه لآخذ بأيديكم إلى الطريق القويم ، والحق المبين .

ياعبادى : إن رحمتى تأبى ترككم وتخلى بينكم وبين المرور لعصور من التجارب واستكشاف ما مر به الذين من قبلكم من سنن الحياة ، فأنا أقربها لكم ، وأهديكم إليها . وأوفر عليكم أحقاباً طوالاً ، تعقبونها

(١) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة النساء .

فى تتبعها ودراستها ، وإعادة تجربتها ، فخذوها منى مصفاة مهيأة فى صور تشريع وتنظيم وإرشاد وتوجيه .

ياعبادى : إنما أريد أن أتوب عليكم وأطهركم من كل ما عسى أن يدنسكم ، أو يلوث أعمالكم ، وأنا أعلم أنكم مخلوقون على وضع يجعلكم تذنبون أحياناً ، وتخطئون أحياناً ، ومن رحمتى وحكمتى أن أطهركم من الذنوب ، ولا أترككم تسترسلون فيها ، وتغوصون فى حمأتها وأن أفتح لكم باب التخلص من الأخطاء ، والتنقى من الأدناس والأرجاس ، فأريد أن أتوب عليكم ، أى أرجع لكم بالتطهير والتنقية والتنظيف ، بما أشرعه لكم من الشريعة ، فتطهروا بذلك أطهركم ، وتوبوا أتب عليكم .

ياعبادى : إن لى دعوة ولأعدائكم دعوة :

إن دعوتى هى تطهيركم ، وإفساح المجال أمامكم لتعودوا إلىّ ، فأعود إليكم . وذلك لا يكون إلا بأن تتوجهوا إلىّ ، وأن تأخذوا عنى ، وأن تقبلوا منى ، وأن تسمعوا إلى ندائى وتوجيهى :

وأن هناك دعوة أخرى تصدر عن إرادة أخرى هى إرادة عدوكم ، الذين يتبعون الشهوات ويؤثرونها تلبية لدعوة الشيطان المتربص بكم الذى آل على نفسه ليغوينكم ، إن هذه الدعوة تقابل دائماً فى كل مجتمع دعوتى — أنا ربكم — فما من مجتمع إلا وفيه صوتان يناديان :

صوت الفضيلة والحق ، وصوت الرذيلة والباطل ، صوت الإصلاح والخير وصوت الإفساد والشرح ، صوت التماسك والاعتصام ، وصوت الانهيار والانحلال ، فأنا ربكم ، ومصدر كل خير ، وكل دعوة إلى الحق والصلاح ، فإلىّ إلىّ — وهؤلاء أعداءكم ، ومصدر كل دعوة إلى الباطل والفساد ، فعنهم عنهم .

ياعبادى : إننى أنا ربكم ، أريد لكم التوبة والتطهر ، ولا تكون التوبة والتطهر إلاّ من ذنب ومن خطأ تقعون فيه ، وأنا لم أرفض أنكم ملائكة أبرار لا تعصون ولا تذنبون ، فأنا الذى خلقتكم ، وأنا الذى ركبت فيكم طبائعكم ، فإذا أذنبتم أو أخطأتم فذلك هو الشأن فيكم ، وكل ما أريده منكم هو أن تعودوا إلىّ ، وأن تستغفرونى ، وتتوبوا ، وعندئذ أقبلكم مرحباً بكم ، ولا أترككم تستمرئون العصيان وتغوصون فى أعماق الرذيلة والكبيرة أما أعدائى وأعداؤكم فيريدون لكم بدعوة التحلل والتفريط أن تميلوا ميلاً عظيماً ، فإذا ملتم هذا الميل العظيم فسد مجتمعكم ، واضطرب ، وعمتكم الفتن ، وخالطتكم عوامل الشقاء ، وتغلغلت فيكم مظاهر السوء ، فتحق عليكم كلمتى وسنتى فى الأمم :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾[1] .

ياعبادى : إنكم ضعفاء ، خلقتكم محاطين بالشهوات والرغبات والحاجات ، وطبعتكم على طابع التلبية لهذه الملكات البشرية . الحيوانية ، ولذلك لم أشرع لكم من الأحكام ما يتنافى وتلك الطبيعة التى خلقتها بيدى ، وسويتها ونفخت فيها من روحى ، لحكمة أعلمها ، ومصلحة أقدرها ، وما أريد بتشريعى

---

(١) الآية ١٦ من سورة الإسراء .

إلا تنظيم هذه الطبيعة والاشراف على إعطائها حظوظها فى نسق منظم يعينها ولا يصادرها ، ويهذبها ولا يحرمها ، ويجذبها دائماً إلى الوسط ، فلا تفريط ولا إفراط ، تلك هى دعوة الله : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾(١) .

حق الإنسان فى أن يخطئ وفى أن يعفى عن خطئه :

يتجلى مما ذكرناه فى هذا التمهيد أن القرآن يريد للمجتمع أن يكون متمسكاً بأهداب الأمل دائماً ، لا ييئس من روح الله ، ولا يشعر أفراده بأنهم مكبلون ، مترصدة عليهم الهفوات ، محاسبون على الصغيرة والكبيرة حساباً عسيرا فيه كثير من القسوة ، وكثير من الصرامة ، كما يتجلى مما ذكرناه أن القرآن يريد المجتمع فى الوقت نفسه متماسكاً غير متحلل ، ولا منساقاً مع الغرائز دون أن يعدلها ، ولا مع الدعوات المنحرفة دون أن يقاومها ، ولذلك نجد دعوة القرآن دائماً فى سورة النساء وفى غيرها دعوة وسطاً ، فلا هى بالدعوة التى تعتمد التخويف إلى درجة التيئيس والإقناط اللذين يفضيان بالمرء إلى الإبلاس والتحير والبلبلة ، ولا هى بالدعوة التى تطلق للإنسان عنان شهواته وآماله ورغباته إلى حد الانبعاث والاندفاع اللذين يفضيان به إلى الارتطام والتردى والعجز عن مكابدة ما لابد منه من الصواب .

فالإنسان فى نظر الإسلام مخلوق له قيمته وله كرامته ، وله حق الاعتراف بميله ، وحق الاعتراف بغرائزه ، وحق الصفح عن أخطائه والتقبل منه ، ولكنه مع هذا ليس بالمدلل المرفه والمتروك سدى ، وإنما هو مسئول مخاطب ، مكلف فى حدود ما يطيق وما يتلاءم مع طبيعته ومكوناته الخَلقية والخُلقية .

وسورة النساء تأخذ قسطاً عظيماً من تركيز المجتمع على هذين المبدأين ، وهنا نبين قسط سورة النساء من ناحية التبشير وبث روح الأمل فى المجتمع ، والقضاء على عوامل القنوط والخوف المفسدين .

الآيات المبشرات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت :

نجد فى كتب التفسير روايات متعددة تشير إلى اشتمال سورة النساء على آيات مبشرات ، من شأنها أن تملأ قلوب الناس . بمحبة الله ، وأن تحيى فيهم الآمال ، وأن تنفى عنهم عوامل اليأس والانقطاع عن الله .

فمن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : أن فى سورة النساء خمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا ومافيها :

١ــ ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٤٠)

٢ ــ ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾(٣١)

٣ ــ ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٧٦/٤٨)

٤ ــ ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ (٦٤) .

٥ ــ ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ (١١٠)

---

(١) الآية ٢٥ من سورة يونس .

وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ثمان آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت أو لهن :

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ .

والثانية : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ .

والثالثة : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ثم ذكر قول ابن مسعود سواءً فى الخمس الباقية .

دراسة للآيات المبشرات :

وقد قدمنا ما نكتفى به من الحديث عن الآيات الثلاث الأولى التى جاءت بها رواية ابن عباس ، أما الخمس الباقية التى جاءت بها رواية ابن مسعود فنتكلم عنها هنا حسب ترتيب السورة .

الآية الأولى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ .

إن الصلاح والفساد مرتبطان بالأعمال والنوايا ، وما لأفراد المجتمع من اتجاهات ، فإذا استقام أفراد المجتمع وعملوا الصالحات ، وكفوا عن السيئات ، كانت لهم نوايا واتجاهات طيبة ، استقام المجتمع على الطريقة وكان مجتمعاً صالحاً راشداً سعيداً والعكس بالعكس :

فإذا كان المجتمع يغلب على أفراده عمل السيئات ، وفساد النيات والاتجاهات ، وعدم الرغبة فى الأعمال الصالحة ، فإن هذا المجتمع لابد أن يضطرب ولابد أن يصبح العيش فيه ضنكاً وشقاء ، وأن يكون من المجتمعات الفاسدة التى لا يستطيع الفرد الوسط أن يطمئن إليها ، أو ينال القرار والرضا النفسى فيها .

اجتناب الكبائر يكفر عن الصغائر ويدخل الناس مدخلاً كريماً :

غير أن هذا الارتباط بين الحالة الخلقية والعملية والنفسية للأفرادوبين سعادة المجتمع وشقائه لا يمكن أن يتجاهل معه ما لابد منه من الأخطاء الجزئية أو المؤقتة أو الصغيرة ، أو ما يعبر عنه بالهفوات ، فلا يمكن أن نتصور مجتمعاً خالياً من الهفوات ومن الهنات الهينات .

ولا يمكن أن يكون أفراد المجتمع كلهم على الطريقة المثلى فى كل شىء ، لذلك لم يكن هدف القرآن الكريم أن يقيم مجتمعاً لا يخطىء أفراده ، ولم يكن من شروط التقوى فى المؤمن ألا يقع منه الذنب أصلاً . ولو كان الأمر كذلك لما كان المجتمع صورة ممكنة واقعية متمشية مع طبيعة الخلق وغرائز البشر ، وإنما يرمى القرآن إلى تخفيف ذلك ، ووضع الضوابط والقيود التى تهذب من هذه الغرائز ، وتحول بينها وبين الاندفاع الثائر المشطط المؤذى ، وهو فى سبيل ذلك ينظر إلى الصغائر والهفوات نظرة فيها كثير من التسامح والرحمة والعطف على الإنسان الذى خلق ضعيفاً ، والذى هو محل لتأثيرات داخلية ـ نفسية وهى الشهوات والمطامع ـ وخارجية شيطانية ـ ومنها المغريات الحسية أو الأدبية ـ .

ولذلك يعلن فى صراحة ووضوح أن يغفر الصغائر لمن انتهى عن الكبائر ، بل لا يقف عند هذا

الحد ، ولكنه يعد بجزاء إيجابى لمن ترك الكبائر ، أى تعفف عن مواقف الإثم الكبرى ، وذلك أن يدخله مدخلاً كريماً ، وليس فى الكلام ما يدل على أن هذا المدخل الكريم هو الآخرة فحسب حيث الجنة وما أعده الله للصالحين من نعيم ، ولكن الوعد صالح لأن يراد به أيضاً المدخل الكريم فى الدنيا ، حيث النجاح فى الحياة وأن يتبوأ الفرد فيها منزلة كريمة ومركزاً محترماً .

عمر بن الخطاب وجماعة من المصريين المتزمتين :

وقد أدرك ذلك عمر بن الخطاب على ما كان يعرف عنه من الشدة والحفاظ والتمسك ، فقد روى أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا : نرى أشياءً من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك ، فقدم وقدموا معه ، فلقى عمر رضى الله عنه فقال له عمر : متى قدمت ؟

فقال : منذ كذا . . كذا . . !

قال : أبإذن قدمت ؟ . . .

فقال : يا أمير المؤمنين إن ناساً لقونى بمصر فقالوا : إنا نرى أشياء فى كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك فى ذلك .

قال : فاجمعهم لى . قال : فجمعتهم له فأخذ أدناهم رجلاً فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله ؟ قال : نعم .

قال : فهل أحصيته فى نفسك ؟ فقال : اللهم لا .

قال : فهل أحصيته فى بصرك ؟ فهل أحصيته فى لفظك ؟ فهل أحصيته فى أثرك ؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم فقال : ثكلت عمر أمه : أتكلفون الناس على كتاب الله ، قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ؟ وتلا : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ ثم قال : هل علم أهل المدينة أو قال : هل علم أحد بما قدمتم ؟ قالوا : لا : قال : لو علموا لوعظت بكم . ـــ أى لعاقبتكم على هذا التزمت والتشدد ـــ عقوبة تكون عظة لغيركم .

وهذا إنصاف عظيم من الإسلام . وحكمة ولباقة فى السياسة والتوجيه ، أما أنه إنصاف فذلك لما فيه من ملاحظة الطبائع والفطر والمؤثرات التى لا ينفك عنها إنسان ولا مجتمع مؤلف من أفراد الإنسان .

وأما أنه حكمة ولباقة فى السياسة والتوجيه فذلك لأنه يرمى إلى عدم فصل الألفة التى تربط الإنسان بالدين وقيادته وتأثيره ، فالله تعالى يقول بهذا لعباده إذا كنتم أخطأتم باقتراف بعض الصغائر فلا تيئسوا ولا تقنطوا ، فإن ترككم للكبائر هو فى ذاته عمل صالح من شأنه أن يطهر مجتمعكم ، وأن يدرأ عنكم كثيراً من ألوان الفساد ، بل من شأنه أن يجعلكم صالحين لأن تتلقوا فضل الله وتكريمه بإدخالكم فى الدنيا والآخرة مدخلاً كريماً ، ولا شك أن هذا يبعث فى الأفراد وفى المجتمع لوناً من الطمأنينة والاستبشار ، ويحول بين النفوس وما قد يعتريها من القنوط والهم والحزن وغير ذلك مما يفضى إلى الاسترسال فى فعل السيئات ،

وارتكاب الموبقات وفيه من ناحية أخرى : تقوية الإنسان على محاربة الرذيلة فى أقوى صروحها ، حيث تتوافر على هذه الحرب كرائم الجهود وتتجه إلى ميادينها العزمات فى قوتها . دون أن تشعر بأنها إذا خسرت المعركة فى ميدان الصغائر ، قد خسرت كل شىء فلا تستطيع أن تنهض من بعد .

إن القائد الحكيم لا يجزع ، ولا يترك لجنوده أن يجزعوه ، لأنهم خسروا معركة جزئية ، بل يوجههم إلى كسب المعارك الكبرى ، ولا يدع روح الهزيمة تتمكن من قلوبهم ، فيشغلهم ويضعفهم :

فهى إذن سياسة حكيمة ، وطريقة لبقة يسلكها المشرع الإسلامى على بصيره . ويدرك علماء التربية مالها من تأثير إصلاحى نفسى وعملى ، وما لها من إيحاء بترك عظائم الذنوب التى من شأنها إفساد النفوس ، وإفساد البيئات والمجتمعات .

ما هى الكبائر :

والكبائر التى أشير إليها فى هذه الآية قد مر كثير منها فيما تقدم قبل ذلك من سورة النساء ، فأكل أموال التيامى من الكبائر ، وتعدد الزوجات مع عدم العدل بينهن من الكبائر ، والتفريط فى شئون الضعفاء والمحجور عليهم من الكبائر ، وتغيير ما فرضه الله فى المواريث من الكبائر ، وارتكاب الفاحشة بين الرجال أو بين النساء من الكبائر ، والإصرار على الذنوب وعدم التوبة منها من الكبائر ، وإساءة الرجال إلى النساء أو النساء إلى الرجال فى العشرة من الكبائر ، وظلم أحد الجنسين للآخر واهتضام حقه من الكبائر ، وتعدى حدود الله فى المحرمات من النسب أو من الرضاع أو من غيرهما من الكبائر . . . هكذا .

ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ بعد ثلاثين آية من سورة النساء ذكر فيها حكم الله تعالى فى كثير من المسائل التى تتصل اتصالا وثيقاً بصلاح المجتمع ، ودرء المفاسد والموبقات العملية عنه .

ولهذا ورد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها . ثم تلا : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾

والواقع أن الكبائر لا تقف عندما ذكر فى هذه السورة قبل هذه الآية ، وأن ابن مسعود لا يقصد هذا ، وإنما يقول ابن مسعود ما يقول بيانا ، لأن هذه الآية جاءت فى ترتيب السورة بعد ذكر جملة من الكبائر مجىء القاعدة العامة التى تطبق على جزئيات كثيرة ، منها هذه الجزئيات التى مرت فى آيات السورة .

قد ورد فى بيان الكبائر كثير من الروايات ونذكر منها ـ بحسب ما يؤخذ من الروايات : الإشراك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، والفرار من الزحف ، ورمى المحصنات ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، والزنا ، وشرب الخمر ، واليمين الغموس ـ وهى التى يحلفها صاحبها عالما بكذبه ـ وأن يعرض الإنسان أبويه للعن بلعنه الناس ـ قال ﷺ : (من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه) ، قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ، قال : (يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه) .

ومن الكبائر الخوض فى أعراض المسلمين والسبتان بالسبة ـ أى إذا سب رجل آخر سبة فردها إليه سبتين .

ومن الكبائر : اليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، وسوءالظن بالله ، وتفضيل بعض الأولاد على بعض فى الوصية ، والوصية التى يقصد بها العذر ، والغلول ـ وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ـ وفى حكمه أكل أموال الأمة ظلماً ـ وغير ذلك .

والقاعدة أن كل ذنب من شأنه أن يترتب عليه فساد كبير ، أو أن يخرج بالمؤمن إلى دائر الفسق والفجور أو الظلم والطغيان أو الجحود بنعمة الله تعالى ، فهو كبيرة من الكبائر التى يجب على المؤمن أن يكون قوياً فى مقاومتها والتحفظ منها .

تنبيه :

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن الصغائر لا تقاوم ولا يعتد بها ، كأنها مباحات ، فإن الذنب ذنب ، والإصرار على الصغائر ربما كان من الكبائر أصلا ، وربما جر إليها فعلاً ، وغاية ما نريده من هذا الفصل هو أن نبين ما فى الإسلام من سماحة ، وما للقرآن من تبشير وتيسير وإدراك لطبيعة البشر ، وتوجيه إلى عدم اليأس والإبلاس ، وأن هذا من شأنه أن يجعل الإنسان قريب الرجوع إلى ربه ، سريع الإقلاع عن ذنبه ، وأن يحول بينه وبين أن يفقد ثقته بنفسه .

اسألوا الله من فضله

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

المفردات : ﴿ التمنى ﴾ : تشتهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون .
﴿ من فضله ﴾ : أى إحسانه ونعمه المتكاثرة .

جاء فى سبب نزول هذه الآية أن أم سلمة قالت : يارسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ،ولنا نصف الميراث ، فأنزل الله : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾[1]

وفى رواية أخرى ، قالت أم سلمة : يارسول الله لا نقاتل فنستشهد ، ولا نقطع الميراث ، فنزلت الآية ، ثم أنزل الله : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾[2] .

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٤ : ٨) .
(٢) الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .

وفى هذه الآية :﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ توجيه ربانى ، وإرشاد إلهى إلى التأدب مع الله تبارك وتعالى . فقد اقتضت المشيئة الإلهية والحكمة الربانية أن يكون لكل إنسان ما قسم الله له ، فلا ينبغى أن يتمنى ويشتهى ما فضل الله به غيره عليه . فالله جلّ شأنه جعل لكل من الفريقين نصيبا من اكتسابه ، سواء أكان ذلك النصيب فى الدنيا أم فى الآخرة .

فقد خص الله الرجال بما يناسب حالهم خلْقا وخُلُقا وعقلا وجسما ، وخص النساء بمثل ذلك مما يناسب أحوالهن . فالرجل أقوى من المرأة عقلا وخَلقا ، ليناسب ذلك الكدّ الدءوب سعيا وراء تحصيل الرزق والمشى فى مناكب الأرض ، كما أن المرأة أقوى من الرجل حناناً وعاطفة ، ليناسب ذلك أمومتها ورعايتها للطفولة وتربية الأبناء ، والكل مأجور على عمله ، فالبر لا يبلى والذنب لا يُنسى ، والديَّان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تُدان . ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾[1] . وفضل الله واسع لا يضيق ولا حجر عليه .

قال تعالى : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ قال رسول الله ﷺ : (سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل ، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج)[2] .

قوله تعالى : ﴿ إن الله كان بكل شىء عليما ﴾ أى عليما بمصالح العباد ، فالمؤمن الحق هو الذى يرضى بما قسم الله ، فإن ما قد يراه شراً قد يكون الخير كامنا فيه ، وما قد يراه خيرا ، قد يكون الشر كامنا فيه ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون[3] ﴾

إيتاء كل ذى حق حقه

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

المفردات : ﴿ الموالى ﴾ : من يحق لهم الاستيلاء على التركة ﴿ مما ترك ﴾ : أى وارثين مما ترك [والذين عقدت أيمانكم ﴾ : هم الأزواج ، فإن كلا من الزوجين له حق الإرث بالعقد ، والمتعارف عند الناس فى العقد أن يكون بالمصافحة باليدين .

بعدما نهى الله تعالى عن أكل الأموال بالباطل ، وقتل النفس ، وتمنّى بعض الناس ما فضّل الله به البعض الآخر ، بعد ذلك كله بين الله جل شأنه ، إن لكل من الرجال الذين لهم نصيب مما اكتسبوا ومن النساء اللواتى لهن نصيب مما اكتسبن ، موالى لهم حق الولاية على ما يتركون من كسبهم .

---

(١) الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات (١١٥) .

(٣) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

ثم بين هؤلاء الموالى فقال سبحانه : ﴿ الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم ﴾ أى إن هؤلاء الموالى هم جميع الورثة من الأصول والفروع والحواشى والأزواج .

﴿ فآتوهم نصيبهم ﴾ أى فاعطوا هؤلاء الموالى نصيبهم المقدر لهم ، ولا تنقصوهم منه شيئا .

﴿ إن الله كان على كل شىء شهيداً ﴾ أى أن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم فى التركة وغيرها ، فلا يطمعن من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئاً ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، كبيراً أم صغيراً ، وجاءت هذه الآية لمنع طمع بعض الوارثين فى بعض .

إصلاح الحياة الزوجية

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

المفردات : يقال هذا قيِّم المرأة وقوَّامها ، إذا كان يقوم بأمرها ويهتم بحفظها : وما به الفضل قسمان : فِطرِىّ ، وهو قوة مزاج الرجل وكماله فى الخلقة ، ويتبع ذلك قوة العقل وصحة النظر فى مبادىء الأمور وغاياتها ، وكسبى وهو قدرته على الكسب والتصرف فى الأمور ، ومن ثم كلف الرجال بالإنفاق على النساء ، والقيام برياسة المنزل . والقنوت : السكون والطاعة لله وللأزواج . والحافظات للغيب : أى اللاتى يحفظن ما يغيب عن الناس ، ولا يقال إلا فى الخلوة بالمرأة .

وتخافون أى تظنون . ونشزت الأرض: ارتفعت عما حواليها ، ويراد بها هنا معصية الزوج والترفع عليه . والبغى : الظلم وتجاوز الحد والشقاق : الخلاف الذى يجعل كلا من المختلفين من شق أى جانب ، وخوفه توقع حصوله بظهور أسبابه ، والحكم من له حق الحكم والفصل بين الخصمين . وبعث الحكمين : إرسالهما إلى الزوجين ، لينظرا فى شكوى كل منهما ، ويتعرفا ما يرجى أن يصلح بينهما .

جاء فى سبب نزول هذه الآية : « أن سعد بن الربيع ــ وكان من النقباء ــ نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ، فلطمها ، فانطلق أبوها معها إلى النبى ﷺ فقال : أفرشته كريمتى فلطمها ، فقال النبى ﷺ

« لتقتص من زوجها ، فانصرفت مع أبيها لتقتص منه ، فقال النبى ﷺ : ارجعوا ، هذا جبريل أتانى وأنزل الله هذه الآية فتلاها ﷺ وقال : أردنا أمرا وأراد الله أمرا ، والذى أراده الله خير » .

وقد جاء فى تفسير هاتين الآيتين أحكام قيمة ومواقف عظيمة ، شأن الإسلام فى كل أحكامه ، قال صاحب كتاب « المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء » ، قال رحمه الله تعالى تحت عنوان : « حق كل من الزوجين على صاحبه » : عنيت السورة بالحياة الزوجية من حيث حسن المعاشرة ، فأوجب الله معاشرة النساء بالمعروف ، وبين أن عاطفة الحب والكره ليستا دائماً أمارة على المستقبل السعيد أو الشقى ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[1]

كما عنيت ببيان الأساس الذى يجب أن تقوم عليه حقوق كل من الرجال والنساء ، فبينت أن للرجل على المرأة حق الرياسة ، وعليها أن تطيعه وتحفظ غيبته ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى :

﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ .

وتتلخص الأحكام التى جاءت بها هذه الآيات فيما يأتى :

١ ـ على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف .
٢ ـ على المرأة أن تطيع زوجها وتخضع لرياسته ، وأن تحفظ كل ما أمر الله بحفظه فى نفسها وبيت زوجها ، فقد جعلها الله أمينة على ذلك .
٣ ـ على الرجال والنساء كليهما أن يرضخا لحكم الله فى تهيئة كل منهما على الوضع المناسب للمقصود منه ، فلا يتطلع النساء إلى ما خص الله به الرجال وجعلهم مفضلين فيه ، ولا يتطلع الرجال إلى ما خص الله به النساء ، وجعلهن مفضلات فيه .

أحوال الخلاف بين الزوجين :

(١) نشوز المرأة وكيف يعالج :

رسمت سورة النساء الخطة التى تتبع فى حالة وقوع خلاف بين الزوجين ، وإذا تدبرنا الأقسام التى يكون عليها هذا الخلاف وجدناها ثلاثة ، ووجدنا السورة قد عرضت لكل قسم منها ، وأعطت الحكم المناسب له .

فالحالة الأولى : هى حالة الزوجة التى يخشى منها النشوز ، وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها فى قوله تعالى : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ .

(١) الآية ١٩ من سورة النساء .

ومن هنا أخذ الاصطلاح المشهور عن النشوز ، وهو فى الأصل الارتفاع ، ويراد به هنا أن تستعصى المرأة على زوجها وتنفر منه ، ولما كان خلاف النساء يرجع غالبا إلى ترفع المرأة وتعاليها عن قبول رياسة زوجها وطاعته ، سمى استعصاؤها عليه نشوزاً ، كأنها قد ارتقت عنه نشزا من الأرض . وفى الآية معنى يجب أن نلتفت إليه ، وأن نوجه به وجهة الإسلام فى وضع هذه العقوبات بين يدى الأزواج على زوجاتهم ، وخطته فى تنفيذها على سنة التدرج . ذلك أن الآية تقول ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن ﴾ فلا ترتب الحكم على وقوع النشوز ، ولكن على توقعه ، فخوف وقوع الشىء هو توقع حصوله ، وإنما يكون هذا التوقع أو هذا الخوف من الوقوع إذا ظهر فى أفق الزوجية بوادر تدل على أن المرأة تتجه إلى التخلص من سيطرة الزوج ورياسته ، وتسير فى الطريق المؤدية إلى عصيانه .

ولما كانت الأوائل تدل على الأواخر ، وكان شأن الخلاف أن يبدأ صغيرا ثم يكبر تدريجياً حتى يصبح جفاءً مستحكماً ، وبغضاً ليس من السهل اقتلاعه من القلوب ، فإن الله تعالى يرشد إلى المبادرة بالعلاج ، وألا ينتظر الأزواج حالة النشوز الفعلى ليبدأوا علاجهم ، ولهذا وضعت خطة هذا العلاج متمشية مع المعروف من أطوار الخلاف :

أولا : ﴿ فعظوهن ﴾ : فالبوادر الأولى الموحية بأن الزوجة سائرة فى طريق المخالفة والمغاضبة والاستعصاء ، يناسبها الخطوة الأولى وهى خطوة النصح والإرشاد فى رفق ولين ، وتلك هى المذكورة بقوله تعالى : ﴿ فعظوهن ﴾ .

وما أبلغ هذا اللفظ فى الدلالة على المراد ، فإن الوعظ نصح مبنى على التذكير بالخير فيما يرق له القلب ، أو التخويف من عواقب الشر على نحو من التحذير والتبصير ، فالزوج يبادر زوجته فى هذا الطور الأول حين يكون الخلاف مستترا ، أو على استحياء ، فينصحها نصحاً رقيقاً يستعمل فيه لباقته وحصافته ، ويذكرها فيه بذكرياتها الجميلة ، ويثنى فى تلطف على أخلاقها وأخلاق أسرتها ، ويحذرها شماتة الأعداء ، وأسف الأصدقاء ، ونحو ذلك دون أن يظهر بمظهر الضعف أو التذلل ، ولا بمظهر التهديد والتوعد .

وهذه الخطوة الأولى من خطوات العلاج الزوجى هى خطوة طبيعية ، وكل زوج وزوجة يعرفان ما لها من أثر فى إزالة كثير من أسباب الخلاف ، ومن حسم الشر فى منابعه ، وعدم السماح له بأن يأخذ طريقه إلى جو الأسرة ، فيفسده ويكدر صفاءه .

وينبغى أن يفهم أن هذه الخطوة الأولى المناسبة للبوادر الأولى ، لا تقف عند بذل هذا الوعظ والنصح مرة واحدة ، فإن الشأن فى هذه المرحلة تطول بعض الوقت ، وأنها تقابل فى الحين بعد الحين بالتذكير ، وما يناسب كل حالة من النصح والتحذير ، بل قد يكون من أساليب الوعظ والإصلاح أن يتسامح الرجل أحيانا ، وأن يغفر عن قدرة وتمكن ، لتعرف الزوجة فضله فى ذلك ، وأنه ليس متهورا مندفعاً من أول الأمر ، فإن ذلك يصلح كثيرا من النساء اللواتى لا تصلحهن الشدة والعنف .

ثانيا : ﴿ واهجروهن فى المضاجع ﴾ : فإذا لم تنجح الخطوة الأولى فمعنى ذلك أن طوراً آخر من أطوار الخلاف، أو مقدمة أخرى من مقدمات هذا النشوز المتوقع قد بدأت تفعل فعلها، ومن المناسب لذلك أن يظهر الرجل بمظهر المتعض ، وأن يعبر عن هذا الامتعاض بطريقة صامتة ، ولكنها بليغة فى صمتها، مؤثرة تأثيرا كثيرا فى المرأة ، فإن أكبر ما تعتز به المرأة أن ترى زوجها هائما بها ، شديد الميل إليها . فإذا وجدت منه ما يدل على الانصراف عنها ، وعدم التأثر بأنوثتها ، أحست أنها بدأت تدخل فى منطقة من الخطر ، وأن عليها ألا تسترسل ، ولذلك أمر الله تعالى بالهجران فى المضاجع ، ليظهر هذا الموقف السلبى من الرجل فى أقصى مداه ، لتشعر به المرأة واضحا ، وهذا هو السر فى أن التعبير جاء بقوله : ﴿ واهجروهن فى المضاجع ﴾ ، ولم يأت بمثل واهجروا مضاجعهن ، لأن هجر المضجع مع كونه هجرا إلا أنه على صورة تساعد على تقبله حينا والصبر عليه وقتاً ما ، ولكن الهجر فى المضجع أشد إفصاحا عن انصراف النفس ، لأنه هجر مع قرب الدواعى وتيسرها .

وبعض الناس يظن أن هذه الخطوة ليست بمجدية ، لأن المرأة مادامت متجهة إلى مخالفة الرجل ، سائرة فى طريق منازعته ، لا يهمها أن يبتعد عنها ، بل إن بعض النساء يرين ذلك خيراً لهن ، ولا يعبأن بهذا الأمر ، ولا يبالين كثيراً بأن يحدث أو لا يحدث ، ويزداد هذا الشعور بوجود الخلاف فإن الخلاف يجعل المرأة منصرفة عن هذا اللون من المتاع الزوجى الذى لا يحسن عادة إلا حين يكون الصفاء ، وخلو النفس من الأحزان ، فكيف يتصور حينئذ أن يكون هذا علاجا للمرأة فى حالة الخوف من نشوزها وترفعها وامتناعها ؟ .

وهذا الظن ليس بمقبول ، لأن العبرة بالغالب على طبيعة المرأة ، فإذا كان بعض النساء يرحبن بمثل ذلك فهن ولا شك ناقصات من حيث التكوين الجنسى وأولاء قليلات ، والشأن فى العلاج أن يعنى على الحالات الغالبة لا على الحالات الشاذة .

ثم إن هذا العلاج ليس مقصوداً لذاته ولكنه مقصود لتتخذ منه الزوجة دليلاً على امتعاض الزوج من تصرفها ، فإذا كان الزوج بعد عصيان نصحه ووعظه يبدو متلهفاً على زوجته ، ويصلها فى مضجعها ، متأثراً بدافع شهوته ، فإنه بذلك يظهر بمظهر غير جاد ، ويجعل الزوجة تشعر فى أعماق نفسها بأنها أقوى منه ، وأكبر تأثيراً عليه وأن لديها من المقدرة على تطويعه أعظم مما لديه ، وهنا تفسد الخطوة الأولى ، وتضيع هباء وبذلك يتبين أن هذه الخطوة الثانية لو أديت على وجهها ، وفى وقتها المناسب لها تكون خطوة فعالة وأنها على الأقل تكون سنادا طبيعيا للخطوة الأولى وإلا كان الرجل متصنعا فى نصائحه وعظاته ، ممثلا لدور الغاضب أو الآسف بينما هو الراغب الطالب .

ثالثا : ﴿ واضربوهن ﴾ : ولكن ينبغى أن نعلم أيضا أن أسلوب الهجران الزوجى لا يمكن أن يستمر طويلا ، فإن له بمقتضى الطبيعة البشرية مدى لا يحتمل الزوجان أكثر منه ، فهو إما أن يؤدى الغاية منه سريعا وإما أنه يعلم أنه هو أيضا غير مفيد فى تطويع هذا الإباء ، وتقويم هذا الاعوجاج وهنا تأتى الخطوة الثالثة ، لأن الخلاف قد انتقل من طور البوادر الأولى وامتحن بالخطوة الثانية فأسفر الامتحان عن ثباته

إليه ، عارفة أن ذلك خيرا لها ، وإذن فقد تنازلت هى عن بعض حقها ورضى الزوج بأن يبقيها ، ويقوم بجميع نفقاتها مع كونها غير موافقة له .

وقد يتصالحان على الطلاق بعوض ، فيعطيها الرجل مالا ومتاعا ، أو تتنازل هى له عن شىء من مالها أو من صداقها ، فلا جناح عليهما فى ذلك إذا تراضيا عليه .

٢ – وفى الآية الأولى بعد بيان هذا الحكم إرشاد للزوجين كليهما بأن يؤثرا الصلح بينهما على وجه من الوجوه دون أن يترافعا أو يتخاصما ، فإن العادة جرت بأن نفور الرجل من المرأة يكون لأسباب فى الغالب من النوع الحساس ، والتخاصم فى مثل هذه الحالة يكون عرضا لأسرار الأمر فى صورة صادقة أو كاذبة على القاضى أو من يقوم مقامه ، وقد يؤدى الموقف إلى كثير من المشكلات بين أقارب الزوج والزوجة ، فربما تعرض الزوج فى سبيل عرض مشكلته إلى ما يسىء الزوجة فى نفسها ويسىء أقاربها تبعا لذلك ، فيغضبون ويفكرون فى الانتقام من الزوج وربما يغضب للزوج أيضا أقاربه فيتسع مجال النزاع ، ولهذا أرشد الله كلا من الزوجين إلى ما هو خير وأولى بهما وهو التفاهم بينهما والتراضى فقال : ﴿ والصلح خير﴾ .

ولعل فى هذا ما يوحى بأن الشارع لا ينظر بعين الرضا إلى ما يدعو إليه بعض الناس فى عصرنا من التزام أن يكون الطلاق أمام القضاء ، وألا يأذن به القاضى إلا إذا كان له أسباب تبرره .

والحق أن هذه دعوة منافية للمصلحة ، وأنه لو استجيب لها لجرت على المجتمع كثيراً من الوبال ، وحسبنا أن المرأة التى يحكم لزوجها بطلاقها ستكون بعد هذا الحكم منظوراً إليها من الناس بنظرات الشك والتظنن ، فلا تكاد تجد من يقبل عليها من الأزواج .

ولا يصح أن يعترض على ذلك بأن الإسلام يبيح للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها للضرر ، وبأنها فى سبيل إثبات هذا الضرر كثيرا ما أفاضت وتعرضت لأسرار ، وأن الأزواج يلاقون من ذلك شيئاً كثيراً فلا يضرهم ، ولا يجعل الناس ينظرون إليهم نظرات التظنن أو الاحتقار .

نقول : لا يصح أن يعترض بذلك ، لأن هذا قياس مع الفارق كما يقولون ، فإن وضع المرأة فى المجتمع يجعل شرفها وأمرها كله عرضة للتأثر السريع ، ولا كذلك للرجل .

٣ – ثم حذرتهما الآية من العقبات النفسية التى قد تحول بينهما وبين إتمام هذا الصلح ، فالعادة جرت بأن الصلح يحتاج إلى تقابل من الطرفين وتلاق فى منتصف الطريق ، فهذا يضحى ببعض التضحية ، والآخر يبادل تضحيته بمثلها ، أو بأكثر منها ، ولكن النفوس يحضرها الشح والضن ، فليس من اليسير أن تبذل أو أن تتنازل ، فعلى الزوجين أن يقاوما فى نفسيهما هذه الموانع النفسية وعلى الرجل فى ذلك القسط الأوفر ، فإنه بحكم وضعه من أول الأمر هو الطرف الباذل ، ثم هو الذى نشز أو أعرض أو اتجه إلى هذا النشوز أو الإعراض ، فبدرت منه بوادره ، فمن حق الزوجة عليه أن يرضيها وألا ينسى مكانتها منه وماضيها معه ولذلك يقول الله عز وجل : ﴿ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

فالخطاب للأزواج ، وهو ترغيب لهم فى أن يتناولوا هذا الأمر تناولا حسنا يخفف وقعه على الزوجات ، وتحذير لهم من أن يخرجوا فيه عن حدود التقوى والخوف من الله فيشتدوا حيث لا موجب للشدة ، أو يسرفوا فى الادعاء على الزوجات ، أو يجمدوا عن بذل ما يصلح نفوسهن ولا يبعث فيها الرضا والقبول .

٤ – ولما كان أكثر ما يبعث الكراهية نشوزا أو إعراضا فى قلب الرجل ، هو اتجاهه إلى زوجة أخرى ، فإن الآية الثانية جاءت بإرشاد مبنى على هذا الغرض ، ذلك أن من المحال على الرجل أن يعدل بين امرأتين لأن العدل ميزان يقتضى أن يكون هناك تكافؤ تام بين طرفين ، فإذا استطاع الرجل أن يحقق هذا التكافؤ أو هذا التوازن فى الميل القلبى والمحبة الزوجية التى من شأن المرأة أن تحسها بها بمقتضى غريزة الأنثى ، فالله تعالى لا يتحدث عن غير المستطاع ، فإنه لا تكليف إلا فى حدود الاستطاعة، ولكنه يقرر أولاً هذه الطبيعة ليكون تقريرها تمهيداً لما يأتى بعدها .

ثم ينهى عن أن يميل الرجال كل الميل عن زوجاتهم إذا كرهوهن ، فإن ذلك من شأنه أن يجعل المرأة كالمعلقة فلا هى بزوجة تنال حقوقها الزوجية كاملة ، ولا هى بمطلقة تلتمس السعادة الزوجية فى تجربة أخرى ، ولا شك أن الإنسان يستطيع أن يعالج نفسه فى هذا الشأن فيُصل إلى تلطيف حدته العاطفية ويخفى جانبا كبيرا من ميله النفسى وذلك بأن يجبر نقصه العاطفى بالتلطف فى المعاشرة والتحايل بمختلف أساليب الرقة واللباقة ، لكيلا يجرح شعور المرأة ، فهذا فى الحقيقة نهى عن الاسترسال فى عاطفة البغض ، وعن تغذيتها بما يقويها ويجعل الزوج يميل كل الميل عن زوجته فيؤذيها .

وقد جاء ختام هذه الآية أيضا ترغيبا للرجال فى الإصلاح ومحاولة كل ما يؤدى إليه ، وتحذيرا من الخروج على أمر الله بالظلم والتمادى فى الإساءة ، وذلك ما يؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وأن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما ﴾ فهو يغفر لكم ما عسى أن يكون من انسياق أحيانا مع دواعى الميل القلبى ، إذا كنتم تجاهدون ذلك حسب استطاعتكم رحمة بكم .

خطأ مشهور :

وبعض الناس يركب من هذه الجملة والجملة التى جاءت فى آية التعدد قياسا فيقول : إن الله تعالى نهى الرجال عن التعدد إذا خافوا العدل ، ثم قرر أن العدل بين النساء مستحيل على الرجال ، فالنتيجة أن التعدد منهى عنه .

وهذا شبيه بما يسمى فى علم المنطق « بالسفسطة » ، ومثله كمثل أن يشار إلى رسم مصور لفرس ثم يقال هذا فرس ، وكل فرس صاهل ، فهذا صاهل .

وإنما جاء الكذب فى النتيجة من أن « الفرس » فى القضية الصغرى غير الفرس فى القضية الكبرى ، فإن الذى فى الورق ليس فرسا وإنما هو صورة فرس ، والذى يصهل ليس من أفراده الذى فى الورق ، ولكن الذى فى الخارج حيوان متحرك ذو حياة .

وكذلك هنا ، فخوف العدل فى قوله : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ هو خوف الرجل من عدم القيام بحقوق الزوجات على سنة التوازن الدقيق والتكافؤ التام ؛ وهذا إنما يتصور ملاحظته فى التكليف إذا فسر العدل فيما يملك الزوج من النفقة وتوابعها ، ومن مقاومة الميل التام عن إحدى الزوجتين لتلطيف حدته ، وإلا كان إدخاله فى نطاق التكليف واشتراطه فى إباحة الحكم عبثا ــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

أما العدل فى قوله جل شأنه : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فهو المساواة فى الميل القلبى والحب ، أى توزيع العاطفة القلبية على الزوجات بالقسطاس المستقيم ، وذلك هو المحال المنفى بحرف ﴿ لن ﴾ والدليل على ذلك أنه أتبع بقوله تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ أى لا أكلفكم العدل المطلق فى ذلك فهو محال ، وليس من شأنى أن أكلفكم محالا : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾[1] ولكن أكلفكم ما هو فى وسعكم ، وذلك هو عدم الاسترسال فى الميل وتغذيته بما يقويه ويجعله ميلا تاما ، وبهذا يتبين أن العدل المشترط هو العدل فيما يملك الرجال ، وأن العدل المنفى هو العدل الذى لا يستطاع .

وإنما أوضحنا هذا مع اشتهاره فى كتب التفسير ، ومع دلالة الروايات المروية فى أسباب النزول عليه لأننا أردنا أن يعلمه الذين تعودوا أن يثيروا هذا الاحتجاج ممن لا يقرءون كتب التفسير ، ولا يتيسر لهم فهم أسلوبها .

٥ - وقد جاءت الآية الثالثة بعد ذلك بالخطوة الأخيرة حين يتعذر الصلح ولا يكون هناك إلا التفرق بين الزوجين ، والتماس كل منهما حياة أهدأ فى ظل زوجية جديدة ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما ﴾ .

ومما ينبغى الالتفات إليه أن سورة النساء فى هذا كله وفى غيره من أحكام الزوجية لم تذكر الانفصال الزوجى إلا فى هذه الآية ، وهى آخر آية عرضت فيها السورة لشأن زوجى ، ثم هى لم تذكر طريقة الطلاق ولا أحكامه وتفاصيله كما جاء فى سورة البقرة مثلا ، وذلك لأن السورة التى تبنى نظام المجتمع فهى تشرع كل ما يتصل بهذا البناء ، أما إذا انتهى الأمر إلى أن يتفرق كل من الزوجين عن صاحبه فهذا ما تمر به السورة مراً ، وما تقرنه بفتح باب الأمل فى أن يغنى الله كلا من سعته ، حتى لا يتحطم فرد من المجتمع لهذه المصيبة إذا نزلت به ، وحتى يدرك من يقع له ذلك أن هذا هو مصلحته ، وفيه الخير المرجو له ، فإن الرجاء فى استقبال حياة جديدة ، خير من العيش فى حياة كلها كراهية ونزاع ، ولذلك تذكر الآية فى ختامها ما يبعث على الأمل ، وهو وصفه تعالى بأنه كان وما يزال ﴿ واسعاً ﴾ وتذكر أيضا ما يدل على أن الافتراق فى مثل هذه الحالة هو عين الحكمة وذلك هو وصفه تعالى بقوله : ﴿ حكيما ﴾ .

وإذن فهذا أيضا بناء فى المجتمع ، أو هو عصمة من أن تنهار نفوس هى لَبِنات فى بناء المجتمع ، أما تفاصيل هذا الافتراق وأساليبه وأحكامه التشريعية فقد تركته سورة النساء لغيرها .

---

(١) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

(حـ) حالة الشقاق بين الزوجين :

وتلك هى الحالة الثالثة من حالات الخلاف بين الزوجين وقد جاء حكمها فى قوله تعالى : **﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ،إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا ﴾** .

قد تقدم أن الحالة الأولى هى حالة الخوف من نشوز الزوجة ، وأن الحالة الثانية هى حالة الخوف من نشوز الزوج أو إعراضه ، وأن التشريع لهاتين الحالتين انبنى على اعتبار كل منهما مشكلة تحل عن طريق أحد الزوجين ، وما يتوسل به إلى إصلاح الآخر من تأديب أو تصالح ، أما هذه الحالة فهى حالة الشقاق الذى يخاف أن يكون بين الزوجين على المعنى الذى ذكرناه فى نظيريه من أن المراد بالخوف توقع الحصول بسبب ما يبدر من بوادر تؤذن بذلك ، وقد جاء التعبير عن هذا الخلاف بأسلوب إضافة الشقاق إلى **﴿ بينهما ﴾** وذلك قوله تعالى : **﴿ شقاق بينهما ﴾** فقد أضيف الشقاق إلى الظرف وقالوا إنه بمعنى : شقاق بينهما ، أو بمعنى أن البين جعل كأنه يحدث منه مشاقة .

والتفسير الثانى هو الأقوى لأنه يريد أن يقول إن خفتم شقاقاً فابعثوا حكما . . . الخ ، فإن الشقاق اليسير يترك للزوجين ولا يحتاج الأمر فيه إلى بعث حكمين ، وإنما المراد هوالخوف أن يصبح الشقاق هو قاعدة التعامل بين الزوجين ، وهذا يفيده جعل البين نفسه مصدرا للشقاق ، كأن مجرد النسبة القائمة بينهما أصبح هو بذاته مثار الشقاق والنزاع ، وهذا موقف إن دلت الدلائل على أنه قريب الوقوع ، كان على الأمة أو على ولاة الأمر فيها أن يتداركوه قبل أن يكون ، وأن يعالجوه بأن يبعثوا حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة كى يدرسا أمر الزوجين والصعاب التى توشك أن تعصف بما بينهما ، ويحاولا تذليلها ، وإصلاح ذات البين إذا أمكنهما ذلك ، وإنما جعل الحكمان من أهلهما لأن أهل الزوج والزوجة هم أقرب الناس إليهما ، والأمر فى نجاح هذه الزوجة أو فشلها ذو أثر فيهم على نحو ما ، وهم أدنى إلى الإخلاص فى حل مشكلة الزوجين ، وكل طرف منهما يمثل واحداً من الزوجين ويتحدث باسمه دون أن يكون الحديث صادرا من الزوجين ، ففى ذلك ابتعاد عن أسباب التوتر والمراء والمعاتبه التى قد تفسد مشروع الصلح إذا خرجت عن حدها ،وكثيرا ما تخرج .

وهذه الصورة من صور الخلاف تأتى فى المرتبة الوجودية عادة بعد حالة نشوز المرأة واستنفاد كل الوسائل من الرجل فى سبيل إصلاحها ، ومعنى ذلك أن كل العقوبات لم تفد تقويم النشوز ، وأن الأمر بعد ذلك قد دخل فى دور عناد وشقاق ، كما جاء فى آية أخرى تقول : **﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله ﴾**[1] وعدم إقامة الزوجين حدود الله تبدو فى إخراجها الزوجية عن كونها مودة ورحمة وسكنا ، على ما جاء فى قوله تعالى : **﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾**[2] ولهذا جاءت بها الصورة بعد حالة نشوز المرأة وبعد بيان خطوات العلاج فهى تفرض أن هذا كله لم ينجح ، وأن الأمر صائر إلى شقاق ذات البين .

(١) الآية ٢٢٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢١ من سورة الروم .

العبادة والإحسان

* ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

المفردات : عبادة الله : الخضوع له والاستشعار بتعظيمه فى السر والعلن ، بالقلب والجوارح ، والإخلاص له بالاعتراف بوحدانيته ، إذاً لا يقبل عملاً بدونها . والإحسان إلى الوالدين : قصد البر بهما بالقيام بخدمتهما ، والسعى فى تحصيل مطالبهما ، والإنفاق عليهما بقدر الاستطاعة ، وعدم الخشونة فى الكلام معهما . وذى القربى : صاحب القرابة من أخ وعم وخال وأولاد هؤلاء ﴿ والجار ذى القربى ﴾ : هو الجار القريب . الجوار . ﴿ والجار الجنب ﴾ : هو البعيد القرابة ، ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ : الرفيق فى السفر ، أو المستقطع إليك ، الراجى نفعك ورفدك ﴿ وابن السبيل ﴾ : هو المسافر أو الضيف . ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ : عبيدكم وإماؤكم . المختال : ذو الخيلاء والكبر . الفخور : الذى يعدد محاسنه تعاظماً وتكبراً ﴿ وأعتدنا ﴾ هيأنا وأعددنا المهين : ذو الإهانة والذلة ﴿ ورئاء الناس ﴾ : أى للمراءاة والفخر بما فعل القرين : الصاحب والخيل . و ﴿ ماذا عليهم ﴾ أى أىّ ضرر يحيق بهم لو آمنوا وأنفقوا ؟ .

العبادة خضوع تام ، وانقياد وتسليم وتفويض ويقين قلبى ، بأن الأمر كله لله ، وأنه وحده المستحق للعبادة ، وهذا هو توحيد الألوهية ، وله أثر عظيم للعبد عند الله .

قال ﷺ لمعاذ بن جبل : (أتدرى ما حق الله على العباد ؟) قال : الله ورسوله أعلم . قال : (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا) ، ثم قال : (أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ ألا يعذبهم)[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى اللباس (١٠١) وفى الجهاد (٤٦) وفى الاستئذان (٣٠) وفى الرقاق (٣٧) وفى التوحيد (١) . ومسلم فى الإيمان (٤٨ - ٥١) . والترمذى فى الإيمان (١٨) . وابن ماجه فى الزهد (٣٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٠٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٥) وفلا (٣ : ٢٦٠ ، ٢٦١) .

سبحانك ربى :

مـا فى الـوجـود سـواك رب يعبـد كلا ولا مـولى هنـاك فيـقـصـد
يـامن لـه عنت الـوجوه بـأسـرهـا رهبـاً وكـل الكـائنـات تـوحـد
أنت الإله الواحد الحق الـذى كل القلوب لـه تقر وتشهـد

وبعد الأمر بعبادته سبحانه وحده أوصى بالإحسان إلى الوالدين ؛ وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بـين عبادته والإحسان إلى الوالدين كقوله : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك ﴾(١) وكقوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾(٢) وكقـوله تعـالى : ﴿ وإذ أخذنـا ميثاق بنى إسـرائيل لا تعبـدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ﴾(٣) .

ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، كما جاء فى الحديث : (الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صـدقة وصلة)(٤) ، وقـال ﷺ : (الصلة والصدقـة تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار) . (إن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله)(٥) كما أوصى سبحانه بالإحسان إلى اليتيم ، وهو الذى مات أبوه قبل أن يبلغ الحلم ، ويكون ذلك بحسن معاملته وصيانة ماله والإرعاء لشئونه ، قال عليه الصلاة والسلام : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة)(٦) .

كما أوصى تعالى بالمساكين ، والمسكين هو الذى أسكتته الحاجة ، واستحى أن يسأل فيحرم ، قال تعالى : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم ۞ للسائل والمحروم ﴾(٧) وقد يكون المسكين هو الذى لا يقوى على العمل لعاهة من العاهات ، فيكون أولى بالرعاية ، والإسلام هو دين الرحمة . كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : (لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق ياعمر ؟) .

ولن يضيع إحسان عند الله ، فاصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله ، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله ، وصاحب المعروف لا يقع ، وإذا وقع وجد متكأ .

ازرع جميلاً ولو فى غير موضعه فلن يضيع جميـل أينما وُضعـا
إن الجميل وإن طال الزمان به فليس يحصده إلا الذى زرعـا

---

(١) الآية ١٤ من سورة لقمان .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٨٣ من سورة البقرة .
(٤) أخرجه النسائى فى الزكاة (٨٢) . والترمذى فى الزكاة (٣٦) . والدارمى فى الزكاة (٣٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤٠٢) وفى (٤ : ١٨ ، ٢١٤ ، ٢٩٩) وفى (٥ : ٤١٦) .
(٥) أخرجه مسلم فى البر (١٧) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٩) .
(٦) أخرجه البخارى فى الطلاق (٢٥) وفى الأدب (٢٤) . ومسلم فى الزهد (٤٢) . وأبو داود فى الأدب (١٢٣) . والترمذى فى البر (١٤) . والإمام مالك فى الشعر (٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٧٥) وفى (٥ : ٣٣٣) .
(٧) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة المعارج .

وروى مسلم بإسناده عن عبد الله بن عمرو أنه قال للقهرمان له هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا ، قال : فانطلق فأعطهم ، فإن رسول الله ﷺ قال : (كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم)[١] .

ورواه مسلم بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : (للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق)[٢] .

وروى البخاري ومسلم رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : (إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي حره وعلاجه)[٣] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل أو ليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم)[٤] .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ أي مختالاً في نفسه ، معجباً متكبراً ، فخوراً على الناس ، يرى أنه خير منهم ، فهو في نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض .

قال مجاهد في قوله : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً ﴾ يعني متكبرا ﴿ فخوراً ﴾ يعني بعد ما أعطى وهو لا يشكر الله تعالى ، يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه ، وهو قليل الشكر لله على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ ، هذا بيان للمختال الفخور ، روى ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس : كان جماعة من اليهود يأتون رجالا من الأنصار ينصحون لهم ، فيقولون : لا تنفقوا أموالكم ، فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون . فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين يبخلون ﴾ إلى قوله : ﴿ وكان الله بهم عليما ﴾ .

والمراد بالبخل في الآية : البخل بالإحسان الذي أمر به فيما تقدم ، فيشتمل البخل بلين الكلام وإلقاء السلام والنصح في التعليم وإنقاذ المشرف على التهلكة ، وكتمان ما آتاهم الله من فضله يشمل كتمان المال وكتمان العلم .

ثم بين عاقبة أمرهم وعظيم نكالهم فقال : ﴿ وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً ﴾ أي وهيأنا لهؤلاء بكبرهم وبخلهم وعدم شكرهم عذابا يهينهم ويذلهم ، فهو عذاب جامع بين الألم والذلة ، جزاء لهم على ما اقترفوا ، وسماهم الله كفارا للإيذان بأن هذه أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور لا من المؤمن الشكور .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٤٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٤١) . والإمام مالك في الاستئذان (٤٠) . والإمام أحمد في (٢ : ٢٤٧ ، ٣٤٢) .
(٣) أخرجه البخاري في العتق (١٨) وفي الأطعمة (٥٥) . ومسلم في الإيمان (٤٢) . وأبو داود في الأطعمة (٥٠) . والدارمي في الأطعمة (٣٣) . والإمام أحمد في (٢ : ٢٥٩ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٣٠) وفي (٣ : ٣٤٦) .
(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٢) وفي الأدب (٤٤) . ومسلم في الإيمان (٤٠) . وأبو داود في الأدب (١٢٤) . وابن ماجه في الأدب (١٠) .

﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ﴾ الرئاء والرياء والمراءاة سواء ، أى أن مانعى الإحسان من أهل الفخر والخيلاء فريقان : فريق يبخلون ويكتمون فضل الله عليهم ، وفريق يبذل المال لا شكراً لله على نعمه ، ولا اعترافا لعباده بحق ، بل ينفقونها مرائين الناس : أى يقصدون أن يروهم فيعظموا قدرهم ويحمدوا فعلهم .

والكبرياء كما تكون من شىء فى نفس الشخص تكون أيضا بما يكون له من المال والنسب ، والمرائى أقل شرا من البخيل ، إذ هو يحمل الناس على قبول فخره ، واختياله فى مقابلة ما يبذله لهم من مال ، فكأنه رأى لهم عليه حقا عوضا من التعظيم والثناء الذى يطلبه بريائه ، وأما البخيل فقد بلغ من احتقاره للناس أنه لا يرى لهم عليه شيئا من الحقوق ، فهو يكلفهم تعظيمه وأمواله مدخرة فى الصناديق .

والمرائى بخيل فى الحقيقة ، إذ هو إنما يبذل المال لمن لا حق لهم عنده ويبخل على أرباب الحقوق كالزوجة والولد والخادم والأقربين كالوالدين ، ولا يتحرى فى إنفاقه النفع العام ولا الخاص ، وإنما يتحرى مواطن التعظيم والمدح ، وإن كان الإنفاق ضاراً كالمساعدة على فسق أو فتنة ، فهو تاجر يشترى تعظيم الناس له وتسخيرهم للقيام بخدمته .

﴿ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ أى أن المرائين فى إنفاقهم يثقون بما عند الناس من المدح والثناء والتعظيم والإطراء ، ولا يثقون بما أعد الله لعباده من الثواب والجزاء ، ويفضلون التقرب إليهم على التقرب إليه ، فالله فى نظرهم أهون من الناس ، فمثل هؤلاء لا يعدون مؤمنين إيمانا حقيقيا بالله ولا باليوم الآخر ، بل إيمانهم ضرب من التخيل ليس له ما يؤيده من أثر فى القلب ، ولا إذعان للنفس ، فهم لا يعرفون الله ، وإنما يسمعون الناس يقولون قولا فيقلدونهم فيما يحفظونه منهم فهم لا يعرفون أنه موجد الكائنات ، النافذ علمه وقدرته فيما فى الأرض والسموات ، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر ، وأن هناك حياة أبدية لما فضلوا عليها عرض هذه الحياة القصيرة .

ومن أمارات التفرقة بين المخلص والمرائى أن الأول قلما يتذكر عمله ، أو يذكره إلا لمصلحة ، كترغيب بعض الناس فى البذل ، كأن يقول إنى على ما بى من فقر قد أعطيت كذا درهما فى مصلحة كذا ! فاللائق بمثلك أن تبذل كذا وكذا درهما .

أما الثانى فهو يلتمس الفرص والمناسبات للفخر والتبجح بما أعطى وما فعل ، كما لا يبذل المال ولا يعمل العمل الصالح إلا بقصد الرياء والسمعة ، إذ ليس له وراء حظوظ الدنيا أمل ولا مطلب .

﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ أى أن هؤلاء المتكبرين ما حملهم على ما فعلوا إلا وسوسة الشيطان وهو بئس الصاحب والخليل ، والمقصد من هذا أن حالهم فى الشر كحال الشيطان .

وفى الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء فى مسيرته وأن الواجب اختيار القرين الصالح على قرين السوء ، وتعريفه لتنفير الأنصار من معاشرة اليهود الذين كانوا ينهونهم على الإنفاق فى سبيل الله ، وبيان أنهم شياطين يعدون الفقر وينهون عن العرف .

أما القرين الصالح فهو عون على الخير مرغوب فيه منفر بسيرته ونصحه عن الشر مبعد عنه مذكر بالتقصير مبصر بالعيوب ، وكم أصلح القرين الصالح فاسداً وكم أفسد قرين السوء صالحا .

﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴾ أى وما الذى كان يصيبهم من الضرر لو آمنوا بالله إيمانا صحيحا يظهر أثره فى العمل ؟ وفى هذا الأسلوب إثارة تعجب الناس من حالهم ، إذ هم لو أخلصوا لما فاتتهم متعة الدنيا ولفازوا مع ذلك بسعادة العقبى ، فكثيرا ما يفوت المرائى ما يرمى إليه من التقرب إلى الناس وامتلاك قلوبهم ويظفر بذلك المخلص الذى لم يكن من همه أن أحدا يعرف ما عمل فيكون الأول قد رجع بخفى حنين بينما الثانى فاز بسعادة الدارين .

فجهله جدير بأن يتعجب منه لأنه جهل بالله وجهل بأحوال الناس ، ولو آمن وأخلص ووثق بوعد الله ووعيده لكان فى هذا سعادته ، فالإيمان سلوى من كل فائدة وفقده عرضة لليأس من كل خير ، ومن ثم يكثر الانتحار من فاقدى الإيمان وأما المؤمن فأقل ما يؤتاه فى المصائب الصبر الذى يخفف وقعها على النفس وأكثره رحمة الله التى بها تتحول النقمة إلى نعمة بما يستفيد من الاختبار والتمحيص وكمال العبرة والتهذيب .

وقد يبتلى الله المؤمن ويمتحن صبره فيعطيه إيمانه من الرجاء به ما تخالط حلاوته مرارة المصيبة حتى تغلبها ، وقد يأنس أحيانا بها لعظم رجائه وصبره ، وهذا وإن كان نادرا فهو واقع حاصل .

﴿ وكان الله بهم عليما ﴾ فينبغى للمؤمن أن يكتفى بعلم الله فى اتصافه ولا يبالى بعلم الناس فهو الذى لا ينسى عمل العالمين ولا يظلمهم من أجرهم شيئا .

وفى هذه الآيات الكريمة الهداية الكافية فى معاملة الناس لربهم ، ولبعضهم بعضا ، ولكن المسلمين قصروا من اتباع هذه الأوامر وأعرضوا عن مساعدة ذوى القربى والجيران واليتامى والمساكين والشواهد على هذا كثيرة .

آية مبشـــــــرة

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۢ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

إلهنا ما أعدلك ، ما أكرمك ، ماأحلمك ، إن فضلك عظيم ، وجودك كريم ، حكمت فعدلت ، وقدرت فعفوت ، وعلمت فحلمت ، الظلم حرمته على نفسك ، وجعلته بين عبادك محرماً ، ونهيتهم عنه فقلت فى حديثك القدسى : (يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)[1] وهل تهلك الأمم إلا بالظلم ؟ وهل تقوض أركانها ويخر بنيانها إلا بالظلم ؟

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٦٠) .

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[١] . ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾[٢] . ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٣]. ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[٤] . ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ﴾[٥] . ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴾[٦] . ﴿ فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين ﴾[٧] . ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾[٨] . ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾[٩] . ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير ﴾[١٠] .

إن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، تفتح لها أبواب السماء ، ويستقبلها الرب تبارك وتعالى ، ويقول وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين .

يابن آدم :

لا تظلمن إذا كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

تنام عينك والمظلوم متنبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

ما أجل قوله تعالى : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[١١]. ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[١٢].

ابن آدم :

وإذا رُميت من الزمان بشدة ... وأصابك الأمر الأشق الأصعب

فاضرع لربك إنه أدنى لمن ... يدعوه من حبل الوريد وأقرب

لا تغرنك قوتك ، فإذا غرتك قوتك على ظلم الناس فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك .

واحذر من المظلوم سهماً صائباً ... واعلم بأن دعاءه لا يحجب

واحفظ لسانك واحترس من لفظه ... فالمرء يسلم باللسان ويعطب

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً ... إن الكذوب يشين حراً يصحب

يلقاك يقسم أنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب

يسقيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

---

(١) الآية ١١٧ من سورة هود .
(٢) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٣) الآية ٥٩ من سورة القصص
(٤) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٦) الآية ١٠ من سورة الشعراء .
(٧) الآية ٢١ من سورة القصص .
(٨) الآية ٢٥ من سورة القصص .
(٩) الآية ١١ من سورة التحريم .
(١٠) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(١١) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(١٢) الآية ٤٤ من سورة يونس .

إذا غرتك قوتك فلم استحكمت فيك شهوتك ؟ وإذا غرك غناك فارزق عباد الله يوماً .

يا نائم الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يأتين أسحاراً

وإذا غرك سلطانك فاعلم أنه لو دامت لغيرك ما وصلت إليك .

وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال

واعلم بأن الدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست . وإذا جلت أوجلت ، وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى فتفنى جميعاً والمهيمن باق

شيئان لا تقربوهما : الإشراك بالله ، والإضرار بالناس .

جل جلال الله ، فقد اقتضى منطق العدالة الإلهية ألا يظلم مثقال ذرة ، وهى الهباءة التى نراها تتأرجح فى شعاع الشمس المتسلسل من ثنايا النافذة ، وجل جلالك إذ تضاعف الحسنات ، وتقول للملائكة الكاتبين : (إذا هم عبدى بفعل سيئة فلا تكتبوها حتى يفعلها ، فإن فعلها فاكتبوها له سيئة مثلها .وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا هم بفعل حسنة ولم يفعلها فاكتبوها له حسنة ، فإن فعلها فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف)(١) . أنت الذى تهب كثيراً ، وتجبر قلباً كسيراً ، وتغفر الزلات . وتقول هل من تائب فاغفر له ؟ أو سائل أقضى له الحاجات ؟

يقول الشيخ (محمد المدنى رحمه الله تعالى) فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ يقول ما نصه : « هذه مرتبة أخرى من مراتب الفضل الإلهى غير السابقة وفيها تبشير بأمرين عظيمين : أحدهما : ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾

والذرة واحدة الذر وهو صغار النمل أو الهباء المنتشر فى الهواء ، والمراد أصغر ما يتصور من الأشياء ، فالله تعالى لا يظلم الناس شيئا ولو كان قليلاً فى وزنه كالذرة ، وذلك العدل الإلهى واقع فى الدنيا وفى الآخرة .

لكل درجات مما عملوا :

أما فى الدنيا فإن لكل عامل جزاء ما عمل ، وقد وضع الله تعالى من السنن الكونية ما يجعل النجاح والصلاح والفوز وأضدادها مرتبطة بعمل العامل وجودا وعدما ، وإتقاناً وإهمالا ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراًيره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾(٢) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان (٣١) وفى الرقاق (٣١) . ومسلم فى الإيمان (٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦) وفى الصيام (١٦٤) . والترمذى فى فضائل الجهاد (٤) . وابن ماجه فى الصيام (١) . والنسائى فى الصيام (٤٢) . والدارمى فى الصوم (٥٠) . والإمام مالك فى الصيام (٥٨) . والإمام أحمد فى (١ : ٤٤٦) .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

فلا يمكن أبداً فى سنة الله وعدله الكونى أن يعمل إنسان عملاً صالحاً إلا كان لهذا العمل الصالح نتائجه وثمراته الموازنة له بالقسطاس المستقيم ، فمن زرع أرضاً فبمقدار ما يعطيها من العناية ، وما يوفر لها من أسباب الصلاحية تعطيه من ثمراتها كثرة وجودة ، ومن أهملها فلم يعطيها قسطها من العناية أو من البذر أو من العمل أو أهمل أسباب الصلاحية التى يجب أن توفر لمثلها تجاوبه على ذلك بالنسبة نفسها قلة فى الثمرات وضعفاً .

وقل مثل ذلك فى الذى يخلص فى نواياه ، وفى الذى يسلك الطريق المستقيم فى الحياة ، وفى الذى يحفظ أماناته التى ائتمنه الله أو الناس عليها ، وفى الذى يأخذ ويؤدى ما أسند إليه من عمل أخذاً قويا وأداء قوياً ، يأخذ الأعمال بقوة ويؤديها بقوة - والقوة فى ذلك هى الصدق والثبات والعناية الواجبة التى هى حق كل عمل ، وسنادكل عمل ، وما به قوام كل عمل - إن لذلك العدل الإلهى الكونى نتائجه بالضرورة لا يمكن أن تنفك عنه أو يختل ميزان تقديرها .

وإذا كنا نرى صوراً غير ذلك فى الحياة بين الحين والحين فننسب بعضها إلى الحظ الحسن ، وبعضها إلى الحظ السيىء ، فإن علمنا هو القاصر ، ولو علمنا كل الظروف وتتبعناها فى حيدة ونصفة لآمنا بأن سنة الحكيم العليم وطرده لا تتخلف ولا تظلم ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

والخلاصة أن الله تعالى لا يمكن أن ينقص العاملين أو يبخسهم أعمالهم وأن الأعمال نفسها لها ثمراتها الطبيعية كالمقدمات والنتائج ، فكما أن الإنسان لا يمكن أن يزرع عنباً فيجنى رمانا كذلك لا يمكن أن يعمل ويسعى على أصول صحيحة سليمة ثم يضيع عمله سدى ويذهب سعيه هباء .

هذا فى الدنيا بحسب النواميس التى هيأ الله عليها الكون والناس والأعمال والثمرات .

أما فى الآخرة فقد ورد من الآثار والأخبار ما يدل على مثل ذلك ، فالله سبحانه وتعالى لا يمكن أن ينقص عبداً من عباده فى دار الجزاء خيرا فعله ، غير أنه قد يرد على الفاعل فعله ، فلا يقبله ، لأنه لم يفعله ابتغاء وجهه ، أو لم يأت به على الصورة التى رسمها له ، وحينئذ لا يكون هذا الرد نقصاً للعبد ، وظلماً لحقه ، فإن العبد فى الحقيقة لم يعمل الخير ، ولكن عمل ما صورته صورة الخير ، أو ما اعتبره هو خيراً وإن لم يكن خيراً .

ومما ورد فى السنة من التبشير بإيفاء العاملين أجر أعمالهم يوم القيامة ما روى فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ الذى جاء فيه : (فيقول الله عز وجل: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فاخرجوه من النار ، فيخرجون خلقاً كثيرا)[2] . ثم يقول أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : اقرءوا إن شئتم : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة . . . . ﴾ الآية .

(١) الآية ٤٤ من سورة يونس .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان (١٥) وفى الرقاق (٣٥ ، ٥١) وفى الفتن (١٣) وفى التوحيد (٢٤ ، ٣٦) . ومسلم فى الإيمان (١٤٧ - ١٤٩ ، ١٨٥ ، ٢٣٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦) وفى الفتن (٥٢ ، ١١٦) . وأبو داود فى اللباس (٢٦) والترمذى فى الفتن (١٧) وفى جهنم (١٠) . وابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الزهد (١٦ ، ٣٧) . والدارمى فى المقدمة (٨) . والإمام أحمد فى (١ : ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١) .

لا حظ للكافرين من ثواب الآخـــرة :

وهنا يرد سؤال كثيرا ما يراود القلوب : هل الحكم فى عدم الظلم والنقص من جزاء الأعمال فى الدنيا والآخرة عام يشمل المؤمنين والكافرين جميعاً ، فالكافر أيضاً لا يظلم مثقال ذرة ؟ أو هذا شىء خاص بالمؤمنين ؟

والجواب : أن الآية تقول : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ فقد حذف المفعول الأول للفعل فأفاد العموم ، ودل على ذلك تصريح الآية الأخرى التى تقول : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ فقد ذكرت المفعولين وكان المفعول الأول هو الناس والناس لفظ يعم المؤمن والكافر .

وهذه الدلالة بالنسبة للجزاء الدنيوى - لا معارض لها نقلاً ولا عقلاً ، فقوانين الحياة وسننها الطبيعية لا تفريق فيها بين مؤمن وكافر ، فمن استقام لشىء وأعطاه حقه استقام ذلك الشىء وتجاوب معه على قدر استقامته له ، وما وفّى إليه من حقه ، لا فرق فى تلك السنة الكونية بين مؤمن وكافر .

أما فى الآخرة فالقرآن الكريم صريح فى أن أعمال الكافرين هباء ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ﴾[1] ، ﴿ أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾[2] .

وقد اختلف المروى من السنة فى هذا الشأن ، فجاء فى بعض الأحاديث أن المشرك الذى فعل الخير يخفف عنه العذاب يوم القيامة ، ولكن لا يخرج من النار ، فيكون التخفيف عنه هو جزاء حسناته ، وجاء فى حديث آخر : « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجازى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً »[3] .

وإذن فهناك قدر متفق عليه بين الحديثين ، وهو أن الكافر لا ينال فى الآخرة ثواباً على عمل عمله فى الدنيا ، وإن جاز أنه سيخفف عنه من العذاب .

ســـر التفرقة بين المؤمن والكافـــــر :

والتفرقة بين المؤمن والكافر على هذا النحو أو ذاك قد تثير سؤالاً آخر : هل الله تعالى يحابى المؤمنين على الكافرين ؟

والجواب عن هذا السؤال : أن الأمر فى ذلك جاء على تمام العدل نفسه ، وأن التفرقة بينهما مما يقتضيه العدل ، وذلك أن المؤمن يعمل الخير والصلاح مبتغيا جزاءين : جزاء الدنيا الذى هو نتيجة إحسان الأعمال وإقامتها على سنن الصلاح ، وجزاء الآخرة الذى هو الثواب فى الجنة ، فهو مؤمن بأن هناك إلها يجازى ، وأن

---

(١) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ٣٩ من سورة النور .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى (٣ : ١٢٥ ، ١٢٣ ، ٢٨٣) .

هناك داراً أخرى ، وأن بها جنة وناراً الجنة للمتقين ، والنار للعاصين ، أما الكافر فإنما يعمل ما يعمل ابتغاء الدنيا فقط وليس مؤمنا بالله رباً ، ولا بالآخرة داراً للجزاء ، حتى يتوجه فى عمله إلى قصد ذلك .

فالله يعطى كل إنسان الجزاء الذى تطلبه وابتغاه دون أن ينقصه منه شيئاً ، ومثل ذلك كمثل رجلين : أحدهما باع سلعة بثمن بعضه معجل وبعضه مؤجل ، فإذا لم يعط المؤجل كالمعجل كان قد بخس حقه ، والثانى باع سلعته بثمن معجل فقط فليس له حق فى أن يأخذ شيئاً بعد هذا المعجل ، ولا يقال أنه بخس ، ولا أن صاحبه حوبى ، فكل منهما نال حقه وحصل على ثمن سلعته كاملا . هذا تقريب للأمر وبيان للسر يتضح منه أنه لا محاباة لمؤمن ولا ظلم لكافر .

ثم إن الكافر الجاحد بربه وبدار الجزاء قد ارتكب بهذا الكفر أشنع الجرائم التى تنافى العقول ، وتكابر الدلائل الواضحة فى الكون ، ومثل هذا فى الواقع لا يُرجى منه خير ولا نفع ، ولا عمل صالح فى شئون الحياة ، ولو أنا أحصينا عدد الذين ينكرون الله ولا يؤمنون برسله ولا بالدار الآخرة لوجدناهم على حالة من الاضطراب فى حياتهم العملية وعلى نحو من الفساد النفسى الذى لا يكاد يصلح معه عمل .

فافتراض نجاح الملحد فى الحياة افتراض لصور قليلة ، ومع ذلك فإن للحياة قوانينها وقد طبقت عليه ، أما افتراض أن يعمل الملحد الجاحد بربه عملاً من أعمال الخير والبر والصلاح يستحق به ثواب الآخرة فهو افتراض لما لا يكاد يكون ، ولو أنه حدث لكان دليلاً على اتجاه إلى الإيمان بدأ يراود نفس صاحبه وحينئذ يكون من عدل الله معه أن يجيبه فيما اتجه إليه ، ولذلك ورد أن أعمال الخير تختم لصاحبها بخاتمة الخير فلو علم الله من إنسان صدقاً وبراً واتجاهاً إلى فعل الخير ، وكان كافراً فإنه كثيراً ما يوفقه إلى الإيمان ، وهذا على السنة المستفادة من قوله تعالى : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾[1] ، ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾[2] .

الإحسان فوق العدل :

الأمر الثانى من الأمرين المبشر بهما فى هذه الآية ، هو ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنّه أجراً عظيماً** ﴾ .

وهذا إحسان فوق العدل ، ولا تنافى بينه وبين العدل ، فالعدل يقتضى ألا يظلم العامل مثقال ذرة من جزاء عمله ، وهذا ما قرره الجزء الأول من الآية ، وسبق بيانه ، ولكن العدل لا يقتضى منع الزيادة فى جزاء الخير على سبيل الإحسان ، كما لا يقتضى منع العفو عن السيئة على سبيل الغفران ، وإذن فمقتضى ﴿ **لا يظلم** ﴾ غير مناف لمقتضى ﴿ **يضاعف** ﴾ .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن الله تعالى يعامل عباده بمقتضى الإحسان حين يجزى

---

(١) الآية ٧٥ من سورة مريم .
(٢) الآية ١٧ من سورة محمد .

بالحسنة ، ولا يزيدهم عما يستحقون حين يجزى بالسيئة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾[١] ، ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾[٢] .

وقوله تعالى فى هذه الآية الأخيرة ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ مثل قوله فى آية النساء ﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وذلك أن عطاءه تعالى واسع غامر من جهتين ، فهو أولا يضاعف الحسنة فيجعلها حسنات عشراً ليعط الجزاء على عشر ، ثم يمنح بعد ذلك أضعافاً كثيرة من لدنه لمن يشاء ، فآية البقرة تقرر ذلك حيث تقول : ﴿ يضاعف لمن يشاء ﴾ فلا تذكر مفعول ﴿ يضاعف ﴾ كما قالت سورة النساء ﴿ يضاعفها ﴾ ولكن سورة النساء تكمل هذا المعنى فيقول : ﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ فيدل قوله تعالى : ﴿ من لدنه ﴾ على أنه يضاعف غير مضاعفة الحسنة ، وأما تسمية ذلك أجراً فلأنه ملحق بأجر الحسنة تابع لها ، وإن كان ﴿ من لدنه ﴾ أى زيادة بدون مقابل .

معنى مضاعفة العذاب للمجرمين وتبديل السيئات حسنات للمؤمنين :

ويرد هنا سؤال : إذا كان الله يضاعف السيئات ويضاعف الحسنات فما معنى قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق آثاماً ۞ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ۞ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[٣] .

فإن فى هذه الآيات ﴿ يضاعف له العذاب ﴾ ومضاعفة العذاب تتنافى مع قاعدة : ﴿ من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ وفى هذه الآيات أيضاً : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ وتبديل السيئات حسنات شىء غير مضاعفة الحسنات المفهوم من قاعدة ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ ، ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ ؟

والجواب - كالسؤال - يتألف من نقطتين :

الأولى : أن « مضاعفة العذاب » لم ترد فقط فى هذه الآيات من سورة الفرقان وإنما وردت فى عدة مواضع من القرآن الكريم ، ونحن جميعاً هنا لنعرف مواقعها المعنوية فيساعدنا ذلك على إدراك مراميها ، وتبين السر فى تلك المضاعفة على الذنوب فيها .

ففى سورة هود : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ۞ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾[٤] .

---

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٦١ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان ٦٨ ، ٦٩ من سورة الفرقان .
(٤) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة هود .

وفى سورة الأحزاب : ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[١] .

وفيها أيضاً : ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾[٢] .

وفى سورة الأعراف : ﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾[٣] .

وفى سورة الإسراء خطاباً للرسول ﷺ : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾[٤] .

وفى سورة (ص) : ﴿ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفا فى النار ﴾[٥] .

وهذه المواضع كلها تتحدث عن نوع خاص من الذنوب ، هو الذنوب التى ليس حذرها قاصراً على المذنب فى نفسه ، ولكنه يتعداه إلى غيره ، لأنه قدوة أو متبوع أو متصد لإضلال غيره ، فعليه إثمان : إثم كسبه لنفسه ، وإثم احتمله بإفساد غيره .

وهذا هو شأن الصادّين عن سبيل الله ، الذين تذكرهم سورة هود ، وشأن نساء النبى اللواتى هن فى مركز القدوة ، وشأن السادة والكبراء الذين ضلوا وأضلوا كما حدثتنا عن هؤلاء وأولئك سورة الأحزاب ، وسورة الأعراف وسورة (ص) .

أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله فهو القدوة العظمى ، وركونه إلى المشركين لو وقع فعلا - حاشاه - فقد صانه الله وعصمه - لكان أكبر كارثة تحق على الدعوة وتصيب صميم الإسلام ، فماذا يحدث لو ضعف حامل لواء الدعوة وسقط صريعاً أمام الشرك ؟ .

وإذن فالمضاعفة فى هذا كله إنما هى جزاء وفاق لذنب له صفة التكرر والتعدد وتجاوز النفس إلى الغير ، وهذا على ما جاء فى قوله ﷺ : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[٦] ، وما من جريمة قتل نفس بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول وزر منها - يريد ابن آدم الذى قتل أخاه بغير الحق ، فكان أول من سن هذه السنة السيئة .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأحزاب .
(٢) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة الأحزاب .
(٣) الآيتان ٣٨ و ٣٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ من سورة الإسراء .
(٥) الآية ٦١ من سورة ص .
(٦) أخرجه مسلم فى العلم (١٥) وفى الزكاة (٦٩) . والنسائى فى الزكاة (٦٤) . والإمام أحمد فى (٤ : ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١) .

وآية الفرقان تتحدث عن ذوى جرائم مزدوجة فتقول : ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ والإشارة إلى ما تقدم من دعوة إله آخر مع الله ، وقتل النفس بغير الحق ، والزنا ، وذلك أن الشرك ظلم للنفس بما فيه من إضلالها ، وسوء أدب فى حق الألوهية ، وقتل النفس فيه هدم لبناء أقامه الله ، وفيه اعتداء على حق المقتول فى الحياة ، والزنا فيه تلويث لشرف الزانى ، وتلويث لشرف من زنى بها ، فالمضاعفة جزاء وفاق فى هذا كله ، وليس فيها ظلم ولا تجاوز عن سنة المجازاة بالمثل .

النقطة الثانية من نقطتى الجواب عن السؤال الأول : أن تبديل السيئات حسنات جاء فى آية الفرقان جزاء على ثلاثة أشياء : التوبة والإيمان وعمل الصالحات ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ .

فالتوبة تمحو الذنب ، والإيمان يمحو الشرك ويحجبه ، وعمل الصالحات حسنات منشأة تحل مكان السيئات الممحوة ، فبعد أن كان الشخص مشركا داعياً مع الله إلٰهاً آخر ، مرتكباً للفواحش ، تاب من شركه ، فآمن وتاب من عمله واستأنف أعمالاً صالحة جديدة ، فحلت هذه مكان السابقة ، فهذا هو تبديل سيئاتهم حسنات ، وليس معناه أن الله يقلب السيئة نفسها ويغير حقيقتها إلى العكس ، فان الحقائق لا تغير ، وليس معناه كذلك أن الله يجزيهم عن السيئة جزاء الحسنة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولكن المعنى كما أوضحنا أن التوبة تمحو السيئات والعمل الصالح الجديد يأتى مكان العمل السيىء السابق .

وقد جاء بعد آية الفرقان هذه ما يشبه أن يكون إشارة إلى هذا وذلك قوله تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾[(١)] ، فمعنى ﴿ فمن تاب ﴾ ومن رجع عن ذنبه واستبرأ منه وتطهر ، ومعنى ﴿ وعمل صالحاً ﴾ استأنف جديداً من الصالحات بعد توبته وتطهره ، ومعنى ﴿ فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ فإنه يرجع بهذا إلى ربه رجوعاً قوياً مخلصاً ، فيكون أهلاً لأن يقبل ويتحول بذلك من حال إلى حال .

وفى مواضع أخرى من القرآن الكريم ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾[(٢)] ، ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾[(٣)] ، ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[(٤)] ، وفى ذلك تصريح بمعنى التبديل الذى ذكرناه من أنه وضع شىء مكان شىء ، لا قلب الحقائق ، ولا قلب الجزاء على الأعمال .

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٩٥ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١٠١ من سورة النحل .
(٤) الآية ٥٥ من سورة النور .

مكـــانة الصـــادق المعصـــوم

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) ﴾

قال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (اقرأ على) ، فقلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : (نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى) ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾ فقال (حسبك الآن) ، فإذا عيناه تذرفان[١] .

أما الفاء فى قوله تعالى : ﴿ **فكيف** ﴾ فإنها فاء الفصيحة التى أعربت عن شرط مقدر ، فيصير المعنى : إذا كنا لا نظلم مثقال ذرة فكيف الحال إذا جئنا من كل أمة بشهيد يشهد على أعمال أمته ، وجئنا بك يا محمد شهيداً على هؤلاء كما فى قوله جل شأنه : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾[٢] .

إن منطق العدالة الإلهية قد بلغ مداه ، إذ لا ظلم اليوم مع إقامة الشهادة على أعمال الأمم : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٣] .

﴿ **يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض** ﴾ و﴿ **لو** ﴾ هنا تفيد التمنى ، كما أنها تؤول ما بعدها بمصدر ، فكأنهم ودوا وتمنوا تسوية الأرض بهم كما فى قوله جل شأنه : ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا ﴾[٤] .

إن الله جل شأنه وصف المؤمنين بقوله : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾[٥] . وبقوله : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾[٦] .

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤ : ٩) وفى فضائل القرآن (٣٢ ، ٣٥) . ومسلم فى المسافرين (٢٤٧ ، ٢٤٨) . وأبو داود فى العلم (١٣) . والترمذى فى تفسير (سورة ٤ : ١١) .
(٢) الآية ٨٩ من سورة النحل .
(٣) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٤٠ سورة النبأ .
(٥) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة المعارج .
(٦) الآيات ٥٧ - ٦١ من سورة المؤمنون .

تلك حال المؤمنين خوف وإشفاق ووجل ، حتى كان أبو بكر رضى الله عنه يقول : يا ليتنى شعرة فى صدر رجل مؤمن . وكان عمر يقول : ليت أمى لم تلدنى ليتها كانت عقيماً . فماذا نقول نحن ؟ لا يسعنا إلا أن نقول : اللهم عاملنا بفضلك ، وعاملنا بما أنت أهله ، ولا تعاملنا بما نحن أهله ، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ، ولا ينفع التمنى من هؤلاء الذين تمنوا أن تسوى بهم الأرض ، لأن اليوم لا تقبل فيه معذرة ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ فإنه تعالى عليم بذات الصدور : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٢] ، سبحانه علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

جاء رجل إلى ابن عباس فقال له : سمعت الله عز وجل يقول - يعنى إخباراً عن المشركين يوم القيامة - أنهم قالوا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا : تعالوا فلنجحد ، فقالوا : والله ربنا ما كنا مشركين ، فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ، ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ .

أحكام تتعلق بالصلاة والطهارة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

المفردات : **الغائط** : المنخفض من الأرض كالوادى ، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة للستر والاستخفاء عن الناس . **ملامسة النساء** : الإفضاء إليهن . **تيمموا** : اقصدوا . **الصعيد** : وجه الأرض . **الطيب** : الطاهر . **العفو** : ذو العفو . **العفو عن الذنب** : محوه وجعله كأن لم يكن . **الغفور** : ذو المغفرة . **المغفرة** : ستر الذنوب بعدم الحساب عليها .

ذكر الله تعالى مشهدا من مشاهد القيامة فى قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴾ فهذا مقام يقوم العبد فيه

---

(١) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .
(٢) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

لله رب العالمين ، وفى هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ مقام آخر يقوم العبد فيه لله رب العالمين ، فلا بد أن يكون حاضر القلب والعقل ، فقد مدح الله المؤمنين بقوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾(١) .

وهل الخشوع إلا حضور القلب وسكون الجوارح ؟ فلو حضر قلبك لسكنت جوارحك .

قال الحسن رضى الله عنه : من أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن ، ومن أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يكلمنا ونكلمه ويحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه » .

وكان رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال »(٢) .

إذ الصلاة كهف المؤمن ، ومفتاح الجنة ، وأول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله .

وقد قيل لحاتم الأصم : كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ فقال رضى الله عنه : إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى ، والموت ورائى ، والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، والصراط تحت قدمى ، وأن الله مطلع على ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا صليت لا أدرى أقبلها الله أم ردها على .

وقد نزلت هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ قبل أن ينزل تحريم الخمر قاطعا فى قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾(١) .

ولما كانت هذه الآية التى نهى الله فيه المؤمنين أن يقربوا الصلاة حالة السكر ، لما كانت تتعلق بأحكام شرعية ، فإننا نذكر هنا ما ذكره الفقهاء من أحكام عملية .

قال الفقهاء : لا تصلوا حال السكر حتى تعلموا قبل الشروع فيها ما تقرأونه وماستعملونه ، ذاك أن حال السكر لا يتأتى معها الخشوع والخضوع والحضور مع الله بمناجاته بكتابه ، وذكره ودعائه ، وهذا الخطاب موجه إلى المسلمين قبل السكر بأن يجتنبوه إذا ظنوا أنهم سيصلون ، ليحتاطوا ، فيجتنبوه فى أكثر الأوقات ، وقد كان هذا تمهيدا لتحريم السكر تحريماً باتاً لا هوادة فيه ، إذ من ينبغى أن يجىء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لتفرق الصلوات الخمس فى هذه المدة ، فلم يبق للسكر إلا وقت النوم من بعد العشاء إلى السحر ، فيقل الشراب لمزاحمة النوم له ، وأول النهار من صلاة الفجر إلى وقت

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة المؤمنون .
(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب (٧٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٣٦٤ ، ٣٧١) .
(٣) الآية ٩٠ من سورة المائدة .

الظهيرة وقت الكسب والعمل لأكثر الناس ، ويقل أن يسكر فيه إلا أصحاب البطالة والكسل . وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء فلا يصبحون إلا وقد زال السكر . وصاروا يعلمون ما يقولون .

روى أبو داود والترمذى عن على كرم الله وجهه قال : « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً ، فدعانا وشهانا من الخمر ، فأخذت منا وحضرت الصلاة فقدمونى ، فقرأت (قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون)[١] فنزلت الآية . وروى ابن جرير عن على كرم الله وجهه أن الإمام كان يومئذ عبد الرحمن ، وأن الصلاة صلاة المغرب - وكان ذلك قبل أن تحرم الخمر .

ويفترق المعنى بين الأسلوبين ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ ولا تقربوا الصلاة سكارى إذ الأول يتضمن النهى عن السكر الذى يخشى أن يمتد إلى وقت الصلاة ، فيفضى إلى أدائها فى أثنائه .

وخلاصة المعنى عليه أحذروا أن يكون السكر وصفا لكم عند حضور الصلاة ، فتصلوا وأنتم سكارى ، فامتثال هذا النهى إنما يكون بنهى السكر فى وقت الصلاة وفيما يقرب منها ، والثانى يتضمن النهى عن الصلاة حال السكر فحسب ، وأما نهيهم عن الصلاة جنبا فلا يتضمن نهيهم عن الجنابة قبل الصلاة لأنها من سنن الفطرة وإنما ينهاهم عن الصلاة فى أثنائها ، حتى يغتسلوا ، ولهذا قال : ﴿ **جنبا** ﴾ فى أى حال إلا حال كونكم ﴿ **عابرى سبيل** ﴾ أى مجتازين الطريق .

وقد ورى أن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد ، وكان يصيبهم الجنابة ، ولا يجدون ممراً إلا فيه ، فرخص لهم فى ذلك ، ولم يأمر النبى ﷺ بسد تلك الأبواب والكوى إلا فى آخر عمره الشريف ، ولم يستثن إلا خوخة أبى بكر رضى الله عنه . والخوخة الكوة والباب الصغير ﴿ **حتى تغتسلوا** ﴾ أى لا تقربوا الصلاة جنبا إلى أن تغتسلوا ، إلا ما رخص لكم فيه من عبور السبيل إلى المسجد .

وحكمة الاغتسال من الجنابة : أن الجنابة تحدث تهيجا فى الأعصاب فيتأثر البدن كله ، ويحدث فتور وضعف فيه ، يزيله الاغتسال بالماء ، ومن ثم ورد فى الحديث : « إنما الماء ند الماء »[٢]. رواه مسلم .

والخلاصة : أن الدين طلب الصلاة حال العلم والفهم وتدبر القرآن والذكر ، وذلك يتوقف على الصحو وترك السكر ، كما طلب أن يكون الجسم نظيفاً نشيطاً وذلك لا يكون إلا بإزالة الجنابة . ولما كانت الصلاة فريضة موقوته لا هوادة فيها لأنها تذكر المرء ربه وتعده للتقوى ، وكان الاغتسال من الجنابة يتعسر فى بعض الحالات ويتعذر فى بعضها الآخر رخص سبحانه لنا فى ترك الماء والاستعاضة عنه بالتيمم ، فقال : ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم** ﴾ المراد بالمرض المرض الذى يخاف زيادته باستعمال الماء كبعض الأمراض الجلدية والقروح كالحصبة والجدرى أو نحو ذلك ، والسفر يشمل الطويل والقصير ، والمراد

---

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٤ : ١٢) .
(٢) أخرجه مسلم فى الحيض (٨١) . وأبو داود فى الطهارة (٨١) . والنسائى فى الطهارة (١١٣) . وابن ماجه فى الطهارة (١١٠) . والدارمى فى الوضوء (٧٤) . والإمام أحمد فى (٣ : ٢٩ ، ٣٦) وفى (٥ : ١١٥ ، ١١٦ ، ٤١٦ ، ٤٢١) .

بالمجىء من الغائط الحدث الأصغر بخروج شىء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وملامسة النساء : غشيانهن .

ففى هذه الحالات (المرض - السفر - فقد الماء عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء والحدث الأكبر الموجب للغسل) اقصدوا وتحروا صعيدا طيبا : أى وجها طاهرا من الأرض لا قذارة فيه ولا أوساخ ، فامسحوا بوجهكم وأيديكم منه ثم صلوا .

والخلاصة : أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة كحكم المحدث حدثا أصغر أو ملامسة النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط ، قاله الأستاذ الإمام .

لكن المعروف فى المذاهب الأربعة أن شرط التيمم فى السفر فقد الماء ، فلا يجوز مع وجودة ، وهنا بخلاف ظاهر الآية . ومن تأمل فى رخص السفر التى منها قصر الصلاة ، وإباحة الفطر فى رمضان ، لا يستنكر أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء مع وجود الماء ، وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين ، فالمشاهد أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواجد للماء فى هذا الزمان الذى سهلت فيه وسائل السفر فى السكك الحديدية والبواخر ، فكيف تكون المشقة للمسافرين على ظهور الإبل فى مغاور الحجاز وجبالها ؟ فأشق ما يشق فى السفر الغسل والوضوء ، وإن كان الماء حاضراً مستغنى عنه ، ففى البواخر يوجد الماء وتوجد الحمامات للاغتسال بالماء الساخن والماء البارد ، ولكنها خاصة بالأغنياء الذين يركبون فى الدرجة الأولى والثانية ، وهؤلاء الأغنياء منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر منه الاغتسال ، أو خفيف يشق معه الاغتسال ولا يتعذر ، فإذا كانت هذه السفن التى يوجد فيها الماء على هذه الحال يتعسر فيها الاغتسال أو يتعذر فكيف يكون الاغتسال فى قطر السكك الحديدية ، أو فى قوافل الجمال والبغال ؟ .

روى أن هذه الآية نزلت فى بعض أسفار النبى ﷺ ، وقد انقطع عقد لعائشة ، فأقام النبى ﷺ يلتمسه والناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فلما نزلت وصلوا بالتيمم جاء أسير بن الحضير إلى مضرب عائشة فجعل يقول ما أكثر بركتكم يا آل أبى بكر . وفى رواية يرحمك الله يا عائشة ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله تعالى فيه للمسلمين فرجا .

ثم ذكر منشأ السهولة واليسر فقال : ﴿ **إن الله كان عفوا غفورا** ﴾ العفو هنا التيسير والسهولة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو** ﴾[1] وقوله ﷺ : « **قد عفوت عن صدقة الخيل والرقيق** »[2] ، أى اسقطتها تيسيرا عليكم ، ومن عفوه وتسهيله أن أسقط فى حال المرض والفر وجوب الوضوء والغسل .

وفى ذلك إيماء إلى أن ما كان من الخطأ فى صلاة السكارى كقولهم : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون - مغفوراً لهم لا يؤاخذون عليه .

---

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الزكاة (٤ ، ١٥) . وأبو داود فى الزكاة (٥ ، ١١) . والإمام مالك فى الزكاة (٣٩ ، ٤٠) وفى الجهاد (٢١) . والإمام أحمد فى (١ : ١٨ ، ٩٢ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨) .

قال السيد حسن صديق خان فى شرحه « الروضة الندية » : قد كثر الاختباط فى تفسير هذه الآية : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴾ الخ ، والحق أن قيد عدم وجود الماء راجع إلى قوله : ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء ﴾ فتكون الأعذار ثلاثة : السفر والمرض وعدم وجود الماء فى الحضر ، وهذا ظاهر على قول من يقول : إن القيد إذا وقع بعد جمل متصلة كان قيداً لآخرها ، وأما على قول من يقول إنه يكون قيداً للجميع إلا أن يمنع مانع فكذلك أيضا لأنه قد وجد المانع هنا من تقييد السفر والمرض بعدم وجود الماء ، وهو أن كل واحد منها عذر مستقل غير هذا الباب كالصوم ، ويؤيد هذا التيمم التى وردت مطلقة وغير مقيدة بالحضر . أهـ .

ومنه تعلم أن رأيه كرأى الأستاذ الإمام من أن السفر وحده عذر كاف فى التيمم وجد الماء أو لم يوجد .

حديث عن أهل الكتاب

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ **ألم تر** ﴾ أى ألم تنظر ، ﴿ **نصيبا** ﴾ حظا ، ﴿ **السبيل** ﴾ الطريق القويم ، ﴿ **وليا** ﴾ أى يتولى شئونكم ، ﴿ **نصيرا** ﴾ معينا يدفع شرهم عنكم . ﴿ **من الذين هادوا** ﴾ هم اليهود ، ﴿ **غير مسمع** ﴾ يحتمل أن يكون المعنى غير مسمع مكروها ، أن يكون غير مقبول منك ولا مجاب إلى ما تدعو إليه ، ﴿ **وراعنا** ﴾ إما بمعنى ارقبنا وانظرنا نكلمك ، وإما بمعنى كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها ، وهى (راعينا) ، ﴿ **ليا بألسنتهم** ﴾ أى فقال بها وتحريفا . طعنا فى الدين : قدحاً فيه ، ﴿ **أقوم** ﴾ أعدل وأسد ، ﴿ **إلا قليلا** ﴾ أى إلا قليلا من الايمان لا يعبأ به .

بعد أن ذكر الله سبحانه فى سابق الآيات كثيرا من الأحكام الشرعية ، ووعد فاعلها بجزيل الثواب ، وأوعد تاركها بشديد العقاب ، انتقل هنا إلى ذكر حال بعض الأمم الذين تركوا أحكام دينهم وحرفوا كتابهم ، واشتروا الضلالة بالهدى ، لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن عليهم كما هيمن على من قبلهم ، فإذا هم قصروا أخذهم بالعقاب الذى رتبه على ترك أحكام دينه فى الدنيا والآخرة .

والمؤمنون بالله حقا بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لا بد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصل إلى إصلاح الأنفس ، وذلك هو الأثر المطلوب منها ، ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها ، لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب .

وقد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط ، كبعض اليهود الذين كانوا يكتفون ببعض القرابين وأحكام الدين الظاهرة ، وهذا لا يكفى فى اتباع الدين والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أراده الله ، فأرشدنا سبحانه وتعالى إلى أن عمل الرسوم الظاهرة فى الدين كالغسل والتيمم لا يغنى عنهم شيئا إذا لم يطهروا القلوب حتى ينالوا مرضاته ، ويكونوا أهلا لكرامته ، ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم .

﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل** ﴾ أى ألم تنظر إلى هؤلاء الذين أعطوا طائفة من الكتاب الإلهى ، كيف حرموا هدايته واستبدلوا بها ضدها ، فهم يختارون الضلالة لأنفسهم ، ويريدون أن تضلوا أيها المؤمنون طريق الحق القويم كما ضلوا هم ، فهم دائبون على الكيد لكم ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، والتعبير بالشراء دون الاختيار للإيماء إلى أنهم كانوا فرحين بما عملوا ظانين أن الخير كل الخير فيما صنعوا ، والتعبير بالنصيب يدل على أنهم لم يحفظوا كتابهم كله إذ هم لم يستظهروه زمن التنزيل كما حفظ القرآن ، ولم يكتبوا منه نسخا متعددة فى العصر الأول كما فعلنا ، حتى إذا ما فقد بعضها قام مقامه بعض آخر ، بل كان عند اليهود نسخة من التوراة هى التى كتبها موسى عليه السلام فقدت . ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ **فنسوا حظا مما ذكروا به** ﴾ .

والخلاصة : أنهم لم يأخذوا الكتاب كله ، بل تركوا كثيرا من أحكامه لم يعملوا بها ، وزادوا عليها ، والزيادة فيه كالنقص منه ، فالتوراة تنهاهم عن الكذب وإيذاء الناس وأكل الربا ، وكانوا يفعلون ذلك ، وزاد لهم علماؤهم ورؤساؤهم كثيرا من الأحكام والرسوم الدينية فتمسكوا بها ، وهى ليست من التوراة ، ولا مما يعرفونه عن موسى عليه السلام .

فالذى لم يعمل به التوراة قسمان : أحدهما ما أضاعوه ونسوه ، وثانيهما ما حفظوا حكمه وتركوا العمل به ، وهو كثير أيضا ﴿ **والله أعلم بأعدائكم** ﴾ أى والله أعلم منكم بمن هو عدوكم ، فأنتم تظنون فى المنافقين أنهم منكم وماهم منكم ، فهم يكيدون لكم فى الخفاء ، ويغشونكم فى الجهر ، فيبرزون الخديعة فى معرض النصيحة ، ويظهرون لكم الولاء والرغبة والنصرة ، والله أعلم بما فى قلوبهم من العداوة والبغضاء .

﴿ **وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً** ﴾ فهو الذى يرشدكم إلى ما فيه خيركم وفلاحكم ، وهو الذى ينصركم على أعدائكم بتوفيقكم لصالح العمل والهداية لأسباب النصر من الاجتماع والتعاون ، وسائر الوسائل التى تؤدى إلى القوة ، فلا تطلبوا الولاية من غيره ولا النصرة من سواه ، وعليكم باتباع السنن التى وصفها فى هذه الحياة ، ومنها عدم الاستعانة بالأعداء الذين لا يعملون إلا لمصالحهم الخاصة كاليهود وغيرهم .

﴿ من الذين هادوا ﴾ هذا بيان للمراد من الذين أوتوا الكتاب بأنهم يهود ونصارى ، ثم بين المراد من اشترائهم الضلالة بالهدى فقال: ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ التحريف يطلق على معنيين : أحدهما تأويل القول بحمله على غير معناه الذى وضع له كما يؤولون البشارات التى وردت فى النبى ﷺ ، ويؤولون ما ورد فى المسيح ويحملونه على شخص آخر ، ولا يزالون ينتظرونه إلى اليوم ، وثانيهما أخذ كلمة أو طائفة من الكلم من وضع من الكتاب ووضعها فى موضع آخر ، وقد حصل هذا فى كتب اليهود ، خلطوا ما يؤثر عن موسى بما كتب بعده بزمن طويل ، وكذلك ما وقع فى كلام غيره من أنبيائهم .

واعترف بهذا بعض العلماء من أهل الكتاب ، وقد كانوا يقصدون بهذا التحريف الإصلاح فى زعمهم ، وسبب هذا النوع من التحريف أنه وجدت عندهم قراطيس متفرقة من التوراة ، بعد فقد النسخة التى كتبها موسى عليه السلام ، وأرادوا أن يؤلفوا بينها فجاء فيها ذلك الخلط بالزيادة والتكرار .

﴿ ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ﴾ أى يقول هؤلاء اليهود للنبى ﷺ : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ، وقد روى عن مجاهد أنهم قالوا للنبى ﷺ : سمعنا قولك ولكن لا نطيعك ، وكذلك كانوا يقولون له : ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ يدعون عليه ، على معنى لا أسمعك الله فى الموضع الذى يقول فيه المتأدبون للمخاطبين : لا سمعت أذى ، أولا سمعت مكروها .

وكذلك كانوا يقولون له : راعنا ، وقد روى أن اليهود كانوا يتسابّون بكلمة (راعينا) العبرانية ، فسمعوا بعض المؤمنين يقولون للنبى ﷺ : راعنا ، من المراعاة ، فافترضوها ، وصاروا يلوون ألسنتهم بالكلمة ويصرفونها إلى المعنى الآخر .

﴿ ليًا بألسنتهم وطعنا فى الدين ﴾ أى هم يلوون ألسنتهم فيجعلونها فى الظاهر راعنا ، وبليّ اللسان وإمالته (راعينا) قصدا منهم للسباب والشتم والسخرية ، أو جعله راعيا من رعاة الغنم ، أو من الرعونة ، ومن تحريف اللسان وليّه خطابهم للنبى ﷺ وتحيته بقولهم : (السام - الموت - عليكم) يوهمون بقتل اللسان وجمته أنهم يقولون له (السلام عليكم) وقد ثبت هذا فى صحيح الأحاديث كما ثبت أن النبى ﷺ بعد أن علم عنهم ذلك كان يجيبهم بقوله (وعليكم) أى كل أحد يموت .

﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ﴾ أى ولو أنهم قالوا سمعنا قولك ، وأطعنا أمرك ، لعلمهم بصدقك ، ولوجود الأدلة والبينات المتظاهرة على ذلك ، وكذلك لو قالوا : اسمع منا ما نقول وانظرنا : أى أمهلنا وانتظرنا ولا تعجل علينا حتى نتفهم عنك ما تقول ، لكان ذلك خيراً لهم وأصوب مما قالوه ، لما فيه من الأدب والفائدة وحسن العاقبة .

ثم بين عاقبة أمرهم فقال : ﴿ ولكن لعنهم الله بكفرهم ﴾ أى ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الطاعة بسبب كفرهم ، إذ قضت سنة الله فى البشر بأن الكفر يمنع صاحبه من التفكر والتروى والأدب فى الخطاب ، ويجعله بعيدا من الخير والرحمة ، فلا يمت إليهما بسبب ، ولا يصل إليهما برحم ولا نسب .

﴿ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ أى فهم لا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً لا يعتد به . فهو لا يصلح عملا ولا يطهر نفساً ، ولا يرقى عقلاً ، ولو كان إيمانهم بنبيهم وكتابهم إيماناً كاملاً لهداهم إلى التصديق بمن جاء مصدقاً لما معهم من الكتاب ، وبين لهم ما نسوا منه ، وما حرفوا فيه ، كما جاءهم بمكارم الأخلاق والنظم الكاملة فى الاجتماع والتشريع ، وبما إن اتبعوه كانوا على الهدى والرشاد وعلى الحق والسداد .

توجيه وتحذير

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

المفـــــردات : ﴿ الكتاب ﴾ التوراة ، ﴿ نطمس ﴾ الطمس : إزالة الأثر بمحوه أو إخفائه كما تطمس آثار الدار وأعلام الطرق إما بأن تنقل حجارتها وإما بأن تسفوها الرياح ، ومنه الطمس على الأموال فى قوله تعالى : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾[1] أى أزلها وأهلكها ، والطمس على الأعين فى قوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾[2] إما إزالة نورها وإما محو حدقتها ، والوجه تارة يراد به الوجه المعروف ، وتارة وجه النفس وهو ما تتوجه إليه من المقاصد ، كما قال تعالى : ﴿ أسلمت وجهى لله ﴾[3] وقال : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾[4] وقال : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ﴾[5] .

والأدبار واحدها دبر ، وهو الخلف والقفا ، والارتداد : هو الرجوع إلى الوراء ، إما فى الحسيات وإما فى المعانى ، ومن الأول الارتداد والفرار فى القتال ، ومن الثانى قوله : ﴿ إن الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ﴾[6] ، ﴿ نلعنهم ﴾ نهلكهم ، ﴿ كما لعنا أصحاب السبت ﴾ أى كما أهلكنا أصحاب السبت ، وقيل مسخهم الله وجعلهم قردة وخنازير كما أخرجه ابن جرير عن الحسن .

هذا خطاب من الله تبارك وتعالى إلى أهل الكتاب ، يأمرهم فيه سبحانه أن يؤمنوا بالكتاب الذى نزله على خاتم أنبيائه محمد ﷺ ، إذ هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وهو الصدق المطلق الذى لا تعتريه شبهة ، ولا تشوبه شكوك ، وهو مصدقا لما جاء فى الكتب السماوية تصديقا يدل على أنه من عند الله وحده ، فآمنوا يا أهل الكتاب بما فى هذا القرآن من عقائد وشرائع وشعائر .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة يونس .
(٢) الآية ٦٦ من سورة يس .
(٣) الآية ٢٠ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٢٢ من سورة لقمان .
(٥) الآية ٣٠ من سورة الروم .
(٦) الآية ٢٥ من سورة محمد .

قوله تعالى : ﴿ **من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها** ﴾ قال بعضهم : معناه من قبل أن نطمس وجوها ، فطمسها هو ردها إلى الأدبار ، وجعل أبصارهم من ورائهم ، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن نطمس وجوها فلا نبقى لها سمعا ولا بصرا ولا أنفا ، ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار .

وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية وهى ﴿ **من قبل أن نطمس وجوها** ﴾ وطمسها أن تعمى .

﴿ **فنردها على أدبارها** ﴾ يقول نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى ، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه .

قال مجاهد من قبل أن نطمس وجوها عن صراط الحق فنردها على أدبارها أى فى الضلال .

قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عباس والحسن نحو هذا .

وقوله تعالى : ﴿ **أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت** ﴾ يعنى الذين اعتدوا فى سبتهم بالحيلة على الاصطياد ، وقد مسخوا قردة وخنازير . قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضلُّ عن سواء السبيل ﴾[٢] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾[٣] ، وقال جل جلاله : ﴿ **فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾[٤] .

قوله جل شأنه : ﴿ **وكان أمر الله مفعولاً** ﴾ المراد بالأمر هنا الأمر التكوينى ، أى إذا أراد الله شيئا فهو بالغ أمره ﴿ إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[٥] ، ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾[٦] .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٦٠ من سورة المائدة .
(٣) الآية ١٦٣ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١٦٦ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٤٠ من سورة النحل .
(٦) الآية ١١ من سورة الرعد .

آية مبشـــــــرة

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

من الآيات المبشرات التى وردت فى سورة النساء ، وفيها يخبر العلى الكريم أنه لا يغفر لمن لقيه مشركاً ، وذلك لأن الشرك ذنب من الذنوب التى تحجب المغفرة عن العبد ، أما ما دون ذلك فإن الله يغفر لمن يشاء ، فالكل محكوم بمشيئة الله ، والذنب الوحيد الذى لا يغفر هو الشرك ، إذ أن من يشرك بالله فقد افترى واقترف إثما متناهيا فى الإجرام ، إذ أن التوحيد هو الفطرة الصافية ، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أويمجاسنه أو ينصرانه .

وأنت إذا سألت العالم كله من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك ؟ لأجابك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان . ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾[1] . جاء ت هذه الآية بعد قوله جل شأنه : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾[2] .

تأمل فى نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

وقد وردت فى معنى هذه الآية الكريمة أحاديث نورد بعضها فيما يلى :

الحديث الأول : روى الإمام أحمد بإسناده عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « الدواوين عند الله ثلاثة ، ديوان لا يعبأ الله به شيئا ، وديوان لا يترك الله منه شيئا ، وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان الذى لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ الآية . وقال : ﴿ أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ﴾ وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فظلم العبد لنفسه فيما بينه وبين الله من حرم يوم تركه أو صلاة فإن الله لا يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء ، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضاً ، القصاص لا محالة » .

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .
(٢) الآيتان ٤٢ ، ٤٣ من سورة الإسراء .

الحديث الثانى : روى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفره الله ، وظلم يغفره الله ، وظلم لا يترك الله منه شيئاً : فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشرك ، وقال : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ، وأما الظلم الذى يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم ، وأما الظلم الذى لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين لبعضهم من بعض » .

الحديث الثالث : روى الإمام أحمد بإسناده عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً »[١] .

الحديث الرابع : روى الإمام أحمد بإسناده عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله يقول : يا عبدى ما عبدتنى ورجوتنى فإنى غافر لك على ما كان منك ، يا عبدى إنك إن لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لقيتك بقرابها مغفرة)[٢] .

الحديث الخامس : روى الإمام أحمد بإسناده عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ثلاثاً ، ثم قال فى الرابعة على رغم أنف أبى ذر)[٣] .

من قبائح القوم

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

المفردات : **الفتيل** : ما يكون فى شق نواة التمر مثل الخيط ، وبه يضرب المثل فى الشىء الحقير كما يضرب بمثقال الذرة ، قال الراغب : الإثم والآثام اسم للأفعال المبطئة عن الثواب : أى عن الخيرات التى يثاب المرء عليها . وقد يطلق الإثم على ما كان ضارا .

من شر ما يبتلى به المرء أن يزكى نفسه ، إذ فى تزكيته نفسه ما يشعر بالأنانية والاعتداد بالذات ومركب النقص . قال جَلّ شأنه : ﴿ إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذا أنتم أجنة فى

---

(١) أخرجه أبو داود فى الفتن (٦) . والنسائى فى التحريم (١) . والإمام أحمد فى (٤ : ٩٩) .
(٢) أخرجه مسلم فى الذكر (٢٢) . والترمذى فى الدعوات (٩٨) . وابن ماجه فى الأدب (٥٨) . والدارمى فى الرقاق (٧٢) ، والإمام أحمد فى (٥ : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠) .
(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز (١) وفى بدء الخلق (٦) وفى اللباس (٢٤) وفلا الاستئذان (٣٠) وفى الرقاق (١٣ ، ١٤) وفى التوحيد (٣٣) . ومسلم فى الإيمان (١٥٣ ، ١٥٤) وفى الزكاة (٣٢ ، ٣٣) . والترمذى فى الإيمان (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٨٥) وفى (٦ : ١٦٦ ، ٤٤٢) .

بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾[١] . وكان رسول الله ﷺ يقول : (رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه) .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : ياليتنى شعرة فى صدر رجل مؤمن .
وكان الفاروق يقول وهو على فراش الموت : ولا تزكونى بما ليس فىَّ فإن الله أعلم بحالى منكم .

وقد ألقى القرآن الكريم باللائمة على قوم زكوا أنفسهم فقالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾[٢] ، ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾[٣] . ورد عليهم القرآن فى الآية الأولى : ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وفى الآية الثانية بقوله : ﴿ قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ﴾ وهذا استفهام تقريرى موجه إلى كل من يعقل الخطاب .

﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم** ﴾ أى اعلم أيها المخاطب أن من قبائح هؤلاء القوم أنهم يدَّعون التزكية والطهر لأنفسهم ، وكان عليهم أن يوقنوا بأن الله يزكى من يشاء ، إذ هو العليم بذات الصدور ، الخبير بدقائق الأمور .

وقد بلغ من أدب أحد الصالحين أن رجلا أثنى عليه ، فردَّ عليه العبد الصالح بتلك الكلمات النورانية قائلا : « اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون ولا تؤاخذنى بما يقولون واغفر لى ما لا يعلمون » . قال تبارك اسمه ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾[٤] .

ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ **ولا يظلمون فتيلا** ﴾ . وهذا مظهر من مظاهر العدل . ومن أسمائه تعالى أنه الحكم العدل . فهؤلاء القوم مع كثرة ما اقترفوه من جرائم ومخالفات وجنايات فإن الله مع ذلك لا يظلمهم شيئا ، ولو كان هذا الشىء كالخيط فى شق النواة ، حتى أن الله تعالى يخفف العذاب عن قوم أتوْا أفعالا ينفع الله بها العباد فى الدنيا ، ولكنهم ماتوا على الكفر : يخفف العذاب عن أبى طالب لكفالته رسول الله ﷺ يوم مات جده عبد المطلب وهو ابن ثمانى سنوات ووقوفه كجبهة دفاع خارجية ، يقول للرسول الكريم : يا ابن أخى قل ما شئت فو الله لا أسلمك إليهم أبدا :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسَّد فى التراب دفينا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

قال ﷺ : (أخف الناس عذابا يوم القيامة أبو طالب) .
كما يخفف العذاب عن أبى لهب يوم الأثنين ، ذلك لأنه لما بُشر بمولد الهادى البشير ، وكان ذلك يوم

(١) الآية ٣٢ من سورة النجم .
(٢) الآية ١٨ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٨٠ من سورة البقرة .
(٤) الآية ٢١ من سورة النور .

الاثنين أعتق جاريته ثويبة التى زفت إليه هذا النبأ السعيد . قال أحد الصالحين فى أبى لهب :

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه ... وتبت يداه فى الجحيم مخلدا
أتى أنه فى يوم الاثنين دائما ... يخفف عنه للسرور بأحمد
فما الظن بالعبد الذى كان عمره ... بأحمد مسرورا ومات موحدا

وقد كانت أول جرعة لبن نزلت فى جوف المصطفى من جارية عمه أبى لهب ، وكان عتقها إيذانا للعالم أجمع بأن هذا المولود السعيد هو محرر العبيد . ولقد كان ذلك كذلك .

فمبعوث العناية الإلهية هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة . جعل من رعاة الغنم زعماء للأمم . ومن عباد الحجر قادة للبشر :

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

أنت الذى قاد الجيوش محطما ... عهد الضلال وأدَّب السفهاء
وسموت بالبشر الذين تعلموا ... سنن الشريعة فارتقوا سعداء

قوله تعالى : ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا ﴾ هذا تعقيب على ما اقترفه القوم من جرائم وما اقترفوه من كذب على الله . فقد قال بعضهم : عزير ابن الله ، وقال آخرون : المسيح ابن الله . وقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤ ه . فانظر أيها المخاطب وتعجب ! كيف يفترون على الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم ، وكفى بالكذب على الله إثما وبهتانا ، وسقوطا إلى الهاوية ، وعذابا أليما .

قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾[1] ، وقال جل شأنه : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾[2] . وقد حذَّر الصادق المعصوم من الكذب ومن سوء مصير الكاذبين فقال : (إيَّاكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذَّابا)[3] .

ضلال القوم وتضليلهم

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٣٢ من سورة الزمر .
(٣) أخرجه الترمذى فى البر (٤٦) . ومسلم فى البر (١٠٤ ، ١٠٥) . وأبو داود فى الأدب (٨٠) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٤ ، ٣٩٣ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠) .

عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

المفردات : **الجبت** : هو الردىء الذى لا خير فيه ويراد به هنا : الأصنام والأوهام والخرافات والدجل . والطاغوت : ما تكون عبادته والإيمان به سببا للطغيان والخروج من الحق من مخلوق يُعبَد ، ورئيس يُقَلَّد ، وهوى يُتَّبع ، وروى عن عمر ومجاهد أنه الشيطان ، والنقير : النقرة التى فى ظهر النواة ، ومنها تنبت النخلة يضرب بها المثل فى الشىء الحقير التافه ، كما يضرب المثل بالقطمير وهو القشرة الرقيقة التى على النواة بينها وبين التمرة ، **والحسد** : تمنى زوال النعمة عن صاحبها المستحق لها ، والمراد بالناس هنا محمد ﷺ ومن آمن معه . **والفضل** : النبوة والكرامة فى الدين والدنيا ، **والكتاب** : العلم بظاهر الشريعة ، **والحكمة** : العلم بالأسرار المودعة فيها ، والملك العظيم : ما كان لأنبياء بنى إسرائيل كداود وسليمان عليهما السلام ، وصدّ عن الشىء : أعرض عنه ، ونار مُسْعرة : موقدة ، ويقال أوقدت النار وأسعرتها .

جاء فى سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس قال : كان الذين حزَّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، هم حُيَىُّ بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وأبو عمارة ، وهوذة بن قيس ، وباقيهم من بنى النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار اليهود وأهل العلم بالكتب الأولى ؛ فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا : دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه ، فأنزل الله : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ملكا عظيما** ﴾ قاله السيوطى فى لباب النقول . .

وروى عن عكرمة أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبى ﷺ ، وأمرهم أن يغزوه ، وقال : إنا معكم نقاتله ، فقالوا : إنكم أهل كتاب وهو صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم ، فإن أردت أن تخرج معنا فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل ، ثم قالوا : نحن أهدى أم محمد ؟ فنحن ننحر الكوْماء (الناقة الضخمة السَّنام) ونسقى اللبن على الماء ، ونصل الرحم ، ونَقرى الضيف ونطوف بهذا البيت ، ومحمد قطع رحمه وخرج من بلده ، فقال : بل أنتم خير وأهدى .

فتأمل معى كيف ضل هؤلاء الناس ! لقد ضلوا ضلالاً بعيدا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، لقد شهدوا شهادة زور عندما أخبروا المشركين من أهل مكة بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، لقد آمنوا بالجبت والطاغوت ، واعتقدوا فى الأوهام والدجل والخرافات ، واتبعوا كل طاغوت طغى وتكبر ، واتخذوا الشيطان وليا من دون الله . ومن يتخذ الشيطان قرينا فساء قرينا ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً ﴾[1] ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[2] .

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء .
(٢) الآية ٣١ من سورة الحج .

وكان واجبا عليهم وقد أوتوا نصيبا من الكتاب ، وقرأوا ما فيه من نبوة سيدنا محمد ﷺ أن يقروا ويعترفوا للمشركين ، وقد سألوهم أن محمدا وأتباعه على هدى . إنهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[١] .

كانت العاقبة كما أخبر سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ **أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾ وكفى باللعن عاقبة ، وكفى به سوءاً . إن الذى طُرد من رحمة الله لا ناصر له فى الدنيا والآخرة ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له ومالهم من دونه من وال ﴾[٢] ، ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[٣] ، ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا** ﴾ هذا توبيخ وتقريع لليهود على بخلهم . و ﴿ أم ﴾ هنا بمعنى بل . والهمزة أى بل ألهم نصيب من الملك لقد ضيعوه بظلمهم وبغيهم وطغيانهم . ولو كان لهم نصيب من الملك لبخلوا بما آتاهم الله ، ولأمسكوا عن إعطاء النقير وهو الغشاء الرقيق على ظهر النواة .

ثم انتقل من الحديث عن بخلهم إلى الحديث عن حسدهم فقال سبحانه : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾ .

قال المفسرون : المراد بالناس : محمد ﷺ ، فقد حسدوه لما أنزل الله عليه الرسالة . حسدوه عليها ، وكانوا يريدونها فيهم . قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما** ﴾ : يريد سبحانه وتعالى أن يبين ما عليه اليهود من الحسد للرسول الكريم ، ولماذا يحسدونه بالذات ، ولم تكن نبوته بدعا من الرسل ، فقد سبق أن آتى الله آل إبراهيم وهم إسحاق ويعقوب وما تناسل منهما من الأنبياء ، آتاهم الكتب من توراة وانجيل وزبور وقرآن وحكمة وهى أسرار التشريع أو السنة ، وصحف ، كما آتاهم ملكا عظيما ، فما الغرابة فى إنزال الكتاب على محمد ﷺ .

وفى الآية دلالة ونبوءة على التمكين لهذه الأمة فى قوله تعالى ﴿ **وآتيناهم ملكا عظيما** ﴾ وقد مكن الله تعالى لهذه الأمة بقيام دولة كانت نواتها الأولى بالمدينة المنورة ، وامتدت فى أرجاء الدنيا من حدود الصين شرقا

(١) الآية ١٤ من سورة النمل .
(٢) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٣) الآية ٥٢ من سورة غافر .
(٤) الآية ١٨ من سورة غافر .
(٥) الآية ٨٩ من سورة البقرة .

إلى أبواب باريس غربا ، ومن حدود سيبريا شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا ، تعانق الجوزاء ، وتزاحم الشمس فى الجلاء ، خير أمة أخرجت للناس ، تقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله . أمة تصون ولا تبدد ، تحمى ولا تهدد ، تبنى وتشيد ، تشدّ أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، تنشر ألوية الأمن والأمان على ربوع البسيطة .

لقد حسد اليهود هذه الأمة على نبيها وكتابها ، على عيدها يوم الجمعة ، على تحية السلام ، كما حسد الكفار من أهل مكة نبى هذه الأمة على رسالته : وقالوا ﴿ لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[1] قصدوا بالقريتين مكة والطائف ، وقصدوا برجل مكة الوليد بن المغيرة ، وقصدوا برجل الطائف عروة بن مسعود الثقفى فقال لهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ثم قال : ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾[2] .

قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ﴾ أى من الأمم من آمن بما أنزلنا من الكتاب والحكمة وسلك طريق النجاة ، ومنهم من كفر وصدَّ عنه غيره ، فكفى بجنهم نارا مستعرة له . ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا ﴾[3] فلا تحزن ولا تذهب نفسك عليهم حسرات : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[4] ، ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[5] .

مصير الكافرين والمؤمنين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

المفردات : ﴿ **نصليهم** ﴾ : نشويهم بالنار ، يقال شاة مصلية أى مشوية . ﴿ **نضجت** ﴾ : احترقت وتهرأت وتلاشت ، من قولهم نضج الثمر واللحم نضجا : إذا أدركا . ﴿ **ليذوقوا العذاب** ﴾ أى ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع كما تقول للعزيز : أعزك الله ، أى أدام لك العز وزادك فيه ، **والعزيز** : هو القادر الغالب

---

(١) الآية ٣١ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ١٦٧ من سورة النساء .
(٤) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٦ من سورة الكهف .

على أمره ، **والحكيم** : هو المدبر للأشياء وفق الحكمة والصواب ، **ومطهرة** : أى من العيوب والأدناس الحسية والمعنوية ، وقوله ﴿ **ظلا ظليلا** ﴾ كقوله ليل أليل وصف للمبالغة والتأكيد فى المعنى : أى ظل وارف لا يصيب صاحبه حر ولا سموم ، ودائم لا تنسخه الشمس ، وقد يعبر بالظل عن العزة والمتعة والرفاهية فيقال : « السلطان ظل الله فى أرضه » . **والآيات** : الأدلة التى ترشد إلى أن هذا الدين حق ، ومن أجّلها القرآن لأنه أول الدلائل وأظهر الآيات وأوضحها ، والكفر بها يعم إنكارها والغفلة عن النظر فيها وإلقاء الشبهات والشكوك مع العلم بصحتها عنادا وحسدا . **والخلود** : الدوام وقد أكده بقوله أبدا ، **ومطهرة** : أى بريئات من المعايب الجسمانية والطباع الردية .

لما أخبر الله تعالى عن الفريقين : فريق المؤمنين وفريق الصادين المكذبين بقوله : ﴿ **فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا** ﴾ . لما أخبر سبحانه بذلك فصَّل مصير كل فقال سبحانه : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا** ﴾ أى جحدوا بها وكذَّبوا ، وآياته ظاهرة الدلالة ، واضحة المعنى ، جلية فى مغزاها ومرماها ومعناها ومبناها . ما مصير هؤلاء الجاحدين المكذبين ؟ قال سبحانه : ﴿ **سوف نصليهم ناراً** ﴾ . وقد قالوا : إن التنكير فى لفظ نار يفيد عظمها ، والتفخيم من شأنها .

ثم بين سبحانه مدى ما سيلقاه هؤلاء فى تلك النار فجاء التعبير بأداة الشرط ﴿ **كلما** ﴾ التى تفيد التكرار فقال جل شأنه : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ .

ويكفيك أن تقف عند قوله جلّ شأنه : ﴿ **نضجت** ﴾ أى احترقت وتهرأت وتلاشت ، والتعبير بالجلود دون اللحم يفيد حقيقة علمية ، إذ أن الجلد هو مركز الإحساس فى الإنسان .

يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى كتابه « الإسلام والطب الحديث » إن أعصاب الألم هى فى الطبقة الجلدية ، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذى لا يتجاوز الجلد يحدث ألما شديداً بخلاف الحرق الشديد الذى يتجاوز الجلد إلى الأنسجة ، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألما كثيرا ؛ فالله يقول لنا : إن النار كلما أكلت الجلد الذى فيه الأعصاب نجدده ، كى يستمر الألم بلا انقطاع ، ويذوقوا العذاب الأليم ، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان : ﴿ **وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ .

وبعد بيان هذه الصورة التى تسيل لها النفس مرارة وألما ، وينصدع لها الفؤاد لوعة وحسرة ، بين الله الحكمة من ذلك فقال : ﴿ **ليذوقوا العذاب** ﴾ أى ليدوم لهم العذاب كما استمروا على الكفر فى الدنيا وأصروا عليه واستكبروا استكبارا .

ويكفى أن أسوق لك هذا المشهد من مشاهد القرآن عن أهل النار فى طعامهم وشرابهم ، قال سبحانه :﴿ إن شجرت الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾[1] .

---

(١) الآيات ٤٣ - ٤٩ من سورة الدخان .

هذا طعامهم . فما شرابهم ؟ قال تعالى : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[1] .

لا يفعل هذا إلا عزيز حكيم غالب لا يغلبه أحد ، وحكيم تنزه ذاته عن العبث . إنه الله العزيز الحكيم .

قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا** ﴾ هذا من باب اقتران الوعد بالوعيد ، وسمى القرآن مثانى لأنه يثنى الوعد بالوعيد ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد ، يصف الله المؤمنين بقوله : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾[2] .

وهكذا حال المؤمن الصالح مع الله . وليس الإيمان كلاما تلوكه الألسنة ، وتنبس به الشفاه ، وإنما الإيمان كما ورد فى هذه الآية ما اقترن بالعمل الصالح ﴿ **آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ وقد جاء فى الحديث الشريف : (ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . وإن قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا ! لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل) .

ما مصير هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ سيدخلهم ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . فقارن بين هؤلاء وأولئك : أما الكافرون فسوف ﴿ **نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ .

أما هؤلاء المؤمنون ﴿ **سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ . ثم تأتى بعد ذلك نعمة الخلود لتمتلئ النفس أمنا وطمأنينة ، فالخلود فى النعيم يعدل النعيم . ثم ماذا ؟ لهم فيها أزواج وأى أزواج ! ﴿ **أزواج مطهرة** ﴾ : طهارة معنوية من الحقد والحسد والغل والبغضاء ، إنهن قاصرات الطرف إنهن حور مقصورات فى الخيام ، وطهارة حسية من الحيض والنفاس والعرق والفضلات ، ﴿ **وندخلهم ظلا ظليلا** ﴾ والتعبير بالظل فيه معنى العيشة الهانئة الراضية المطمئنة ، ووصف الظل بأنه ظليل ، فيه المبالغة فى هذا النعيم .

وكما سقنا فى أهل العذاب صورة من مشاهد القيامة ، فإننا نسوق فى أهل النعيم صورة من صور الهناء والحبور : قال تعالى : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقَّاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قواريرا من فضة قدروها تقديرا * وَيُسْقَوْن فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا * عيناً فيها تسمى سلسبيلا * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً * وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيما وملكا كبيرا * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً** ﴾[3] .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٩٠ من سورة الأنبياء .
(٣) الآيات ١١ - ٢٢ من سورة الإنسان .

الأمانة والحكم

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

المفردات : **الأمانة** الشيء الذى يحفظ ليؤدى إلى صاحبه ، ويسمى من يحفظها ويؤديها حفيظاً وأمينا ووفيًا ، ومن لا يحفظها ولا يؤديها خائنا . **والعدل** : إيصال الحق إلى صاحبه من أقرب الطرق إليه ، **والتأويل** : بيان المآل والعاقبة .

ذكر ابن إسحق بسنده فى سبب نزول هذه الآية عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ةفدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس فى المسجد . قال ابن إسحق : فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمىّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج) وذكر بقية الحديث فى خطبة النبى ﷺ يومئذ إلى أن قال : (ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك فقال رسول الله ﷺ : (أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له فقال له : هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم وفاء وبر)[1] .

قال ابن جرير : حدثنى القاسم حدثنا الحسين عن حجاج عن ابن جريج فى الآية قال : نزلت فى عثمان بن طلحة : (قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل فى البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح) .

(١) أخرجه أبو داود فى الديات (١٧ ، ٢٤) . والإمام أحمد فى (٢ : ١١ ، ٣٦ ، ١٠٣) وفى (٣ : ٤١٠) وفى (٥ : ٤١٢) .

الأمانة هى الرعاية لحقوق الله تعالى ، وقد جاء ذكرها فى مواضع كثيرة من الكتاب العزيز . قال تعالى : ﴿ فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربَّه ﴾[١] ، وقال جلَّ ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[٢] . وقال سبحانه فى صفة المؤمنين : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾[٣] . وقال عظمت حكمته : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾[٤] . وفى الأحاديث الشريفة ما يدل على عظم الأمانة وخطر شأنها : من ذلك قول الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)[٥] وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عزَّ وجلَّ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمر الله عزَّ وجلَّ بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك فى الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجمَّاء من القرناء)[٦] .

روى ابن أبى حاتم بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قتل فى سبيل الله فيقال : أد أمانتك فيقول : فأنى أؤديها وقد ذهبت الدنيا ؟ فتمثل له الأمانة فى قعر جهنم فيهوى إليها فيحملها على عاتقة . قال فتنزل عن عاتقه فيهوى على أثرها أبد الآبدين .

وقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال : (أربع إذا كن فيك فلا تبالى بما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة) وقال عليه الصلام والسلام : (لا إيمان لمن لا أمانة له)[٧] .

قوله تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ ، إنما جاء الأمر بالحكم مقترنا بأداء الأمانة لأن الحكم بالعدل أمانة ، فمن جار وظلم فقد خان الأمانة ، وقد نهى الله تعالى عن خيانتها ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[٨] ، وأمر سبحانه بالعدل فقال : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾[٩] .

---

(١) الآية ٢٨٣ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٨ من سورة المؤمنون .
(٤) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .
(٥) أخرجه أبو داود فى البيوع (٧٩) . والترمذى فى البيوع (٣٧) . والدارمى فى البيوع (٥٧) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤١٤) .
(٦) أخرجه مسلم فى البر (٦٠) . والترمذى فى القيامة (٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٣٣ ، ٤١١) .
(٧) أخرجه الإمام أحمد فى (٣ : ١٣٥ ، ١٥٤ ، ٢٠١ ، ٢٥١) .
(٨) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .
(٩) الآية ١٥٢ من سورة الأنعام .

وبين أن هذا العدل صراط مستقيم فقال : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[١] .

وهل المستقيم إلا أقرب صلة بين نقطتين ، وهذا هو العدل بعينه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[٢] .

وقد بلغ الإسلام فى العدل مبلغ بلغ الآفاق ، وعرف فى أرجاء الدنيا شرقاً وغرباً ، بل لقد وصل إلى درجة جعلت على بن أبى طالب وقد كانت بينه وبين يهودى خصومة ، كان القاضى فيها عمر ، أن غضب على بن أبى طالب عندما ناداه أمير المؤمنين عمر بكنيته فقال له : يا أبا الحسن ، وفى الكنية تكريم ، كيف يناديه بكنيته وينادى على اليهودى باسمه ، وقد ورد فى الحديث الشريف ما يدعو إلى عدل الحاكم أيا كان موقعه والقاضى أيا كان مكانه ، قال ﷺ : (إن الله مع الحاكم ما لم يجر فإذا جار وكله إلى نفسه)[٣] .

وجاء فى الحديث أنه يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى معه أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة « وما من وال يلى أمر عشرة إلا جاء يوم القيامة يداه مغلولتان إلى عنقه حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور »[٤] .

وقد ورد فى كتب الفقه أحكام تتعلق بالعدل والقضاء نرى من الأهمية بمكان أن نسجلها على تلك الصفحات لما لها من وقع مؤثر فى حياة الأمة الإسلامية ، لقد كان الإمام عبد الله بن عباس يقول : أكثروا من ذكر عمر فإنكم إذا ذكرتموه فإنكم ذكرتم العدل ، وفى ذكر العدل ذكر لله تعالى ، ذلك لأن الله هو الحكم العدل .

جاء فى كتب الأحكام الشرعية تحت عنوان القضاء ما نصه :

إن العدل قيمة من القيم الإسلامية العليا ، ذلك أن إقامة الحق والعدل هى التى تشيع الطمأنينة وتنشر الأمن وتشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وتقوى الثقة بين الحاكم والمحكوم ، وتنمى الثروة ، وتزيد فى الرخاء ، وتدعم الأوضاع ، فلا تتعرض لخلخلة أو اضطراب ، ويمضى كل من الحاكم والمحكوم إلى غايته فى العمل والإنتاج ، وخدمة البلاد دون أن يقف فى طريقه ما يعطل نشاطه ، أو يعوقه عن النهوض وإنما يتحقق العدل بإيصال كل حق إلى مستحقه ، والحكم بمقتضى ما شرع الله من أحكام ، ويتجنب الهوى بالقسمة بين الناس بالسوية ، وما كانت مهمة رسل الله إلا القيام بهذا الأمر وإنفاذه ، وما كانت وظيفة أتباع الرسل إلا السير على هذا النهج كى تبقى النبوة تمد الناس بظلها الظليل . ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[٥] .

---

(١) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٩٠ من سورة النحل .
(٣) أخرجه الترمذى فى الأحكام (٤) . وابن ماجه فى الأحكام (٢) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٤٣١) .
(٥) الآية ٢٥ من سورة الحديد .

القضاء فى الإسلام :

ومن أهم الوسائل التى يتحقق بها القسط وتحفظ الحقوق وتصان الدماء والأعراض والأموال : إقامة النظام القضائى الذى فرضه الإسلام ، وجعله جزءاً من تعاليمه وركيزة من ركائزه التى لابد منها ولا غنى عنها ، وكان أول من تولى هذه الوظيفة فى الإسلام الرسول ﷺ ، فقد جاء فى المعاهدة التى تمت بعد الهجرة بين المسلمين واليهود وغيرهم : « إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله » .

وقد أمره الله عز وجل أن يحكم بما أنزل فقال : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾[1] .

وتولى قضاء مكة على عهد رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد ، كما تولى على بن أبى طالب كرم الله وجهه قضاء اليمن .

روى أهل السنن وغيرهم أن علياً لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً قال : يارسول الله بعثتنى بينهم وأنا شاب لا أدرى ما القضاء فضرب رسول الله ﷺ فى صدرى وقال : (اللهم اهده وثبت لسانه)[2] . قال على : فو الذى فلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين .

وعن على كرم الله وجهه أن الرسول ﷺ قال : (يا على إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء)[3] .

فيم يكون القضاء :

والقضاء يكون فى جميع الحقوق سواء أكانت حقوقاً لله أم حقوقاً للأدميين وقد أفاد ابن خلدون أن منصب القضاء استقر آخر الأمر على أن يجمع مع الفصل بين الخصوم « استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر فى أحوال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السنة وفى وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد أوليائهن على رأى من يراه والنظر فى مصالح الطرقات والأبنيه وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من متعلقات وظيفته وتوابع ولايته » .

منزلة القضاء :

والقضاء فرض كفاية لدفع التظالم وفصل التخاصم ويجب على الحاكم أن ينصب للناس قاضياً ومن أبى أجبره عليه .

---

(١) الأيتان ١٠٥ ، ١٠٦ من سورة النساء .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأحكام (١) . والإمام أحمد فى (١ : ١١١) .
(٣) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٦) .

وإذا كان الإنسان فى جهة لا يصلح للقضاء غيره تعين عليه ووجب عليه الدخول فيه ، وقد رغب الإسلام فى الحكم بين الناس بالحق وجعله من الغبطة .

روى البخارى عن عبد الله بن عمر أن الرسول ﷺ قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس »[١] .

ووعد القاضى العادل بالجنة :

فعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (من طلب قضاء المسلمين حتى يناله ثم غلب عدله جوره فله الجنة ، ومن غلب جوره عدله فله النار)[٢] . وعن عبد الله بن أبى أوفى أن النبى ﷺ قال : (إن الله مع القاضى ما لم يجر فإذا جار تخلى الله عنه ولزمه الشيطان) .

أما ما جاء من الأحاديث فى التحذير من الدخول فى القضاء مثل ما رواه سعيد المقبرى أن الرسول ﷺ قال : (من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين)[٣] ، فإنها ترجع إلى الأشخاص الذين لا علم لهم بالحق ، ولا قدرة لهم على الصدع به ، ولا يتمكنون من ضبط أنفسهم ، ولا كبح جماحها ومنعها من الميل إلى الهوى .

والذى يرشد إلى هذا حديث أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال قلت يارسول الله : (ألا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها)[٤] .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : دخلت على النبى ﷺ أنا ورجلان من بنى عمى فقال أحدهما : يارسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل . وقال الآخر . مثل ذلك ، فقال : (لا أنا والله لا نولى هذا العمل أحداً يسأله أو أحداً يحرص عليه)[٥] .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (من ابتغى القضاء وسأل فيه شفعاء وكّل إلى نفسه ومن أكره عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده)[٦] .

والخوف من العجز عن القيام بالقضاء على الوجه الأكمل هو السبب فى امتناع بعض الأئمة عن الدخول فى القضاء .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأحكام (٣) وفى العلم (١٥) وفى الزكاة (٥) وفى الاعتصام (١٣) . ومسلم فى المسافرين (٢٦٨) . وابن ماجه فى الزهد (٢٢) . والإمام أحمدفى (١ : ٣٨٥ ، ٤٣٢) .
(٢) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٢) .
(٣) أخرجه الترمذى فى الأحكام (١) . وأبو داود فى الأقضية (١) . وابن ماجه فى الأحكام (١) والإمام أحمد فى (٢ : ٢٣٠ ، ٢٦٥) .
(٤) أخرجه مسلم فى الإمارة (١٦) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٣ ، ٢٦٧) .
(٥) أخرجه البخارى فى الأحكام (٧) . ومسلم فى الإمارة (١٤) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٣) .
(٦) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٣) . والترمذى فى الأحكام (١) . وابن ماجه فى الأحكام (١) . والإمام أحمد فى (٣ : ١١٨ ، ٢٢٠) .

ومن طريف ما يروى فى هذا : أن حياة بن شريح دعى إلى أن يتولى قضاء مصر فلما عرضه عليه الأمير امتنع فدعا له بالسيف فلما رأى ذلك أخرج مفتاحاً كان معه وقال : هذا مفتاح بيتى ولقد اشتقت إلى لقاء ربى فلما رأى الأمير عزيمته تركه .

من يصلح للقضاء :

ولا يقضى بين الناس إلا من كان عالماً بالكتاب والسنّة ، فقيها فى دين الله ، قادراً على التفرقة بين الصواب والخطأ ، بريئاً من الجور ، بعيداً عن هوى .

وقد اشترط الفقهاء فى القاضى أن يبلغ درجة الاجتهاد ، فيكون عالماً بآيات الأحكام وأحاديثها ، عالماً بأقوال السلف ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه ، عالماً باللغة ، وعالماً بالقياس ، وأن يكون مكلفاً ، ذكراً ، عدلاً ، سميعاً بصيراً ، ناطقاً .

وهذه الشروط تعتبر حسب الإمكان ، ويجب تولية الأمثل فالأمثل ، فلا يصح قضاء المقلد ولا الكافر ولا الصغير ولا المجنون ولا الفاسق ولا المرأة ، لحديث أبى بكرة قال : لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال : (لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة)[١] .

وقد اشترط الفقهاء أيضاً مع هذه الشروط تولية الحاكم للقاضى ، فإنها شرط فى صحة قضائه ، وهذا بخلاف المتداعيين إذا ارتضيا حكماً يقضى بينهما ممن ليس له ولاية القضاء ، فقد أجازه مالك وأحمد .

وقد ذكر الله لنا المثل الأعلى فى القضاء فقال جل شأنه : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[٢] .

وإذا كان هذا الخطاب موجهاً إلى داود عليه السلام فهو فى الواقع موجه إلى ولاة الأمور ، لأن الله لم يذكر ذلك إلا ليبين لنا المثل الأعلى فى الحكم وأن داود - وهو نبى معصوم - يخاطبه الله بقوله : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ ، فإذا كان النبى وهو معصوم يخشى عليه من اتباع الهوى فأولى بأن يخشى على غيره من غير المعصومين .

وعن أبى بريدة عن أبيه عن النبى ﷺ قال : (القضاة ثلاثة : واحد فى الجنة واثنان فى النار : فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار)[٣] .

ومع الكتاب والسنة كان بعض القضاة يرجع فى قضائه إلى أقوال الأئمة واختيار الرأى القوى الذى يتفق مع الحق .

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى (٨٢) وفى الفتن (١٨) . والترمذى فى الفتن (٧٥) . والنسائى فى القضاة (٨) .
(٢) الآية ٢٦ من سورة ص .
(٣) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٢) . وابن ماجه فى الأحكام (٣) .

(أحكام تتعلق بالقضاء)

ذكر محمد بن يوسف الكندى أن إبراهيم بن الجراح تولى القضاء فى سنة ٢٠٤ هـ ، وقد قال عمر بن خالد : ما صحبتُ أحداً من القضاة كإبراهيم بن الجراح ؛ كنت إذا عملت له المحضر وقرأته عليه أقام عنده ما شاء الله أن يقيم ويرى فيه رأيه ، فإذا أرادأن يقضى به دفعه إلىَّ لأنشىء منه سجلاً فأجد فى ظهره : قال أبو حنيفه كذا ، وفى سطر قال ابن أبى ليلى كذا ، وفى سطر آخر قال أبو يوسف ، وقال مالك كذا ، ثم أجد على سطر منها علامة كالخط فأعلم أن اختياره وقع على ذلك القول ، فأنشئ السجل عليه .

وقد رأى بعض العلماء إلزام القضاة بالقضاء بمذهب معين منعاً للاضطراب وبلبلة الأفكار . قال الدهلوى : إن بعض القضاة لما جاروا فى أحكامهم صار أولياء الأمور يلزمون القضاة بأن يحكموا بمذهب معين لا يَعْدُونه ولم يقبل منهم إلا ما لا يريب العامة ويكون شيئاً قد قيل من قبل .

قضاء من ليس بأهل للقضاء :

قال العلماء : كل من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم ، فإن حكم فهو آثم ولا ينفذ حكمه ، وسواء وافق الحق أم لا ، لأن إصابة الحق اتفاقية ليست صادرة عن أصل شرعى ، فهو عاص فى جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا ، وأحكامه مردودة كلها ، ولا يعذر فى شىء من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله نِعِمَّا يعظكم به** ﴾ هذا أسلوب من أساليب المدح فى لغتنا الجميلة ، أى نعمة مّا يأمركم به الله ويرشدكم إليه ، فكل أمر الله خير لكم وكل إرشاد منه فيه سعدكم : ﴿ فمن اتَّبع هُدَاىَ فلا يَضِل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى[1] ﴾ . فما بالك إذا كان هذا الأمر الناهى هو السميع البصير؟ قال تعالى : ﴿ **إن الله كان سميعاً بصيراً** ﴾ أحاط بكل شىء علماً وأحصى كل شىء عدداً ، يسمع دبيب أرجل النحلة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

يا من يرى مد البعوض جناحه   فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها   والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها   فى قاع بحر زاخر متجندل

ومن أصدق من الله قيلا ومن أصدق من الله حديثا ومن أحسن من الله حكماً ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ ، ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[2] .

---

(١) الآيات من ١٢٣ : ١٢٦ من سورة طه .

(٢) الآيات : ٢٦ - ٢٨ من سورة النساء .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ ، هذه الآية الكريمة مبينة لأصول الدين فى الحكومة الإسلامية :

١ - الأصل الأول : القرآن الكريم والعمل به ، هو طاعة الله تعالى .

٢ - الأصل الثانى : سنة رسوله ﷺ والعمل به ، طاعة الرسول ﷺ .

٣ - الأصل الثالث : إجماع أولى الأمر ، وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة ، كالتجار والصناع والزراع ورؤساء العمال والأحزاب ومديرى الصحف ورؤساء تحريرها ، وطاعتهم حينئذ هى طاعة أولى الأمر .

٤ - الأصل الرابع : عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة المعلومة فى الكتاب والسنة ، وذلك قوله : ﴿ **فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ .

فهذه الأصول الأربعة هى مصادر الشريعة ، ولابد من وجود جماعةيقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة فمن يختارهم أولو الأمر من علماء هذا الشأن ، ويجب على الحكام الحكم بما يقرّونه .

وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين : الأولى الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن «الهيئة التشريعية» ، والجماعة الثانية جماعة الحاكمين والمنفذين ، وهم الذين يسمون «الهيئة التنفيذية» . وعلى الأمة أن تقبل هذه الأحكام وتخضع لها سراً وجهراً ، وهى بذلك لا تكون خاضعة لأحد من البشر ، لأنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى أو حكم رسوله ﷺ بإذنه ، أو حكم نفسها الذى استنبطه لها جماعة أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من أفرادها الذين وثقت بإخلاصهم وعدم اتفاقهم إلا على ما هو الأصلح لها . ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ أى ردوا الشىء المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فإن المؤمن لا يقدم شيئاً على حكم الله ، كما أنه يهتم باليوم الآخر أشد من اهتمامه بحظوظ الدنيا .

وفى هذا دليل على أن من لا يقدم اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظه فإنه لا يكون مؤمنا حقاً .

﴿ **ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ أى ذلك الرد للشىء المتنازع فيه إلى الله ورسوله خير لكم ، لأنه أقوى الأسس فى حكومتكم ، والله أعلم منكم بما هو الخير لكم ، ومن ثمّ لم يشرع لكم فى كتابه وعلى لسان رسوله إلا ما فيه مصالحكم ومنافعكم ، وما هو أحسن عاقبة لما فيه من قطع عرق التنازع ، وسد ذرائع الفتن .

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن : (بم تقضى ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبرأيى)[1] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأقضية رقم (١١) . وأخرجه الترمذى فى الأحكام رقم (٣) .
وأخرجه الدارمى فى المقدمة رقم (٢٠) . وأخرجه الإمام أحمد فى (٥) ـ رقم ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ .

من مواقف المنافقين

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

المفردات : الزعم فى أصل اللغة : القول حقا كان أو باطلاً ، ثم كَثُر استعماله فى الكذب . قال الراغب : الزعم حكاية قول يكون فطنة للكذب ، وقد جاء فى القرآن فى كل موضع ذم القائلين به كقوله : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ﴾[1] ، وقوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾[2] ، والطاغوت : معناه طغيان كثير . ضلالا بعيدا : أى بعيدا صاحبه عن الحق ، إذ هو لا يهتدى إلى الطريق الموصلة إليه . صُدوداً : أى إعراضا متعمدا عن قبول حكمك . إحسانا : أى فى المعاملة بين الخصوم . وتوفيقاً : أى بينهم وبين خصومهم بالصلح . فأعرض عنهم : أى اصرف وجهك عنهم . وعظهم : أى ذكّرهم بالخير على الوجه الذى ترق له قلوبهم . قولاً بليغاً : أى يبلغ من نفوسهم الأثر الذى تريد أن تحدثه فيها .

لما أوجب الله تعالى التحاكم إلى كتابه وسنة رسوله فى قوله جل شأنه : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[3] .

لما كان ذلك كذلك ألقى الله تعالى باللائمة على قوم زعموا زوراً وبهتاناً أنهم آمنوا بالله ورسوله وآمنوا بما أنزل على الأنبياء من قبله ، لكن سلوكهم كان يناقض ما يزعمونه ، فقد رووا : (أن عمر رضى الله عنه كان يمر ذات يوم فوجد رجلين أحدهما يهودى والآخر يزعم أنه مسلم وكان بينهما خصومة ، فقال اليهودى :

---

(١) الآية ٧ من سورة التغابن .
(٢) الآية ٥٦ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٥٩ من سورة النساء .

رضيت بمحمد حكماً . وقال الذى يزعم الإسلام : رضيت بكعب بن الأشرف ـ وهو يهودى ـ حكماً . فلما ذهبا إلى رسول الله ﷺ لم يرض المنافق بحكم رسول الله ، فلما سمع عمر هذا القول سأل الذى يزعم الإسلام ويريد أن يتحاكم إلى الطاغوت ـ كعب بن الأشرف ـ قال لهما : انتظر حتى أقضى بينكما ، وعاد ومعه سيفه ، ثم سمع منهما مرة أخرى ، ثم سأل المنافق : هل رددت حكم رسول الله ولم ترض به ؟ فلما أقر المنافق بأنه رده ولم يرض به ضرب عمر عنقه . وقال هذا جزاء من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ) . فنزلت الآيات على الصادق المعصوم تبين وقائع هذا الحادث ، وفى هذا دليل على أن مجرد الإرادة فى التحاكم إلى الطاغوت تعتبر زعماً كاذباً ينافى ما ورد فى قوله جل شأنه : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾[1] هل هناك عاقل يملك فكراً سليماً يرفض حكم الله ورسوله ؟ .

إن الله تعالى يقرر حال هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض ، وألسنتهم أحلى من العسل ، فيقول فى شأنهم : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾[2] .

فما موقف المؤمنين الصادقين من هذا ؟ . . ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويَتَّقْهِ فأولئك هم الفائزون ﴾[3] .

هؤلاء المؤمنون هم الذين صدق فيهم قول الله تعالى ﴿ وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾[4] وقول رسوله ﷺ : (ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل)[5] .

أمَّا مَرْضى القلوب من المنافقين فإنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، والطاغوت هو كل من زاد طغيانه وتجاوز حدود الحق ، ولم يرض بالله حكماً ، ولا برسوله تشريعاً ، وقد أمرنا جميعا أن نكفر به . إنهم يريدون التحاكم إليه ويريد الشيطان فى نفس الوقت أن يضلهم ضلالا بعيداً ، ومع ذلك فإن الله تعالى يدعوهم إليه ويرشدهم إلى الحق وهم مصرون على باطلهم ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً** ﴾ ، إنهم لا يكتفون بضلالهم ، إنما يصدون ويمنعون غيرهم عن حكم الله ورسوله ، فكيف حال هؤلاء إذا أصابتهم مصيبة بسبب ما قدمته أيديهم من العصيان والمخالفة ، فقتل منهم ذلك الذى أراد أن يتحاكم إلى كعب بن الأشرف ، إنهم عند نزول المصائب سيأتونك

(١) الآية ٦٥ من سورة النساء .
(٢) الآيات ٤٧ - ٥٠ من سورة النور .
(٣) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة النور .
(٤) الآية ٢٢ من سورة الأحزاب .
(٥) أخرجه البخارى فى الإيمان رقم (١٨) .

يحلفون الأيمان الكاذبة ، ويقولون إنهم ما أرادوا إلا إحسانا وتوفيقا ، وأى إحسان وأى توفيق فى الإعراض عن حكم الله ورسوله ، والذهاب إلى غيره من الطواغيت ، يقولون له رضينا بك حكما ، هل غفل هؤلاء أن الله يعلم ما فى قلوبهم ؟ .

فما موقفك أنت يا محمد ؟ أعرض عنهم ، فإنهم حيات وعقارب تلدغ وهى ناعمة الملمس ، والمنافقون فى كل زمان ومكان عالة على المجتمع فى السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة فى الضراء ، ومع إعراضك عن ألاعيبهم عظهم لتقطع المعاذير عليهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولاً يبلغ قرار قلوبهم ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما ﴾[1] .

وللمنافقين فى القرآن مشاهد يندى لها جبين الحياء خجلاً : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[2] ثم يأتى الحكم عليهم فى قوله جل شأنه : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾[3] ثم يأتى نور الأمل فى رحمة الله لمن تاب وأتاب ، فيقول تبارك وتعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتِ الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾[4] .

طاعة الرسول

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

المفردات : **إذن الله** : إعلامه الذى نطق به وحيه وطرق آذانكم ، كقوله : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . **استغفروا الله** : أى طلبوا مغفرته وندموا على ما فعلوا . **واستغفر لهم الرسول** : أى دعا الله أن يغفر لهم . **يحكموك** : يجعلوك حكماً ويفوضون الأمر إليك . **وشجر** : اختلف واختلط الأمر فيه ، مأخوذ من التفاف الشجر فإن الشجر تتداخل بعض أغصانه فى بعض . **حرجاً** : ضيقاً . **قضيت** : حكمت . **التسليم** : الانقياد والإذعان .

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٢) الآيتان ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة النساء .
(٣) الآية ١٤٥ من سورة النساء .
(٤) الآية ١٤٦ من سورة النساء .

يخبر الله سبحانه وتعالى بأنه ما أرسل رسولاً إلا وجبت طاعته على من أرسله إليهم ، فإذا ما كان ذلك كذلك فقد حرم عليهم أن يخالفوه لأنه مبلغ عن الله تعالى ، فطاعته من طاعة الله ، وذلك كله بإذن الله وقدرته ومشيئته وتوفيقه ، وقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التى تحدثت عن مواقف المنافقين ، وكيف لم يرضوا برسول الله حكما ، وهو الذى ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، فما كان ينبغى لهؤلاء المنافقين أن يخالفوا لرسول الله أمراً ، أو يعصوا له حكماً ، لأن الله تعالى أوجب طاعته على قومه ، ومع ذلك فإنه سبحانه لا يقنط أحدا من رحمته ، فلو أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالذنوب والمخالفات جاءوك يا محمد فطلبوا من الله المغفرة ، واستغفرت لهم ، فإن رحمة الله لن تضيق بهم ، لأنه التواب الرحيم ، عظيم التوبة واسع الرحمة من شأنه المغفرة .

أنت الذى تهب الكثير ... وتجبر القلب الكسير وتغفر الذلات

وتقول هل من تائب مستغفر ... أو سائل أقضى له الحاجات

وقد ذكر جماعة ، منهم الشيخ منصور الصباغ فى كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبى قال : كنت جالساً عند قبر النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ ، وقد جئتك مستغفرا لذنبى مستشفعاً بك إلى ربى . ثم أنشد يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظُمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبرٍ أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابى ، فغلبتنى عينى فرأيت النبى ﷺ فى منامى فقال : (يا عتبى ، ألحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له) .

قوله تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ . روى الإمام البخارى بإسناده عن عروة قال : خاصم الزبير رجلاً فى شجار الحرة فقال النبى ﷺ : (اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك) فقال الأنصارى : يا رسول الله إن كان ابن عمتك ؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال : (اسق يا زبير ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجُدُر ثم أرسل الماء إلى جارك)(1) ، فاستوعى النبى ﷺ للزبير حقه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصارى وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ الآية .

---

(1) أخرجه البخارى فى المساقاة (٦ - ٨) وفى الصلح (١٢) وفى تفسير سورة (٤) رقم (١٢) . وأخرجه أبو داود فى الأقضية (٣١) . والترمذى فى تفسير سورة (٤) رقم (١٣) . والنسائى فى القضاة (١٩ ، ٢٧) . وابن ماجه فى المقدمة (٢) وفى الرهون (٢٠) . والإمام أحمد فى (١) رقم (١٦٥) وفى (٤) رقم (٥) .

وهذه الآية الكريمة يقسم فيها سبحانه بذاته ـ وهو رب كل شىء ومليكه ـ على أن إيمان هؤلاء موقوف على ثلاثة أشياء :

١ - أن يحكموك فيما شجر بينهم من خصومة ونزاع .
٢ - ألا يكون فى أنفسهم ضيق ولا حرج من قضائك .
٣ - أن يُسلِّموا ويفوّضوا ويذعنوا من غير أن يكون فى النفوس أدنى اعتراض . قال ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) .

وفى هذه الآية دليل على عصمة النبى ﷺ ، وأنه لا يقضى إلا بالحق ، ولا ينطق عن الهوى . كما أن فيها دليلاً على أن دلائل الإيمان الحق فى الرضا بحكمه ، وسلامة الصدور من الضيق ، والتسليم الكامل الذى لا يشوبه اعتراض أو ضجر .

إمتحان ونتائج

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)

المفردات : **كتبنا** : أى فرضنا ، **ما يوعظون به** : أى من الأوامر والنواهى المقرونة بذكر حكمها وأحكامها ، والوعد لمن عمل بها والوعيد لمن صدّ عنها ، **والتثبيت** : التقوية وجعل الشىء ثابتاً راسخاً .

الإيمان الحق طاعة وتسليم وإذعان ، فإذا ما أمر الله أو نهى فالمؤمن يمتثل الأمر ويجتنب النهى أياً كان المأمور به والمنهى عنه ، وقد أخبر الله جل شأنه فى هذه الآيات أن هناك نوعاً من البشر لم تسلم قلوبهم ولم تتمكن بشاشة الإيمان من شغاف أفئدتهم ، يدل على ذلك أن الله لو أمرهم أن يقتلوا أنفسهم أو يهاجر أحدهم من داره إلى بلد آخر ما فعل ذلك إلا القليل منهم ، فإنهم يحرصون على الحياة والإقامة فى دورهم ، ولو علموا جزاء الامتثال لأمر الله ، وفعلوا ما يعظهم الله به لكان ذلك خيراً لهم وأعظم تمكيناً ، ولكان لهم عند الله الأجر العظيم ، والمثوبة الكبرى ، وحسبهم أن الله تبارك وتعالى سينعم عليهم بنعمة الهداية إلى الصراط المستقيم ، والهداية توفيق وإرشاد وتوجيه قويم وسداد وفضل من الله وإنعام ورفعة منه وإكرام ، قال تعالى : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾[1] .

---

(١) الآية ١٧ من سورة الكهف .

طاعة الله والرسول

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

المفردات : الصدّيق : من غلب عليه الصدق ، وقيل من صدق فى قوله واعتقاده كما قال : ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صدّيقا نبيا ﴾[1] ، **والشهيد** : هو الذى يشهد بصحة الدين تارة بالحجة والبرهان ، وأخرى بالسيف والسِّنان ، **والصالح** : من صلحت نفسه وصلح عمله ، وغلبت حسناته سيئاته .

قالت عائشة رضى الله عنها : «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله : إنك لأحب إلى من نفسى وأحب إلىّ من أهلى وأحب إلى من ولدى ، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ، فلم يرد عليه النبى ﷺ حتى نزلت عليه : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً** ﴾ .

وعن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ يقول : (ما من نبى يمرض إلا خُير بين الدنيا والآخرة) ، وكان فى شكواه التى قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعته يقول : ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** ﴾ فعلمت أنه خير .

وقال ابن جرير : حدثنا المثنى حدثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع قوله : ﴿ **ومن يطع الله والرسول** ﴾ الآية قال : إن أصحاب النبى ﷺ قالوا : قد علمنا أن النبى ﷺ له فضل على من آمن به فى درجات الجنة ممن اتبعه وصدقه ، وكيف لهم إذا اجتمعوا فى الجنة أن يرى بعضهم بعضاً ، فأنزله الله . فى ذلك يعنى هذه الآية فقال – يعنى رسول الله ﷺ – (إن الأعلين ينحدرون إلى من هو أسفل منهم فيجتمعون فى رياض فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به فهم فى روضة يحبرون ويتنعمون فيه) .

ما أعظم نعمة الله على الذين يطيعون الله ورسوله ، وطاعة الله ورسوله تتمثل فى اتباع الكتاب والسنة . قال سبحانه وتعالى : ﴿ الذين إن مكّناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف

---

(١) الآية ٥٦ من سورة مريم .

ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[١] . وما من أمة تسير على نهج الله ورسوله إلا كان السعد رائدها ، والنصر حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾[٢] .

وما من أمة تنحرف عن هذا المنهج الكريم إلا كان الذل رائدها ، والانحطاط سبيلها ، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[٣] .

فما جزاء الذين يطيعون الله فى الدنيا والآخرة ؟ إنهم مع النبيين فى جوار الله فى الجنة ومع الصدّيقين والشهداء والصالحين ، ونعم الجوار جوارهم ، ونعم الرفيق هذا ، ونعم الفضل ذلك ، لأنه من الله العليم الذى علم ما فى الصدور ، وما فى النفوس ، بل إنه يعلم السر وأخفى من السر .

فى حديث قدسى صحيح يقول الله تعالى : (من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولسانه الذى يتكلم به ، وقلبه الذى يعى به ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استنصرنى لأنصرنه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، ويكون جارى فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)[٤] .

فاللهم إنا نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحرور ، والهدى يوم الضلالة .

توجيه وبيان

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

(١) الآية ٤١ من سورة الحج .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة طه .
(٣) الآيات ١٢٤ - ١٢٦ من سورة طه .
(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق (٣٨) .

المفردات : **حِذركم** ، الحِذرْ والحَذَر : الاحتراس والاستعداد لاتّقاء شر العدو . **النَّفر** : الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء ، كالنزوع عن الشيء وإلى الشيء . ومن الأول : ﴿ ولقد صرَّفنا فى هذا القرآن ليذّكروا وما يزيدهم إلا نفوراً ﴾[1] ، ومن الثانى النفر إلى الحرب . **والثُّبات** : واحدها : ثُبة وهى الجماعة المنفردة . **والتبطؤ** : يطلق على الإبطاء وعلى الحمل على البطء . **والبطء** : التأخر عن الانبعاث فى السير ، **مصيبة** : كقتل وهزيمة ، **شهيدا** : أى حاضرا معهم . **فضل** : كفتح وغنيمة .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذْركم** ﴾ هذا بيان وإرشاد وتوجيه من الله تبارك اسمه إلى الأمة الإسلامية فى الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى ، وقد جاء ذلك بعد بيان الأحكام التى تتعلق ببناء المجتمع ، ببناء الفرد والأسرة ، وفى ذلك ، لتكون الأحكام شاملة كاملة ، والتوجيهات شافية كافية ، فالله سبحانه يبين لنا من الأحكام ما فيه سعادتنا وفوزنا ، فبعد حماية الجبهة الداخلية باتباع الأحكام التى تبنى المجتمع السليم ، يأمر سبحانه وتعالى بحماية الجبهة الداخلية من الأعداء ، وذلك بأخذ المسلمين حذرهم واحتراسهم ، وذلك بإعداد القوة ، وتوحيد الصف ، وتوضيح الهدف ، قال تعالى : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾[2] .

ويكون ذلك أيضاً ببذل المال فى سبيل الله ، وإعداد المقاتلين ، فمن جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزى ، قال سبحانه : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾[3] ، وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[4] .

والإسلام فى سياسته الخارجية يدعو إلى السلام إلا إذا اعتدى على أرض الإسلام معتد ، أو وطأت أقدام العدو أرض المسلمين ، هنا يجب التغير العام ، يقول تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[5] فإذا تباطأ المسلمون ألقى عليهم ربهم ذلك التحذير : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير ﴾[6] .

وما غُزِى قوم فى عقر دارهم إلا ضربت عليهم الذلة ، وأمة الإسلام أمة دعوة تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان ، ومن

---

(١) الآية ٤١ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة .
(٤) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف .
(٥) الآية ٤١ من سورة التوبة .
(٦) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة التوبة .

ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، فإذا وقف لهذه الدعوة بالمرصاد جبار عنيد ، أو شيطان مريد ، أو أفّاق أثيم ، وقاتل فى سبيل الصد والإضلال ، ومنع الناس عن الدخول فى هذا الدين ، وجب التصدى له ، ذلك لأن الإسلام ما استعمل السيف إلا للقضاء على السيف . قال تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[1] .

قالوا غزوتَ ورسل الله ما بُعثوا ... بقتل نفسى ولا جاءوا بسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

فالشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وإن تلقه بالسيف ينحسم

وقال آخر :

ووضع الندى فى موضع السيف بالفتى ... مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقال شوقى فى همزيته :

الحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء

وإذا غضبت فإنما هى غضبة ... للحق لاضغن ولا شحناء

وقد بيّن الله للمسلمين أن يأخذوا بأساليب القتال حتى لا يتمكن منهم عدو ، فيقول : ﴿ فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً ﴾ وذلك حسب ما يمليه عليكم واقع الميدان .

يقول الشيخ المراغى فى تفسيره لهذه الآيات : ﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حِذركم ﴾ أى احترسوا واستعدوا لاتّقاء شر العدو بأن تعرفوا حاله ومبلغ استعداده وقوته ، وإذا كان لكم أعداء كثير فاعرفوا ما بينهم من وفاق وخلاف ، واعرفوا الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا ، واعملوا بتلك الوسائل ، ويدخل فى ذلك معرفة حال العدو ومعرفة أرضه وبلاده وأسلحته واستعمالها ، وما يتوقف على ذلك من معرفة الهندسة والكيمياء وجر الأثقال ، وعلى الجملة اتخاذ أُهْبة الحرب المستعملة فيها ، من طيارات وقنابل ودبابات وبوارج مدرعة ومدافع مضادة للطائرات ، إلى نحو ذلك ، حتى لا يهاجمكم على غِرّة ، أو يهددكم فى دياركم ، وحتى لا يعارضكم فى إقامة دينكم أو دعوتكم إليه .

وقد كان النبى ﷺ والصحابة على علم بأرض عدوهم ، كما كان لهم عيون وجواسيس يأتونهم بالأخبار ، «قلم المخابرات» ولما أخبروه بنقض قريش للعهد «إخلالهم بشروط المعاهدة فى صلح الحديبية» استعد لفتح مكة ، و لم ينجح أبو سفيان فى تجديد العهد مرة أخرى ، وقد كان يظن أن المسلمين لم يعلموا بنكثهم له .

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

وقد قال أبو بكر لخالد بن الوليد فى حرب اليمامة : حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف ، والرمح بالرمح . وما رواه الحاكم عن عائشة : «لا يغنى حذر من قدر»[١] لا يناقض أخذ الحذر ، لأن الأمر بالحذر داخل فى القدر ، فالأمر به لندفع عنا شر الأعداء ، لا لندفع القدر ونبطله ، إذ القدر هو جريان الأمور بنظام تأتى فيه الأسباب على قدر المسببات ، والحذر من جملة الأسباب ، فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده .

﴿ **فانفروا ثُبات أو انفروا جميعا** ﴾ ، أى فانفروا جماعة فى إثر جماعة بأن تكونوا فصائل وفرقا ــ إذا كان الجيش كبيراً ، أو موقع العدو يستدعى ذلك ، أو تنفر الأمة كلها جميعا إذا اقتضت الحال ذلك بحسب قوة العدو .

والخلاصة : إنكم إما أن تنفروا جماعات جماعات ، وإما أن ينفر جميع المؤمنين على الإطلاق بحسب حال العدو .

وامتثال هذا الأمر يقتضى أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد ، بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب ويتمرن عليها وأن تقتنى السلاح الذى تحتاج إليه فى هذا النضال ، وتعلم كيفية استعماله فى كل زمان بما يناسبه . ومن هذا تعلم أن الحكومة الإسلامية يجب عليها أن تقيم هذا الواجب بنفسها ، لا أن تبقى عالة على غيرها ، وعلى الأمة أن تساعدها عليه ، بل تلزمها إياه إذا قصرت فيه بعكس ما نراه الآن من تراخى الأمم الإسلامية وضعفها وتوانيها فى ذلك ، حتى طمعت فيها كل الدول التى تجاورها ، واجتاحتها من أطرافها ، واجتثت كثيرا من كُورها وأقاليمها .

وقد شدد الدين أيما تشديد فى هذا الأمر فجاء مثل هذا فى قوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ ، وجاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى .

﴿ **وإن منكم لمن ليبطئن** ﴾ أى ليتثاقلن ويتأخرنَّ عن الجهاد والخطاب لجماعة المؤمنين بحسب الظاهر ، ومنهم المنافقون وضعفة الإيمان والجبناء ، فالمنافقون يرغبون عن الحرب لأنهم لا يحبون أن يبقى الإسلام وأهله ، ولا أن يدافعوا عنه ، ويحموا بيضته ، فهم يبطئون عن القتال ، ويبطئون غيرهم عن النفر إليه ، والجبناء وضعفة الإيمان يبطئون بأنفسهم عن القتال خورا وخوفا من صليل السيوف ومن الكر والفر ومقابلة العدو .

وهو شاكى السلاح . ثم فصل أحوال هؤلاء الضعفاء فقال : ﴿ **فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا** ﴾ ، أى قال ذلك المبطىء فرِحا بما فعل ، حامداً رأيه ، شاكرا ربه ، إذا أصابتكم المصيبة من قتل أو هزيمة إن الله قد أنعم علىّ بالقعود فلم أكن حاضرا معهم فيصيبنى مثل ما أصابهم من البلاء والشدة .

---

(١) وأخرجه الإمام أحمد فى (٥) رقم (٢٣٤) .

﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ ، أى ولئن منَّ الله عليكم بالظفر ، وفتح البلاد فغنمتم ، وأخذتم السبايا والأسرى ، ليقولن قول من ليس منكم ، ومن لم تجمعه مودة بكم ــ ليتنى كنت معهم فأفوز كما فازوا ــ فهو قد نسى ما يجب عليه من مد يد المعونة إليكم ، وبذل كل ما يمكنه من نفس أو مال ليتم ذلك الظفر ، ولكن ضعف إيمانه أو جبنه منعه عن هذا ، إذ هذا التمنى بعد فوات الفرصة دليل على ضعف العقل ، وكونه ممن يشرى الحياة الدنيا بالآخرة .

وفى قوله : ﴿ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ﴾ تقريع وتوبيخ بألطف القول وأرق العبارة ، إذ أن قليلا من المودة كان ينبغى أن يمنح مثل هذا التمنى ، وأن يعد هذا الإحجام نعمة ، فهذا يشعر بأن صاحبه لا يرى نعمة الله على المؤمنين نعمة وفضلا عليه ، ولا ما يصيبهم من جهد وبلاء كأنه يصيبه هو ، مع أن القرآن يصرّح بأن المؤمنين إخوة ، والحديث يدل على أنهم كأعضاء الجسم الواحد وكالبنيان يشد بعضه بعضا .

ومن فوائد هذا الأسلوب أنه يؤثر فى نفس سامعه تأثيرا لا يدنو من مثله الطعن بهجر القول ، إذ يدعو صاحبه إلى التأمل والتفكر فى حقيقة حاله ، ومعاتبة نفسه ، والتوبة إلى ربه ، والرجوع إلى أوامر دينه .

الترغيب فى الجهاد

* فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

المفردات : سبيل الله : هى تأييد الحق والانتصار له بإعلاء كلمة الدين ونشر دعوته ، ودفاع الأعداء إذا هددوا أمتنا ، أو أغاروا على أرضنا ، أو نهبوا أموالنا ، أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس .

ويشرون : أى يبيعون كما جاء فى قوله : ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾[(١)] وقوله : ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم ﴾[(٢)] وقوله : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾[(٣)] . **الطاغوت** : من الطغيان وهو مجاوزة الحق والعدل والخير إلى الباطل والشر . **والكيد** : السعى فى الفساد على وجه الحيلة .

بعد أن بين الله تعالى حال المعوِّقين والمثبِّطين والمبطِّئين عن القتال فى سبيله جل جلاله ، أمر سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين الذين يبيعون الحياة الدنيا وما فيها من عرض ومال وولد فى سبيل أن ينالوا ما عند الله فى الآخرة من نعيم مقيم ، فقال سبحانه : ﴿ **فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة** ﴾ ويشرى بمعنى يبيع من باب قوله جل شأنه ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ وقوله تبارك اسمه : ﴿ بئس ما شروا به أنفسهم ﴾ ، فالذين يشرون ويبيعون الدنيا الفانية الزائلة فى سبيل الآخرة الباقية يقول فيهم جل وعز : ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾[(٤)] .

وبيّن الله تعالى عاقبة المجاهدين بعد ذلك فقال : ﴿ **ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتَل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ ، وإنما قال فيقتل ولم يقل أو يغلب ، لأن المقاتل فى سبيل الله فائز دائما ، فإذا قتل فإنه ينال الشهادة ، وعندئذ لا يقال عنه قد غلب ، لأن الشهادة فوز ورفعه إلى أعلى الدرجات ، ألا ترى أن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ، وأنه يرى مقعده من الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعة من أهل بيته ويزود باثنتين وسبعين حورية ، ويلبسه الله تاج الوقار ، أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا والآخرة .

ثم يأتى هذا الاستفهام العجيب الذى فيه حث وحضٌ وتحريض على القتال فى سبيل الله ، فيقول سبحانه : ﴿ **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله** ﴾ أى لإعلاء كلمته والارتفاع بشأن دينه ، فتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا غرض من أشرف الأغراض وأنبلها ، كذلك من دوافع القتال حماية المستضعفين الذين بسط الجبابرة سطوتهم عليهم لتخرجوهم مما هم فيه من ذل وهوان ، إذ العزة لله ورسوله والمؤمنين .

ثم يبين سبحانه من هم المستضعفون ، فيقول : ﴿ من الرجال والنساء والولدان ﴾ ــ الذين ــ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون . سبيلا ويبين فى هذا المقام أن هؤلاء يلهجون بأكف الضراعة يسألونه سبحانه قائلين : ﴿ **ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا** ﴾ إن الظالم مهما طال فجره ، وامتد ليله ، لابد له من نهاية ، فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، والحرام

---

(١) الآية ٢٠ من سورة يوسف .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢٠٧ من سورة البقرة .
(٤) الآيات ٢٠ - ٢٢ من سورة التوبة .

لا يدوم وإذا دام لا ينفع ، وويل للظالم من يوم ما أطوله ، وخطب ما أهوله ، وجبار ما أعدله ، ويل له من يوم يقول الله فيه للمظلوم أيها المظلوم : تقدم ، ويقول للظالم : أيها الظالم لا تتكلم .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا   فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

يقول سبحانه فى الحديث القدسى الجليل : «اشتد غضبى على من ظلم من لم يجد له ناصرا غيرى ، واشتد غضبى على من وجد مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره»[1] وصلى الله وسلم على الصادق المعصوم إذ يقول : (من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الاسلام)[2] وإذ يقول : (إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم) ، (ان الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)[3] . اقرأوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[4] فيا أخا الإسلام :

احذر من المظلوم سهماً صائدا   واعلم بأن دعاءه لا يحجب
وإذا رُميت من الزمان بشدة   وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن   يدعوه من حبل الوريد وأقرب

وهذا غرض نبيل من أغراض مشروعية القتال فى الإسلام ، ليخرج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

ثم بين سبحانه أن الناس فريقان هما : حزب الرحمن ، وحزب الشيطان . فيقول جل جلاله : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ . والشهيد هو من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، لا لمغنم ولا لعرض ، ولا ليقال إنه شجاع ، والذين يقاتلون فى سبيل الطاغوت هم حزب الشيطان ، والطاغوت هو كل من تجاوز حدود الخير والحق والصدق ، والأصل فيه أنه طاغ ، وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى الطغيان ، وتجاوز الحد .

فيا حزب الله ويا جماعة الإسلام قاتلوا أولياء الشيطان وأعوانه ونصراءه وقرناءه ولا تهولنكم كثرة عددهم وعُددهم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، واعلموا ان حيل الشيطان ومكايده ومصايده ، وشراكه وشباكه ، كلها أوهام وخيال وأحلام ، أما القوة الحقيقية فكامنة فى الاعتماد على الله

---

(١) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط . (الترغيب والترهيب . ج ٣ . ص ١٤٧) .
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير ، وهو حديث غريب (الترغيب والترهيب . ج ٣ . ص ١٥٣) .
(٣) أخرجه البخارى فى التفسير سورة (١١) رقم (٣) . وأخرجه مسلم فى البر (٥) . والترمذى فى التفسير سورة (١١) رقم (٢) . وابن ماجه فى الفتن (٢٢) .
(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود .

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾[١] . إن القوة لله جميعاً ، ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾[٢] .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

أنت الـذى قـاد الجيـوش محـطماً	عهـد الضـلال وأدب السـفهـاء
وسمـوت بـالبشـر الـذين تعلمـوا	سنن الشريعة فـارتقـوا سعـداء

فلا نامت أعين الجبناء

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

المفردات : **﴿ كفّوا أيديكم ﴾** : أى عن القتال . **﴿ كُتب عليهم ﴾** : أى أمِرُوا به . **﴿ يخشون الناس ﴾** : أى يخافون أن يقتلهم المشركون . **﴿ كخشية الله ﴾** : أى كما يخافون أن ينزل عليهم بأسه وعذابه . **﴿ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾** : أى هلا تركتنا حتى نموت حتف أنوفنا بآجالنا القريبة . **﴿ متاع الدنيا ﴾** : ما يستمتعون به من لذاتها . **﴿ قليل ﴾** : أى سريع الزوال . **﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ﴾** : أى فى أى مكان كنتم يلحقكم الموت . (البروج المشيدة) : القصور العالية المطليه بالشيد وهو الجص أو الحصون والقلاع المتينة التى تعتصم فيها حامية الجند . **﴿ حسنة ﴾** : أى شيء يحسن عند صاحبه كالرضاء والخصب والظفر بالغنيمة . **﴿ سيئة ﴾** : هى ما تسوء صاحبها كالشدة والبأساء والضراء والهزيمة والجروح والقتل . **﴿ يفقهون حديثا ﴾** : يفهمون كلاما يوعظون به .

(١) الآية ٤١ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٤٨ من سورة الأنفال .

يقص الله تعالى علينا فى هذه الآيات حالة قوم كانت الحرب بينهم ضروساً قبل الإسلام وعلى أتفه الأسباب كانوا يشهرون سيوفهم وتظل الحرب بينهم سنين عددا ، فلما جاء الإسلام وأضاء نوره أمرهم الله تعالى أن يكفوا أيديهم عن إراقة الدماء ، لأن الدماء فى الإسلام غالية ، وأمرهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فالصلاة كهف المؤمن وتاركها ملعون ، وجاره إن رضى به ملعون ، وهى عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهي مفتاح الجنة ، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ، وكلما أذن المؤذن لها قالت الملائكة : يا بنى آدم قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فاطفئوها ، والمقصود بها نار الذنوب ، وإنما تطفأ نار الذنوب بماء الصلاة العذب الفرات السلسبيل ، وكما قال وليم وير لقد جاء محمد والعرب يشربون الخمر خمس مرات فى اليوم فلما صدر الأمر بتحريمها أراقوا كؤوسها فى الطرقات ، وأدوا الصلاة خمس مرات فى اليوم ، فإذا كانت الصلاة لتطهير النفوس ، فإن الأمر فى الزكاة لتطهير الأموال ، فكما قال النبى ﷺ : (لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء) ، وفى الزكاة تطهير للأموال كما أن فيها تطهيراً للقلوب من الغل والحقد والحسد والبغضاء ، قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم * ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وإن الله هو التواب الرحيم ﴾[1] . قال ﷺ (حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء)[2] ، وقال : (صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر ، وما منع قوم زكاة مالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا)[3] .

أمر الله هؤلاء كما أمر عباده بكف الأذى ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، لكن العجب العجيب لحال هؤلاء الذين كانوا يتقاتلون ويتناحرون قبل الإسلام فلما فرض الله عليهم القتال فى سبيله لإعلاء دينه ونصرة لا إله إلا الله ، إذ بفريق منهم يضعف ويجبن ، وقالوا : ﴿ ربنا لم كتبت علينا القتال ﴾ وفى هذه العبارة ما فيها من الاعتراض واللوم وحب الدنيا ﴿ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ أى هلا تركتنا حتى نأخذ متاعنا من الدنيا ، ونموت على فراشنا ، فيرد عليهم المولى تبارك اسمه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ . فالدنيا مهما أعطت وتزينت لأصحابها ، وأخذت زخرفها ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمر الله ليلاً أو نهاراً ، فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس وكم أذاقت أناساً أفاريق استحلوها ، ثم جمحت بهم طامحة ، ورمحتهم مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، ذلك لأنها إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ، وكم من قصور تبنى وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفعت له علامات ، فلما علا مات .

هى الدار ما الأنفاس إلا نهائب ... لديها وما الأجسام إلا عقائر

إذا أحسنت يوماً أساءت ضحى غدٍ ... فإحسانها سيف على الناس باتر

---

(١) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة التوبة .

(٢) رواه أبو داود فى المراسيل . ورواه الطبرانى والبيهقى مرفوعا . والمرسل أشبه (الترغيب والترهيب . ج ١ . ص ٢٦٤) .

(٣) رواه ابن ماجه ، والبزار ، والبيهقى من حديث ابن عمر . واللفظ لفظ البيهقى (الترغيب والترهيب . ج ١ . ص ٢٧٠) .

يرحم الله أبا بكر كان يقول : « احرص على الموت توهب لك الحياة» . وكم كان حزن خالد بن الوليد وهو على فراش الموت وهو يردد هذه الكلمات : «لقد خضت مائة معركة أو زهاءها ، وليس فى جسمى قيد شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم فى سبيل الله ، أموت على فراشى كالبعير وكنت أود أن أموت شهيداً فلا نامت أعين الجنباء» .

﴿ والآخرة خير لمن اتقى ﴾ . أما الدنيا فمثلها كسوق قامت ثم انفضت ، ربح فيها من ربح ، وخسر فيها من خسر .

تزود من حياتك للمعاد	وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيراً	فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم	لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم يقول تعالى : ﴿ ولا تظلمون فتيلاً ﴾ . نعم الآخرة عند ربك للمتقين ، وعدالة الله تشمل الجميع ، وتعم الأولين والآخرين ، فلا ظلم ولو بمقدار ذلك الخيط الذى فى شق نواة البلح ، ويسمى فتيلا ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾[(١)] ، وقال جل ذكره : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[(٢)] . وقال تبارك اسمه : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير ﴾[(٣)] . ولقد رد الله تعالى بأعظم رد وأقوى حجة على هؤلاء الجبناء الذين ﴿ قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ فقال : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾[(٤)] فمن أراد مؤنساً فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، ومن لم يكفِه شىء من هذا فإن النار تكفيه .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته	يوماً على آلة حدباء منقول
فإذا حملت إلى القبور جنازة	فاعلم بأنك بعدها محمول

فاعلم أن الموت آتيك ولو سكنت البروج المشيدة فى شواهق الجبال ، ولو أقمت فى الحصون المنيعة فى جو السماء ، مهما كنت وأينما وجدت فأنت فى ملك الله ، وهذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، أو تطرف فيه طرفة عين ، أو يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذن من لا يغفل ولا ينام ، الوجود ملكه ، والقضاء

---

(١) الآية ١٧ من سورة غافر .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٣) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة غافر .
(٤) الآية ٨ من سورة الجمعة .

حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين * وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾[1] . قال جبريل للصادق المعصوم ﷺ : (يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه) .

واعلم بأن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس ، لا خير فى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب وحرامها عقاب . نعم ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ وميت اليوم يشيعه ميت الغد .

فاعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها ، واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها ، الموت نوم أكبر ، والنوم موت أصغر ، فتجربة الموت تمر بنا كل ليلة .

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

ومما سجله القرآن على ضعفاء الإيمان ، ما حكاه الله تعالى فى قوله : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ .

هؤلاء الناس عندهم ضعف ومرض فى قلوبهم ، إن كانوا فى سعة من الرزق وعافية فى أبدانهم نسبوا ذلك إلى الله ، فإن أصابتهم شدة من فاقة أو مرض نسبوا ذلك إلى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وتشاءموا به ، كما حدث ذلك لكليم الله موسى ، قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطّيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[2] والطِّيَرَة هى التشاؤم ، وهى شرك بالله ، فإذا تطاير أحدكم فلا يرجع ، قال الرسل لقومهم : ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسّنكم منا عذاب أليم ﴾[3] .

وقد جاء الرد صريحا من الله جل فى علاه إذ يقول : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ إذ الله خالق كل شىء ﴿ فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ ما لهم لا يفهمون ، وما لهم فى بعد عن الإدراك ، وما

---

(١) الآيات ٥٩ - ٦٢ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان ١٣٠ ، ١٣١ من سورة الأعراف .

(٣) الآيات ١٦ - ١٨ من سورة يس .

لقلوبهم فى أكنة ، وفى آذانهم وقر ، ومن بينهم وبين الهدى حجاب ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله** ﴾ ، أى بتوفيقه وإرشاده وفضله ﴿ **وما أصابك** ﴾ أيها المخاطب ﴿ **من سيئة فمن نفسك** ﴾ كسباً واختياراً . أما أنت أيها الرسول الكريم ، فما عليك إلا البلاغ ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾[1] ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾[2] .

وعزتى وجلالى لو سلكوا إلىّ كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد .

طاعة الرسول من طاعة الله

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

جاء فى سبب نزل هذه الآية : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ روى مقاتل أن النبى ﷺ كان يقول : (من أحبنى فقد أحب الله ومن أطاعنى فقد أطاع الله ، فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل ؟ لقد قارف الشرك قد نهى أن نعبد غير الله ، ويريد أن نتخذه ربا ، كما اتخذت النصارى عيسى فأنزل الله هذه الآية) .

نعم إن طاعة الرسول من طاعة الله ، لأنه مبلّغ عنه جل فى علاه ، والآمر الناهى فى الحقيقة هو الله ، وقد جرت سنته سبحانه وتعالى أن يوحى إلى أنبيائه ورسله بما يأمر وينهى ، قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[3] .

---

(١) الآية ٧٩ من سورة النساء .
(٢) الآية ١٦٦ من سورة النساء .
(٣) الآيات ١٦٣ - ١٦٥ من سورة النساء .

وإذا كانت طاعة الرسول من طاعة الله فإن اتباعه من محبة الله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفوررحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[١] ، كذلك رضاه من رضا الله قال تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾[٢] ، كذلك الاستجابة له من الاستجابة لله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[٣] . وسوف يندم العصاة وهم فى جهنم على عدم طاعتهم لله ورسوله : ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾[٤] .

وقد حذر الله من مغبة مخالفة رسوله الكريم قال تعالى : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾[٥] ، ثم قال : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[٦] . فطاعة الرسول ﷺ واجبة ، وعصيانه ضلال مبين ، وليس فى طاعته شىء مما ادعى المنافقون من أنها كما ذهب النصارى فى المسيح ابن مريم ، فالطاعة غير العبادة : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلاهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٧] .

أما اليهود والنصارى فقد قال الله فى شأنهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[٨] .

قال أهل الحق من علماء العقائد :

فالمؤمن الحق لا يكون خاضعاً إلا لخالقه وحده دون أحد من خلقه ، والخروج عن ذلك شرك وهو نوعان :

١ - أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية ، ومن ثم ترجو نفعها ، وتخاف ضرها ، وتدعوها وتذل لها . وذلك هو الشرك فى الألوهية .

٢ - أن ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحريم ، كما فسر النبى ﷺ قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ بطاعتهم فيما يحللون ويحرمون ، وذلك هو الشرك فى الربوبية ، ذاك أن المؤمن يجب أن يكون أعز الناس نفساً ، وأعظمهم كرامة ، فلا يرضى أن يستعبده سلطان ظالم ، ولا حاكم مستعبد ، إذ هو يعلم علم اليقين أن الكل عبيد مسخرون لله تعالى ، يخضعون لأمره ، وأن ذلك منتهى سعادتهم فى الدارين .

---

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٦٢ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٢٤ من سورة الأنفال .
(٤) الآية ٦٦ من سورة الأحزاب .
(٥) الآية ٦٣ من سورة النور .
(٦) الآية ٦٣ من سورة النور .
(٧) الآية ١١٠ من سورة الكهف .
(٨) الآية ٣١ من سورة التوبة .

﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ ، أى ومن أعرض عن طاعتك التى هى طاعة الله فليس لك أن تكرهه عليها ، لأنك ما أرسلت إلا مبشراً ونذيراً ، ولم ترسل مسيطراً أو رقيباً ، تحفظ على الناس أفعالهم وأقوالهم ، فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار بعد الإقناع والاختبار .

﴿ ويقولون طاعة ﴾ ، أى ويقول ذلك الفريق الذين أخبر الله عنهم أنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، إذا أمرهم النبى ﷺ بأمر : أمرك طاعة ـ أى أمرك مطاع إظهاراً لكمال الانقياد والخضوع ، ﴿ فإذا برزوا من عندك بيَّت طائفة منهم غير الذى تقول ﴾ . البراز ـ بفتح الباء ـ الأرض الفضاء ، والتبييت وما يدبر فى الليل من رأى ونية ، وعزم على عمل ، ومنه تبييت العدو للإيقاع به ليلا ، أى إذا خرجوا من المكان الذى يكونون معك فيه إلى البراز وهم منصرفون إلى بيوتهم دبر جماعة منهم ليلا غير الذى قالوا لك . وأظهروه من الطاعة نهاراً .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : «هم ناس يقولون عند رسول الله ﷺ : آمنا بالله ورسوله ليأمنوا على دمائهم وأموالهم وإذا برزوا من عند رسول الله ﷺ خالفوا إلى غير ما قالوا عنده فعاتبهم الله على ذلك» .

﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ ، أى يبينه لك فى كتابه ويفضحهم بمثل هذه الآيات وفى هذا من التهديد شىء كثير .

﴿ فأعرض عنهم ﴾ ولا تهتم بما يبيتون ولا تؤاخذهم بما أسروا ولم يعلنوا ﴿ وتوكل على الله ﴾ أى فوِّض الأمر إليه وثق به فى جميع أمورك ،فإن الله يكفيك شرهم وينتقم لك منهم ، ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ لمن توكل عليه ، فهو قادر على إيقاع الجزاء بهم ، وعليم بمقدار ما يستحقون منه لا يعجزه منه شىء .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ . أصل التدبر التأمل فى أدبار الأمور وعواقبها ، ثم استعمل فى كل تأمل سواء كان نظرا فى حقيقة الشىء وأجزائه أو سوابقه وأسبابه أو لواحقه وأعقابه ، وتدبر الكلام هو النظر والتفكر فى غاياته ومقاصده التى يرمى إليها ، وعاقبة من يعمل به ومن يخالفه . أى أجَهِلَ هؤلاء القوم حقيقة الرسالة ، وكنة هذه الهداية فلا يتدبرون القرآن الذى يدل على حقيقتها ؟ ولو تدبروه لعرفوا أنه الحق من ربهم ، وأن ما وعد به المتقين الصادقين وما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع لا محالة ، فهو إذ صدق فى الإخبار عما يبيتون فى أنفسهم من القول يصدق كذلك فيما أخبر عن سوء مصيرهم والوبال ، والنكال فى عاقبتهم .

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ، أى من بشر أو ملك أو جن ، أو من أى مخلوق لا من عند الله الذى أرسله به لوجدوا فيه اختلافا كثيراً لأسباب كثيرة :

١ - أن أى مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كماصورها القرآن بلا اختلاف ولا تفاوت فى شىء منها .

٢ - أنه حكى عن الماضى الذى لم يشهده أحد منهم ولم يقف على تاريخه ، وعن الآتى فوقع كما أنبأ

به ، وعن الحاضر فأخبر عن خبايا الأنفس ومكنونات الضمائر ، كما أخبر عما بيتته هذه الطائفة مخالفاً لما تقول للرسول أو ما يقوله لها ، فتقبله فى حضرته وترفضه فى غيبته .

٣ - أن أحداً لا يستطيع أن يأتى بمثله فى بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع وسياسة الشعوب والقبائل مع عدم الاختلاف والتفاوت فى شىء من ذلك .

٤ - أن أحداً لا يستطيع أن يأتى بمثله فى سنن الاجتماع ، ونواميس العمران ، وطبائع الملل والأقوام ، مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال ، وتكرار القصة الواحدة بالعبارات البليغة ، تنويعاً للعبرة وتلويناً للموعظة ، واتفاق كل ذلك وتواطئه على الصدق وبراءته من الاختلاف والتناقض .

٥ - أن أحداً لا يستطيع أن يأتى بمثله فيما جاء به من فنون القول وألوان العبر فى أنواع المخلوقات فى الأرض أو فى السموات ، فقد تكلم على الخلق والتكوين ، ووصف جميع الكائنات كالكواكب ونظامها ، والرياح والبحار والحيوان والنبات وما فيها من الحكم والآيات ، وكان فى كل ذلك يؤيد بعضه بعضا ، لاتفاوت فيه ولا اختلاف بين معانيه .

٦ - أنه أخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة ، وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل ، وكان فى كل ذلك جاريا على سنة الله تعالى فى تأثير الأعمال الاختيارية فى الأرواح ، مع الالتئام بين آيات كثيرة وهو غاية الغايات فى ذلك ، عند من أوتى الحكمة وفصل الخطاب .

هذا إلى أنه نزل منجّماً بحسب الوقائع والأحوال ، وكان النبى ﷺ عند نزول الآية أو الآيات يأمر بأن توضع فى محلها من سورة كذا ، وهو يحفظه حفظاً ، وقد جرت العادة بأن من يأتى بكلام من عنده فى مناسبات مختلفة لا يتذكر جميع ما سبق له فى السنين الطوال ، ولا يستحضره ، حتى يجعل الآخر موافقا للأول ، مع أن بعض الآيات كان ينزل فى أيام المحن والكروب ، وبعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام ، إلا أن كر الغداة ومر العشى لا يزيده إلا جدة ، ولا يزيد أحكامه إلا ثباتا ورسوخاً ، وكلما اتسعت دائرة العلوم والمعارف ، ونمت أحوال العمران ، زاد إيمان الناس به ، إذ تتوثق روابط الصلة بين الدين والعلم ، وتتظاهر أحكامه مع نواميس الاجتماع وشئون الكون .

والخلاصة : أن تدبر القرآن وتأمل ما امتاز به هو طريق الهداية القويم ، وصراط الحق المستقيم ، فإنه يرشد إلى كونه من عند الله ، وإلى وجوب الاهتداء به ، وإلى أنه معقول فى نفسه ، موافق للفطرة ، ملائم للمصلحة ، وفيه سعادة الخلق فى الدنيا والآخرة ، ولو تدبر المسلمون القرآن واهتدوا به فى كل زمان لما فسدت إخلاقهم وآدابهم ، ولما ظلم واستبد حكامهم ، ولما زال ملكهم وسلطانهم ، ولما صاروا عالة فى معايشهم على سواهم . وهذا التدبر لا يمنع أن يستنبط أولو الأمر الأحكام العامة فى السياسة والقضاء والإدارة وتتبعهم فيها سائر الأمة .

من قبائح المنافقين

وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

المفردات : أذاع الشىء وأذاع به : نشره وأشاعه بين النـاس . ورد الشىء : أرجعه وأعـاده . والاستنباط : استخراج ما كان مستتراً عن الأبصار . فضل الله : هو هدايتكم بطاعة الرسول . إلا قليلا : أى قليلاً منكم ممن أوتوا صفاء الفطرة وسلامتها .

هذا توجيه إلهى وإرشاد ربانى يتعلق بأسرار الأمة فى السلم والحرب والأمن والخوف ، وهذا التوجيه يدعو الأفراد أن لا يذيعوا ما أمر الله برده إلى الرسول ﷺ فى حياته ، وإلى العلماء المتخصصين بعد وفاته ، إذ فى إذاعته ونشره أضرار تعود على المجتمع الإسلامى ، فإذا ما ردوه إلى أهل الحل والعقد ، وإلى أهل المشورة والمجالس المتخصصة ، والذين عناهم القرآن الكريم فى قوله تعـالى : ﴿ **أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ وخلاف الجميل إذاعة الأسرار ، خاصة ما يتعلق منها بالشئون العسكرية والأمن ، ثم يختم الله تبارك اسمه بقوله : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً** ﴾ ، أى لولا فضله عليكم ببيان الأحكام والإرشاد إلى طريق النجاة ، ولولا رحمته بكم فى الشدائد والمحن ، وأنه جل فى علاه يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، لولا ذلك لسلكتم طرق الشياطين فسلكوا بكم إلى الهاوية ، وما أدراك ما هى ، نار حامية ، لولا ذلك لترديتم إلى الدرك الأسفل ، وانحدرتم إلى حضيض الضبراء ، ولا عاصم لكم من أمر الله إلا من رحم ، وما نجا من ذلك منكم إلا القليل الذى امتلأ قلبه نورا وهدى وضياء .

وحرض المؤمنين

فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

المفردات : **التحريض** : الحث على الشىء بتزيينه وتسهيل الأمر فيه . **والبأس** : القوة ، وكان بأس الكافرين متجها إلى إذلال المؤمنين لإيمانهم . **والتنكيل** : معاقبة المجرم بما يكون فيه عبرة ونكال لغيره بحيث يمنعه أن يفعل مثل فعله .

خطاب من الله تبارك اسمه لرسوله الكريم ، يحثه فيه على قتال الجاحدين المنكرين ، فكل فعل فى سبيل الله وابتغاء مرضاته له عند الله مكانة عظمى ، فلا يكن فى صدرك حرج مما قاله المنافقون ، عندما أمرهم الله بالقتال : ﴿ قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وحرض المؤمنين على القتال ، كما أمرك الله فى قوله : ﴿ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾[1] . وأعلم أنك لست مسئولا عن أفعال هؤلاء ، فإنك لا تكلف إلا نفسك .

وفى هذه الآية إشارة إلى شجاعة الرسول الكريم ، ومدى إقدامه فى حومات الوغى وساحات القتال ، لقد وقف يوم حنين فى جموع المشركين تحيط به قلة من المؤمنين ينادى بأعلى صوته : (أنا النبى لاكذب أنا ابن عبد المطلب) . سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا داعيا للواحد الديان ... يا هازما للبغى والطغيان
يا رافعاً صوت العدالة عالياً ... ومؤذنا فى الناس بالقرآن

وكما قالوا : إن القتل أنفى للقتل ، فإن الحرب أنفى للحرب ، وما استعمل الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف ، والإسلام لا يعرف السلم الأعزل ، إنما السلم فى الإسلام سلم مسلح . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾[2] ، وقال ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ ، يفيد الوعد فى قوله ﴿ عسى ﴾ والله لا يخلف الوعد ، فيكون هذا أمراً حقاً ووعدا صدقاً . والبأس : المراد به القوة التى كان الكافرون يصدون بها من آمن ، ويريدون أن يذلوا بها جماعة المسلمين ، والله أشد بأساً . وقوة . قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[4] والله أشد تنكيلاً وعقوبة رادعة ، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ ﴿ يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾[5] .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .
(٤) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٦٤ من سورة الأنفال .

الشفاعة نوعان

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

المفردات : قال الراغب : **الشفع** : ضم الشيء إلى مثله ، **والشفاعة** : الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه ، **نصيب** : حظ ، **كفل** : نصيب ، **مقيتا** : أى مقتدرا أو حافظاً أو شاهدا . قال الراغب : وحقيقته قائماً عليه يحفظه ويعينه ، فهو مأخوذ من القوت ، وهو ما يمسك الرمق من الرزق ، وتحفظ به الحياة ، يقال قاته يقوته إذا أطعمه قوته ، وأقاته يقيته إذا جعل له ما يقوّته ، **والتحية** : مصدر حياهُ إذا قال له حياك الله ، وهى الأصل الدعاء بالحياة ثم صار اسما لكل دعاء وثناء كقولهم : أنعم صباحاً ، وأنعم مساء ، وعم صباحاً وعم مساء . وجعل الشارع تحية المسلمين «السلام عليكم» إشارة إلى أن الدين دين سلام وأمان . **الحسيب** : المحاسب على العمل كالجليس بمعنى المجالس وقد يراد به المكافىء والكافى من قولهم : حسبك كذا إذا كان يكفيك .

بعد أن أمر الله تعالى رسوله بقتال أعداء الله ، وأمره بتحريض المؤمنين على القتال ووعده برد كيد الخائنين ، وأخبره بأنه تعالى أشد بأسا وأشد تنكيلا ، بين بعد ذلك خطر الشفاعة ، وأنها مسئولية يتحمل الإنسان الشافع عاقبتها إن خيرا أو شرا ، فإذا كانت الشفاعة حسنة بأن كانت لنصرة مظلوم ، أو تقوية الحق بضم رأى الإنسان إلى غيره ، فللشافع نصيب من الحسنات ، لأن من دلَّ على الخير فهو كفاعله ، ومن شفع لمظلوم فقد أغاثه من ظلم وقع عليه ، وإغاثة المظلوم موقف نبيل .

وقد اشتد غضب الله على من وجد مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره ، كذلك اشتد غضبه تعالى على من ظلم من لم يجد له ناصرا إلا الله . فمن ضم رأيه إلى رأى المشفوع عنده ، انقاذاً للمشفوع له فى الحق ودفع الظلم فسوف يؤتيه الله من لدنه أجراً عظيماً ، لأن شفاعته حسنة .

أما من شفع شفاعة سيئة ، بأن حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد حادَّ الله ورسوله ، وضادّ أحكام الله فى العدالة والله سبحانه وتعالى عند ما يقرر أن من يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها فذلك لما يترتب على الشفاعة السيئة من ضياع الحقوق ، ووضع الأمور فى غير نصابها ، والنقاط على غير حروفها ، وتسمية الأشياء بغير أسمائها ، ووضع الرجل المناسب فى المكان اللا مناسب وذلك بالشفاعة السيئة مما يثبط

همة أصحاب الهمم ، ويقوض حوافز المجتهدين ، لأن فى ذلك ظلما مبينا ، والظلم مرتعه وخيم . والله تعالى ينادى فى حديثه القدسى الجليل فيقول : (يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)[١] .

وكم كان غضب رسول الله ﷺ شديدا عندما جاءه الحِب بن الحِب أسامة بن زيد يشفع لامرأة سرقت وكانت من شريفات قومها . هنا يحسم الرسول ﷺ الموقف بكلمات موجزة المبنى عظيمة المعنى : (أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة) ؟ ثم يبين الخطر المترتب على الشفاعة إذا كانت فى غير حق فيقول : (إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه . وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)[٢] .

هذا منطق العدالة فى الإسلام ، والعدل فى الإسلام لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، ويوم يخطئ ميزان العدل فسوف يخطىء الحساب فيأتى بأوخم العواقب وكم من أناس اعتمدوا على مالهم من محسوبية ووجاهة ووساطة ، فكانوا غير أكفاء . وتبوءوا مقاعد فى شواهق الجبال ، فكانوا عالة على الأمة فى السراء وسواساً ينخر فى نظام المجتمع ساعة الضراء . وخسرت الأمة بسببهم خسرانا مبينا .

فمن هنا أمر الله المؤمنين بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[٣] وأخبرهم بقوله : ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾[٤] وبقوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[٥] وحثهم على الخير بقوله : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾[٦] ووعدهم بقوله : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾[٧] .

فلو أننا طبقنا تلك الأصول ما رأيت فى البيوت عاطلا ، ولا فى الطريق سائلا ، ولا فى السجون قاتلا ، ولمحت العدالة الشقاء من المجتمع كما يمحو نور الصبح مداد الظلام .

وقد صدق الرسول الكريم إذ يقول فى الشفاعة الحسنة : (اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء)[٨] .

قوله تعالى : ﴿ إن الله كان على كل شىء مقيتا ﴾ أى مقتدرا . فهو الذى يملك الثواب والعقاب وبيده

---

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) .
(٢) أخرجه البخارى فى فضائل أصحاب النبى (١٨) وفى الأنبياء (٥٤) وفى الحدود (١٢) . وأخرجه مسلم فى الحدود (٨ ، ٩) . وأخرجه أبو داود فى الحدود (٤) . والترمذى فى الحدود (٦) . والنسائى فى السارق (٥ ، ٦) ، وابن ماجه فى الحدود (٦) . والدارمى فى الحدود (٥) . والإمام أحمد فى (٣) ٣٨٦ ، ٣٩٥ . وفى (٥) ٤٠٩ . وفى (٦) ٣٢٩ .
(٣) الآية ١١٩ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٨١ من سورة يونس .
(٥) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٦) الآية ٧٧ من سورة الحج .
(٧) الآية ٩٦ من سورة الأعراف .
(٨) أخرجه البخارى فى الزكاة (٢١) وفى الأدب (٣٦ ، ٣٧) وفى التوحيد (٣١) . وأخرجه مسلم فى البر (١٤٥) . وأبو داود فى الأدب (١١٧) . والترمذى فى العلم (١٤) . والنسائى فى الزكاة (٦٥) . والإمام أحمد فى (٤) ٤٠٠ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ .

موازين القسط يثيب على الشفاعة الحسنة ، ويعاقب على الشفاعة السيئة ، وهو سبحانه إن يثب فبمحض الفضل وإن يعاقب فبمحض العدل ، ولا يظلم ربك أحدا .

وينتقل بنا النظم الكريم من أحكام الشفاعة إلى التحية فى الإسلام فيقول سبحانه : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ . والتحية فى الإسلام هى السلام ، والسلام ، كلمة طيبة الوقع على القلوب المؤمنة . ويكفى التحية شرفاً أن السلام اسم من أسماء الله الحسنى ، كما يكفيها شرفا أنها تحية الله إلى رسوله ومصطفاه «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته» ويكفيها شرفا أنها كانت الرد الكريم من رسول الله على ربه . «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ، والجنة دار السلام . قال تعالى : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾[٢] . قال جلّ شأنه : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾[١] . وتحية الملائكة لأهل الجنة : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾[٣] . وتحية الله لعباده المؤمنين يوم القيامة سلام : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾[٤] . والمتقون فى الجنة ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلا سلاما سلاما ﴾ . وليلة القدر ﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .

ولو علم المسلمون ما فى تحية الإسلام من حسنات ما عدلوا عنها إلى غيرها من تحيات الأجانب ، ولاعتزوا بتحية الإسلام . فالله تعالى يعطى على تلك التحية ثلاثين حسنة : السلام عليكم عشر حسنات ، ورحمة الله مثل ذلك ، وبركاته مثل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فحيوا بأحسن منها ﴾ أى زيدوا على من بدأ بها فتلك أحسن من التحية ، ﴿ أو ردوها ﴾ : أى قولوا مثلما قال البادئ بها فإن الرد مفروض ، والزيادة مندوب إليها ، قال سلمان الفارسى رضى الله عنه : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله فقال : (وعليك السلام ورحمة الله) ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يارسول الله ورحمته ، فقال له رسول الله ﷺ : (وعليك السلام ورحمة الله وبركاته) . ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : (وعليك) ، فقال له الرجل : يا نبى الله بأبى أنت وأمى أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على . فقال : (إنك لم تدع لنا شيئا قال الله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ فرددناها عليك) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابّوا أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم)[٥] . .

---

(١) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآيه ٧٥ من سورة يونس .
(٣) الآية ٢٤ من سورة الرعد .
(٤) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .
(٥) أخرجه مسلم فى الإيمان (٩٣ ، ٩٤) . وأبو داود فى الأدب (١٣١) . والترمذى فى الاستئذان (١) . وفى القيامة (٥٦) . وأخرجه ابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الأدب (١١) . وأخرجه الإمام أحمد فى (١) ١٦٥ ، ١٦٧ . وفى (٢) ٣٩١ ، ٤٤٢ ، ٤٧٧ ، ٤٩٥ ، ٥١٢ .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة المنورة واجتمع أهلها عليه قال لهم : (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)[١] . .

وقد نظم الرسول ﷺ إلقاء السلام بسنته بحيث يسلم القادم على من يقدم عليه ، وإذا تلاقى الرجلان يبدأ الكبير فى السن أو القدر بالسلام ، وقد جاء فى الصحيحين أنه : «يسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير»[٢] وروى : «أن النبى ﷺ مر بصبيان فسلم عليهم» . وروى الترمذى : «أنه مرَّ بنسوة فأومأ بيده بالتسليم»[٣] . وقد ورد فى الصحيحين قوله ﷺ : (إن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)[٤] وروى الحاكم قوله ﷺ : (أفشوا السلام تسلموا) .

دخلت جارية للحسين بن على رضى الله عنه . دخلت عليه وبيدها باقة من الريحان فأهدتها له تحية خالصة من قلبها فأعتقها الحسين . فقال له بعض أصحابه : أتعتقها من أجل شيء من الريحان ؟ فقال : إنما أعتقتها لأنها حيتنى والله تعالى يقول : ﴿ فحيوا بأحسن منها ﴾ ولم أجد أحسن من تحيتها إلا عتقها .

قوله تعالى : ﴿ إن الله كان على كل شيء حسيبا ﴾ أى يجزى كلا بعمله ويحاسب كلا حسب نيته وفعله . قال جل شأنه : ﴿ فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٥] . فمن ردَّ التحية بأحسن منها فله عند الله أجره ، ومن يفعل مثقال ذرة خيرا يره .

وبعد بيان الأحكام السابقة فيما مضى من الآيات ينتقل بنا النظم الكريم إلى حقيقة الحقائق ونور الأنوار ، إلى ضياء التوحيد والبعث قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا ﴾ . نعم . . إنها الحقيقة التى رفع الأنبياء لواءها . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٦] . فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال صلوات ربى وسلامه عليه : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله) .

سبحانك ربى :

ما فى الوجود سواك رب يعبد	كلا ولا مولى هناك فيُقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها	رهبا وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقر وتشهد

---

(١) أخرجه الترمذى فى الأطعمة (٤٥) وفى القيامة (٤٢) . وأخرجه ابن ماجه فى الأطعمة (١) وفى الإقامة (١٧٤) . وأخرجه الدارمى فى الأطعمة (٣٩) وفى الصلاة (١٥٦) وفى الاستئذان (٤) . وأخرجه الإمام أحمد فى (٢) ١٥٦ ، ١٧٠ ، ١٩٦ . وفى (٥) ٤٥١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الاستئذان (٥ ، ٦) . ومسلم فى الأدب (٤٦) . وأبو داود فى الأستئذان (٦) . والترمذى فى الاستئذان (١٤) . والإمام مالك فى السلام (١) . والإمام أحمد فى (٣) ٤٤٤ . وفى (٦) ١٩ ، ٢٠ .

(٣) أخرجه الدارمى فى الاستئذان (٦) .

(٤) أخرجه البخارى فى الاستئذان (٩) . ومسلم فى الإيمان (٦٣ ، ٦٥) . وأبو داود فى الأدب (١٣١) . والنسائى فى الإيمان (١١ ، ١٢) وابن ماجه فى الأطعمة (١) والدارمى فى الرقاق (٤) . والإمام أحمد فى (٣) ٣٧٢ .

(٥) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

إنك إن سألت العالم كله من سمائه إلى أرضه ومن عرشه إلى فرشه وقلت له : من خالقك ؟ لأجابك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديَّان . والدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر . وميت اليوم يشيعه ميت الغد ، فخذ من مفرك لمقرك ، واعلم أنه لابد لك من قرين يدخل معك قبرك وهو حى وتدخل معه وأنت ميت ، فإن كان صالحا أكرمك وإن كان لئيما خذلك ، فاجعله صالحا ، فإنه عملك . واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل . واذكر يوم ينفض عنك أحباؤك ويطول عواؤك وينادى عليك ملك الملوك فيقول : عبدى رجعوا وتركوك وفى التراب دفنوك ، ولو ظلوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحى الذى لا أموت .

الله تعالى يقسم على أن البعث حق فيقول : ﴿ **ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾ ، وفى هذا اليوم تُوفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا :

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم   وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

فاغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك :

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها   فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها   والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها   والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ **ومن أصدق من الله حديثا** ﴾ . سبحانك اللهم لا أحد أصدق منك ، فأنت أصدق القائلين ، فلك الحمد ، أنت قيوم السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن . أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ومحمد حق ، والنبيون حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت ولك خاصمت ولك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ولا إله إلا أنت .

حديث عن أهل النفاق

* فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

المفردات : **الفئة** : الجماعة ، والركس بوزن النصر : إرجاع الشىء منكوسا على رأسه إن كان له رأس ، أو متحولا عن حال إلى أردأ منها كتحول الطعام والعلف إلى الرجيع والروث ، والمراد به هنا تحولهم إلى الغدر والقتال بعد أن أظهروا الولاء والتحيز إلى المسلمين ، **والسبيل** : الطريق ، **والولى** : النصير والمعين ، **يتصلون** : أى يتصلون بهم ، **الميثاق** : العهد ، حصرت : ضاقت ، السلم : **الاستسلام والانقياد** ، **الفتنة** : الشرك ، **ثقفتموهم** : وجدتموهم ، **السلطان** المبين : الحجة الواضحة .

جاء فى سبب نزول هذه الآية :

روى ابن جرير عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم أظهروا الإسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين ، فاختلف المسلمون فى شأنهم وتشاجروا فنزلت الآية .

– وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين : فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول لا ، هم المؤمنون فأنزل الله : ﴿ فما لكم فى المنافقين

فئتين ﴾ فقال رسول الله ﷺ : (إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد)[١] .

– ذكر محمد بن إسحق بن يسار فى وقعة أحد أن عبد الله بن أبى بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش ، رجع بثلاثة مائة وبقى النبى ﷺ فى سبعة مائة .

– وقال العوفى عن ابن عباس : نزلت فى قوم كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس . وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم . وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله أو كما قالوا : أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا دماءهم وأموالهم فكانوا بذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شىء فنزلت : ﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين ﴾ .

يخاطب الله تعالى جماعة المؤمنين بهذا الاستفهام الإنكارى فيقول : ما لكم قد انقسمتم فى الحكم على هؤلاء المنافقين إلى جماعتين : جماعة ترى أنهم مسلمون ، وآخرون يرون أنهم كافرون . والله سبحانه وتعالى يحكم عليهم بأنهم كافرون فقد أركسهم بما كسبوا ، أى ردهم على رءوسهم منكوسين ، وأهلكهم بسبب ما قدمت أيديهم من الإثم والعدوان ومعصية الرسول وخيانتهم وخداعهم وتآمرهم على المسلمين ونبى الإسلام . ومن أجرى الله عليه سنته بسبب ضلاله وعناده ، فلن يهديه أحد : ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ﴾ ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين . قال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[٢] وقال جل شأنه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[٣] . ﴿ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[٤] إلى الهدى ، فقد صار صدره ضيقا حرجا كأنما يصعَّد فى السماء . وهؤلاء الذين نافقوا لم يقتصر أذاهم على الضرر الظاهرى بل ما تخفى صدورهم أكبر . قال تعالى فى شأنهم : ﴿ ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ : أى أن هؤلاء يتمنون لكم الكفر لتكونوا سواء فى الكفر مثلهم فماذا أنتم فاعلون مع هؤلاء ؟ .

قال تعالى : ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ﴾ أى لا تتخذوا منهم أنصارا ولا أعوانا حتى يحسنوا إليكم وذلك بإظهار المودة والإسلام ويكون ذلك بالهجرة فى سبيل الله والانضمام إلى معسكر المسلمين فإن تولوًا عن الإيمان وانصرفوا عن الانضمام إلى معسكر التوحيد بالهجرة فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، أى فى أى مكان ، ولا تتخذوا منهم وليًا يلى شئونكم ولا نصيرا تستعينون به .

---

(١) أخرجه البخارى فى فضائل المدينة (٢ ، ١٠) وفى تفسير سورة (٤) رقم (١٥) . وفى الأحكام (٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠) وفى الاعتصام (١٦) . وأخرجه مسلم فى البر (٥٣) . وأبو داود فى الجنائز (١) . والنسائى فى الحج (١٢ ، ١٣) وفى البيعة (٢٢) . وأخرجه ابن ماجه فى المناسك (٣) وفى الطب (١٨) وفى الفتن (٣٣) . والإمام مالك فى المدينة (٤ ، ٥) . والإمام أحمد فى (١) ٢٥ ، ٣٨٧ . وفى (٢) ٢٣٧ ، ٢٤٧ ، ٤٣٩ . وفى (٣) ٢٩٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٦٥ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ . وفى (٥) ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) الآيات ٨ – ١٠ من سورة الليل .

(٣) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٤) الآية ١٤٣ من سورة النساء .

وقد استثنى الله تعالى من هؤلاء فريقين رفع عنهم السيف قال فى شأن الفريق الأول : ﴿ **إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ أى جماعة لهم اتصال بقوم عُقدت بينكم وبينهم عهود ومواثيق . والفرقة الثانية يقول الله فى شأنهم : ﴿ **أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم** ﴾ أى ضاقت صدورهم عن قتالكم أو قتال قومهم ولم تنشرح صدورهم للقتال فهم واقفون موقف الحياد ما حكم هؤلاء ؟

قال تعالى : ﴿ **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم** ﴾ ، أى انقادوا لكم ، ﴿ **فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** ﴾ أى إلى قتالهم وليس لكم عليهم حجة فى القتال ، وقد أظهر الله تعالى على المؤمنين نعماءه واضحة إذ يقول : ﴿ **ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم** ﴾ وهو سبحانه الذى كفَّ أيديهم عنكم .

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن أن سُراقة بن مالك المُدْلجى حدثهم قال : (لما ظهر رسول الله ﷺ على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم قال سراقه : بلغنى أنه عليه الصلاة والسلام يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى من بنى مُدْلج فأتيته فقلت أنشدك النعمة ، فقالوا : مَهْ ، فقال دعوه ، تريد ؟ قلت بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومى وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا وإن لم يسلموا لم تخش بقلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد فقال : (اذهب معه فافعل ما يريد) فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله ﷺ ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم ، ومن وصل إليهم من الناس كان له مثل عهدهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ودوا لو تكفرون** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **إلا الذين يصلون** ﴾ فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم .

قوله تعالى : ﴿ **ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها** ﴾ . نزلت هذه الآية فى قوم مذبذبين لا هم مسلمون ولا هم كافرون ، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا لقوا الكافرين قالوا إنا معكم . روى عن مجاهد أن ناسا كانوا يأتون النبى ﷺ فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا وها هنا فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

هؤلاء القوم المذبذبون ﴿ **كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها** ﴾ ، أى كلما دعاهم المشركون إلى الشرك وقعوا فيه مرة ، إنهم يتظاهرون بالإسلام مرة ويتظاهرون بالكفر أخرى ، ليأمنوا جانب الكافرين . فما موقف الإسلام منهم ؟ .

بين الله الحكم فى هؤلاء المترددين فقال : ﴿ **فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا** ﴾ ، أى حجة دافعة ودليلا قاطعا على قتالهم ، لأنهم إن لم يعتزلوا ويلقوا الانقياد والإذعان لكم ، ويكفوا أيديهم عن العدوان ، فإنهم عندئذ يكونون خطرا يهدد الجماعة المسلمة ، فهم عندئذ لا أمان لهم مع توافر الأدلة على وجوب قتالهم حماية لأمة الإسلام . وهذا حكم الله فى أولئك المذبذبين المترددين .

قال الرازى : قال الأكثرون وهذا يدل على أنهم إذا اعتزلوا قتالنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن قتالنا لم يجز لنا قتالهم ولا قتلهم . ونظيره قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ﴾(١) إذ خص فيها الأمر بقتال من يقاتلنا دون من لم يقاتلنا . وقوله جلّ شأنه : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾(٢) .

القتل الخطأ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

لما كانت الآيات المتقدمة بصدد بيان أحكام القتال بين المسلمين وأعدائهم ، جاءت -هذه الآية تنفى بشدة أن يقع القتل العمد بين أفراد الجماعة المسلمة ، وجاء التعبير عن هذا المعنى بأسلوب الحصر فى القتل الخطأ الذى انتفى فيه عنصر القصد . ذلك لأن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب ، يكاد يجعل المستحيل ممكنا ، فهو صانع العجائب ، كما صور ذلك الرسول الكريم فى قوله : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر)(٣) . وكما صوره فى قوله : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)(٤) وفى قوله : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(٥) ، وفى قوله : (المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى) . فما بالك برسالة يقول الله لصاحبها : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٦) ، ويتحدث صاحبها عن بعثته فيقول : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (٧)، إنه تشريع جاء الرسول به كالشمس فى ضحاها

---

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٦١ من سورة الأنفال .
(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) . ومسلم فى البر (٦٦) .
(٤) أخرجه البخارى فى الصلاة (٨٨) وفى الأدب (٣٦) وفى المظالم (٥) . وأخرجه مسلم فى البر (٦٥) . والترمذى فى البر (١٨) . والنسائى فى الزكاة (٦٧) . والإمام أحمد فى (٢ ـ ١٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ .
(٥) أخرجه مسلم فى الإيمان (٧١ ، ٧٢) . والبخارى فى الإيمان (٧) . والترمذى فى القيامة (٥٩) والنسائى فى الإيمان (١٩ ، ٢٣) . وابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الجنائز (١) . وأخرجه الدارمى فى الاستئذان (٥) وفى الرقاق (٢٩) والإمام أحمد فى (١) ٨٩ . وفى (٣) ١٧٦ ، ٢٠٦ ، ٢٥١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ .
(٦) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٧) أخرجه الإمام مالك فى حسن الخلق (٥) . والإمام أحمد فى (٢) ٣٨١ .

وسنة كالقمر إذا تلاها . فمن تبعها وسلك منهجها عاش فى ضوء النهار إذا جلاّها ومن أعرض عن هذا النهج عاش فى ظلمة الليل إذا يغشاها .

قال الفاروق لرسول الله ﷺ يوما : يا رسول الله إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أفتكتب بعضها ؟ فقال له الصادق المعصوم : (أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ ـ أى متحيرون ـ لقد جئتكم بها بيضاء نقية . ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى)(١) .

نعم لقد جاء بها الرسول نقية بيضاء وجاء بها غيره دموية حمراء .

يا سيدى يا رسول الله معذرة	إذا كبا فيك تبيانى وتعبيرى
ماذا أوفيك من حق وتكرمة	وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالفجر وضّاح الأسارير	تدعو إلى الله فى بشر وتيسير
على جبينك نور الحق منبلجا	وفى يديك لواء العدل والنور

إذن ما كان للإسلام أن يتصور أن يقع بين المؤمنين قتل عمد لأن الإيمان يكسب أصحابه حسا مرهفا ويغرس فيهم المشاعر النبيلة والسجايا الحميدة والشمائل الكريمة ، فإن كان هناك قتل فإنه خطأ غير مقصود ، كمن يرمى صيداً فيصيب إنسانا ، وهنا فإن الإسلام لا يقف موقفا سلبيا من الدماء ولو كانت خطأ ، فالإسلام يكره رؤية الدماء إلا فى ميادين القتال ، وفى حدود ما شرع الله ، لا يعرف حمامات الدم ولا معتقلات سيبريا بل إن نبى الإسلام يقول : (لا تنزع الرحمة إلا من شقى)(٢) ، ويقول : (من لا يرحم لا يرحم)(٣) .

لقد انتفض عملاق الإسلام عمر انتفاضة العصفور إذا بلّه ماء المطر عندما رأى فى رحلته إلى الشام رجلا يقف فى حر الشمس ، وعلم أنهم أوقفوه هكذا لأنه ذمى لم يدفع الجزية المفروضة عليه ، فصاح غاضبا : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا ، ألم تسمعوا قوله ﷺ : (إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا) .

لقد أوجب الإسلام الكفارة فى القتل الخطأحتى لا يدع مجالا للإهمال واللامبالاة والعبث بأرواح العباد : فإن كان القتيل مؤمنا وجبت فيه أحكاما ذكرها الله تعالى فى قوله : ﴿ **فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا** ﴾ . ولما كانت هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أحكام فقهية فإننا نذكر تلك الأحكام كما وردت فى مظانها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٣) ٣٨٧ .

(٢) أخرجه الترمذى فى البر (١٦) . والإمام أحمد فى (٢) ٣٠١ ، ٤٤٢ ، ٤٦١ ، ٥٤٩ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (١٨ ، ٢٧) . ومسلم فى الفضائل (٦٥) . وأبو داود فى الأدب (١٤٥) . والترمذى فى البر (١٢) . والإمام أحمد فى (٢) ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٩ ، ٥١٤ .

قال الفقهاء : قوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ المقصود بتحرير الرقبة عتقها من الرق ، أى ومن قتل مؤمنا خطأ بأن أراد رمى صيد أو غرض فأصاب مؤمنا أو ضربه بما لا يقتل عادة كأن صفعه باليد ، أو ضربه بعصا فمات ، وهو لم يكن يقصد قتله ، فعليه عتق رقبة من أهل الإيمان ، لأنه لما أعدم نفسا مؤمنة كان كفارته أن يوجد نفسا «والعتق كالإيجاد من العدم» .

﴿ ودية مسلمة إلى أهله ﴾ الدية : هى المال الواجب بالجناية على الحر فى النفس أو فيما دونها ، ويعطى إلى ورثة المقتول عوضا عن دمه : أى وعليه من الجزاء مع عتق الرقبة دية يدفعها إلى أهل المقتول ، وقد بينتها السنة وحددتها على الوجه الذى كان مقبولا عند العرب وهى مائة بعير مختلفة فى السن أو قيمتها إذا حصل التراضى بين الدافع والمستحق ، ودية المرأة نصف دية الرجل ، لأن المنفعة التى تفوت أهل الرجل بفقده أعظم من المنفعة التى تفوت بفقدها .

وقد روى أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتابا جاء فيه : « إن من اعتبط (قتل بغير سبب شرعى) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود (أى قصاص يقتل به) إلا أن يرضى أولياء المقتول وإن فى النفس الدية مائة من الإبل ، ثم قال : وعلى أهل الذهب ألف دينار»(١) .

وفى هذا دليل على أن دية الإبل على أهلها إذا كانت هى رأس أموالهم ، وأن الذين يتعاملون بالذهب كأهل المدن تكون من الذهب أو الفضة ، وعلى أن هذا أصل لا قيمة للإبل .

﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ ، أى أن الدية تجب على القاتل قتلا خطأ لأهل المقتول إلا أن يعفوا عنها ويسقطوها باختيارهم ، لأنها إنما وجدت تطيبا لقلوبهم حتى لا تقع عداوة ولا بغضاء بينهم وبين القاتل ، وتعويضا عما يفوتهم من المنفعة بقتله ، فإذا هم عفوا فقد طابت نفوسهم وانتقى المحذور وكانوا هم ذوى الفضل على القاتل . وقد سمى الله هذا العفو تصدقا ترغيبا فيه .

﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى فإن كان المقتول من أعدائكم وهو مؤمن كالحارث بن يزيد كان من قريش وهم أعداء النبى ﷺ والمؤمنون فى حرب معهم ، ولم يعلم المسلمون إيمانه لأنه لم يهاجر ، وقد قتله عياش حين خروجه مهاجرا وهو لم يعلم بذلك ، ومثله كل من آمن فى دار الحرب ولم يعلم المسلمون بإيمانه حين قتله فالواجب على قاتله عتق رقبة من أهل الإيمان فقط ولا تجب الدية لأهله لأنهم أعداء يحاربون المسلمين فلا يعطون من أموالهم ما يستعينون به على قتالهم والتنكيل بهم .

﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ وهم الذين عاهدوكم على السلم لا يقاتلونكم ولا تقاتلونهم كما هو حال الدول فى العصر الحاضر يعقد بعضهم معاهدات ومواثيق مع بعض آخر ألا يقاتلوهم ولا يساعدوا عليهم عدوا . ﴿ فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى فالواجب فى قتل المعاهد كالواجب فى قتل المؤمن دية إلى أهله تكون عوضا عن حقهم وعتق رقبة مؤمنة تكون كفارة عن حق الله الذى حرم قتل

(١) أخرجه أبو داود فى الديات (١٦) . والنسائى فى القسامة (٤٧) . والإمام مالك فى الزكاة (٤٣) . وفى العقول (٢) .

المعاهد ، كما حرم قتل المؤمن ، ولم يعين هذه الدية للإشارة إلى أن للعرف العام والخاص حكمة ، ولاسيما إذا ذكر ذلك فى عقد الميثاق الذى بينهما ، لأن هذا النص يكون أقطع لعرق النزاع وأجدر بالتراضى .

وقد اختلف الفقهاء فى دية غير المسلمين لاختلاف الرواية فى ذلك . روى أحمد والترمذى أن النبى ﷺ قال : (عقل «دية» الكافر نصف دية المسلم)[1] وروى عن أحمد «أن ديته كدية المسلم إن قتل عمدا وإلا فنصف ديته» ، وذهب الزهرى وأبو حنيفة إلى أن ديته كدية المسلم لظاهر الآيـة فى أهل الميثـاق ، وهم المعاهدون ، وأهل الذمة . وعلى الجملة فالروايات متعارضة ، ومن ثم اختلف الفقهاء ، وظاهر الآية يدل على أن الدية على القاتل ، ولكن السنة بينت أن العاقلة «العائلة» وهم عصبته الأقربون هم الذين يدفعون الدية . وحكمة هذا تقرير التضامن بين الأقربين وإذا عجزت العاقلة عن دفعها جعلت فى بيت المال «وزارة المالية» .

﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ ، أى فمن لم يجد رقبة يعتقها بأن لم يجد ما لا يشتريها به من مالكها ليحررها من الرق أو لم يجد رقيقا «وهذا مقصد من مقاصد الإسلام» فعليه صيام شهرين متتابعين قمريين لا يفصل بين يومين منهما إفطار فى النهار فإن أفطر يوما بغير عذر شرعى استأنفه وكان ما صامه قبل كأن لم يكن .

﴿ توبة من الله ﴾ أى قد شرعها لكم ليتوب عليكم ويطهر نفوسكم من التهاون وقلة التحرى التى تفضى إلى القتل الخطأ .

﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ ، أى وكان الله عليما بأحوال النفوس وما يطهرها ، حكيما فيما شرعه من الأحكام والآداب التى بها هدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة .

القتل العمد

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

المفردات : ﴿ خالدا فيها ﴾ : أى ماكثا إلى الأبد أو ماكثا طويلا ، ﴿ غضب الله عليه ﴾ : أى انتقم منه ، ﴿ لعنه ﴾ : أبعده عن رحمته ، ﴿ أعدله ﴾ : أى هيأ له .

القتل العمد هو : أن يقصد المكلف قتل إنسان معصوم الدم بما يغلب على الظن أنه يُقتل به . ويفهم من هذا التعريف أن جريمة القتل العمد لا تتحقق إلا إذا توفرت فيها الأركان الآتية :

---

(١) أخرجه الترمذى فى الديات (١٦) . والإمام أحمد فى (٢) ١٨٣ . ٢٢٤ .

١ - أن يكون القاتل عاقلا ، بالغا ، قاصد القتل . أما اعتبار **العقل والبلوغ** : فلحديث على رضى الله عنه وكرم الله وجهه أن النبى ﷺ قال : (رفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يُفيق وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم)[١] .

وأما اعتبار **العمد** : فلما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : «قتل رجل فى عهد رسول الله ﷺ ، فرفع ذلك إلى النبى ﷺ فدفعه إلى ولىِّ المقتول ، فقال القاتل : يا رسول الله ، والله ما أردت قتله ، فقال النبى ﷺ للولى : (أما أنه إن كان صادقا ثم قتلته دخلت النار) فخلاه الرجل وكان مكتوفا بنسعه «سير من الجلد» فخرج يجر نسعته قال : فكان يسمى «ذا النسعة»[٢] .

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : (العمد قود (قصاص) ، إلا أن يعفو ولى المقتول)[٣] . وروى ابن ماجه أنه ﷺ قال : (من قتل عامدا فهو قود ، ومن حال بينه وبينه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا)[٤] .

٢ - أن يكون المقتول آدميا ، ومعصوم الدم : أى أن دمه غير مباح .

٣ - أن تكون الأداة التى استعملت فى القتل مما يُقتل بها غالبا . فإذا لم تتوفر هذه الأركان . فإن القتل لا يعتبر قتلا عمدا .

أداة القتل :

ولا يشترط فى الأداة التى يقتل بها سوى أنها مما تَقْتُل غالبا . وقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ رضّ (كسر) رأس يهودى بين حجرين ، لأنه فعل ذلك بجارية من الجوارى»[٥] .

ومن هذا القبيل القتل بالإحراق بالنار ، والإغراق بالماء ، والإلقاء من شاهق ، وإلقاء حائط عليه وخنق الأنفاس ، وحبس الإنسان ، ومنع الطعام والشراب عنه حتى يموت جوعا ، وتقديمه لحيوان مفترس .

ومنه ما إذا اشهد الشهود على إنسان معصوم الدم بما يوجب قتله ، ثم بعد قتله يرجعون عن الشهادة ، ويقولون : تعمدنا قتله ، فهذه كلها من الأدوات التى غالبا ما تقتل . ومن قدم طعاما مسموما لغيره وهو يعلم أنه مسموم دون آكله ، فمات به اقتص منه .

---

(١) أخرجه البخارى فى الحدود (٢٢) وفى الطلاق (١١) ، وأخرجه أبو داود فى الحدود (١٧) . والترمذى فى الحدود (١) . وابن ماجه فى الطلاق (١٥) . والدارمى فى الحدود (١) ، والإمام أحمد فى (٦) ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٤ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الديات (٣) . والنسائى فى القسامة (٦ ، ٧) . وابن ماجه فى الديات (٣٤) .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الديات (٤) . والإمام أحمد فى (٢) ١٨٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى الجزية (١٠ ، ١٧) . ومسلم فى العتق (١٩) . وأبو داود فى الديات (١٥) . والنسائى فى القسامة (٣٢) . وابن ماجه فى الديات (٨) . والإمام أحمد فى (١) ٦ ، ٨١ ، ١٥١ . وفى (٢) ٤٥٠ ، ٥٢٦ .

(٥) أخرجه البخارى فى الخصومات (١) وفى الوصايا (٥) وفى الديات (٤ ، ١٢) . وأخرجه مسلم فى القسامة (١٧) وأبو داود فى الديات (١٠) . وابن ماجه فى الديات (٢٤) . والدارمى فى الديات (٤) . والإمام أحمد فى (٣) ١٩٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ .

روى البخارى ومسلم : «أن يهودية سمت النبى ﷺ فى شاة ، فأكل منها لقمة ثم لفظها ، وأكل معه بشر بن البراء ، فعفا عنها النبى ﷺ ولم يعاقبها» . أى أنه عفا عنها قبل أن تحدث الوفاة لواحد ممن أكل «فلما مات بشر بن البراء قتلها به»[١] .

الآثار المترتبة على القتل العمد :

إن القتل العمد يوجب أمورا أربعة :

١ - الإثم .
٢ - الحرمان من الميراث والوصية .
٣ - الكفارة .
٤ - القود أو العفو .

فلا يرث القاتل من ميراث المقتول شيئا ، لا من ماله ولا من ديته إذا كان من ورثته ، سواء أكان القتل عمداً أم كان خطأً . وقاعدة الفقهاء فى ذلك : «من استعجل الشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه» وروى البيهقى عن خلاس أن رجلا رمى بحجر فأصاب أمه فماتت من ذلك ، فأراد نصيبه من ميراثها ، فقال له إخوته : لا حق لك ، فارتفعوا إلى على كرم الله وجهه فقال على رضى الله عنه : «حقك من ميراثها الحجر ، فأعزمه الدية ، ولم يعطه من ميراثها شيئا» . وقال الإمام مالك : إن القتل إن كان خطأً ــ ورث من المال دون الدية .

أحاديث فى الوعيد للقتل العمد :

- عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء)[٢] .

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات : قيل : يا رسول الله : وما هنَّ ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[٣] .

- وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لن يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما)[٤] ، وقال ابن عمر رضى الله عنهما : إن من ورطات الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله .

- وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق)[٥] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الهبة (٢٨) .
(٢) أخرجه البخارى فى الديات (١) وفى الرقاق (٤٨) . وأخرجه مسلم فى القسامة (٢٨) . والترمذى فى الديات (٨) . والنسائى فى التحريم (٢) . وابن ماجه فى الديات (١) والإمام أحمد فى (١) ٣٨٨ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ .
(٣) أخرجه البخارى فى الوصايا (٢٣) وفى الحدود (٤٤) وفى المحاربين (٣٠) . وأخرجه مسلم فى الإيمان (١٤٤) .
(٤) أخرجه البخارى فى الديات (١) . وأبو داود فى الفتن (٦) . والإمام أحمد فى (٢) ٩٤ .
(٥) أخرجه الترمذى فى الديات (٧) . وابن ماجه فى الديات (١) . والنسائى فى التحريم (٢) .

– وروى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : (ما أطيبك ، وما أطيب ريحك ، وما أعظمك وما أعظم حرمتك والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك : ماله ودمه)(١) .

– وعن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : (لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار)(٢) .

– ورُوى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقى الله مكتوبا بين عينيه : آيس من رحمة الله)(٣) .

– وعن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم امرئ مسلم أن يُهريقه كما يذبح به دجاجة كلما تعرض لباب من أبواب الجنة حال الله بينه وبينه ، ومن استطاع منكم أن لا يجعل فى بطنه إلاطيبا فليفعل فإن أول ما ينتن من الإنسان بطنه)(٤) .

– وعن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا)(٥) .

– وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سأله سائل : فقال : يا أبا العباس هل للقاتل من توبة ؟ فقال ابن عباس كالمعجب من شأنه : ماذا تقول ؟ فأعاد عليه مسألته ، فقال : ماذا تقول ؟ مرتين أو ثلاثا . قال ابن عباس سمعت نبيكم ﷺ يقول : (يأتى المقتول متعلقا رأسه بإحدى يديه متلببا قاتله باليد الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يأتى به العرش ، فيقول المقتول لرب العالمين : هذا قتلنى فيقول الله عز وجل للقاتل : تعست ويذهب به إلى النار)(٦) .

– وعن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول : من أخذل اليوم مسلما ألبسته التاج . قال : فيجىء هذا فيقول : لم أزل به حتى طلق امرأته ، فيقول : يوشك أن يتزوج . ويجىء لهذا فيقول : لم أزل به حتى عقَّ والديه ، فيقول : يوشك ، أن يبرهما . ويجىء هذا فيقول : لم أزل به حتى أشرك . فيقول : أنت ، أنت ويجىء هذا فيقول : لم أزل به حتى قتل ، فيقول ، أنت أنت ، ويلبسه التاج) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى البر (٨٥) . وابن ماجه فى الفتن (٢) . والدارمى فى المناسك (٧٦) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الديات (٨) .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الديات (١) .

(٤) وأخرج البخارى الحديث مختصرا فى الأحكام (٩) .

(٥) أخرجه النسائى فى التحريم (١١) والإمام أحمد فى (١) ٢٤٠ .

(٦) أخرجه النسائى فى التحريم (٢) وفى القسامة (٤٩) . وأخرجه الترمذى فى التفسير سورة (٤) رقم ١٥) . والإمام أحمد فى (١) ٢٤٠ ، ٢٩٤ ، ٣٦٤ .

– وعن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (يخرج عُنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع الله إلها آخر ، ومن قتل نفسا بغير حق فينطوى عليهم فيقذفهم فى حمراء جهنم)[١] .

هل لقاتل العمد من توبة ؟

للعلماء فى توبة قاتل المؤمن عمدا آراء ثلاثة :

١- يرى ابن عباس وفريق من السلف أن قاتل المؤمن عمدا لا تقبل له توبة وهو خالد فى النار أبدا ، ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد والنسائى عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا)[٢] وأخرج البيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة : آيس من رحمة الله تعالى)[٣] ، وروى عن البراء بن عازب أن النبى ﷺ قال : (لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله تعالى النار) ، وعن ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام قال : (لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهّم الله تعالى على مناخرهم فى النار وإن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والآمر به)[٤] .

وهؤلاء يرون أن التائب من الشرك وقد كان قاتلا زانيا تقبل توبته ، ولا تقبل توبة المؤمن الذى ارتكب القتل وحده ، إذ الأول لم يؤمن بالشريعة التى تحرم هذه الأمور ، فله شبه عذر إذا هو كان متبعا لهواه بالكفر وما يتبعه ولم يكن ظهر له صدق النبوة ، فلما ظهر له الدليل على أن ما كان عليه كفر وضلال وتاب وأناب وعمل صالحا كان جديرا بالعفو .

وأما المؤمن الموقن بصحة النبوة ، وحرمة القتل ، فلا عذر له ، إذ هو يعلم أن المؤمن أخ له ونصير ، فكيف يعمد بعد هذا إلى الاستهانة بأمر الله وحكمه ، وتوهين أمر دينه ، بهدم أركان قوته ، ومن ثم يهون المسلمون ويضعفون ويكون بأسهم بينهم شديدا . وإنك لترى أنه ما انحلت الرابطة بين المسلمين وانفصمت عروة الوفاق بينهم إلا بعد أن أقدم بعضهم على سفك دماء بعض ورجحوا شهوة الغضب والانتقام على أمر الله تعالى ، ومن رجح شهوات نفسه الضارة على أمر الله وعلى مصلحة المؤمنين بغير شبهة فهو جدير بالخلود فى النار والغضب واللعنة ، إذ هؤلاء قد تجرءوا على حدود دينه ولم يبق للشرع حرمة فى قلوبهم .

قال فى الكشاف : هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد ، والإبراق والإرعاد أمر عظيم ، وخطب جليل ، ومن ثم روى عن ابن عباس أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة . . والعجب من قوم يقرءون هذه

(١) أخرجه الترمذى فى جهنم (١) . والدارمى فى الرقاق (٩٥) . والإمام أحمد فى (٢) ٣٣٦ . وفى (٣) ٤٠ .
(٢) أخرجه النسائى فى التحريم (١١) . والإمام أحمد فى (١) ٢٤٠ .
(٣) سبق تخريجه .
(٤) سبق تخريجه .

الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث (التى تقدم ذكرها) وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم ، وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1] .

٢ - يرى فريق آخر أن المراد بالخلود : المكث الطويل لا الدوام ، لتظاهر النصوص القاطعة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم . وما فى الآية إخبار من الله بأن جزاءه ذلك لا بأنه يجزيه ذلك كما جاء فى قوله عز اسمه : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾[2] ، فإنه لو كان المراد منها أنه سبحانه يجزى كل سيئة بمثلها لعارض قوله جلَّ شأنه : ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ ، ومن ثم روى عن النبى ﷺ مرفوعا أنه قال هو جزاؤه إن جازاه .

وبهذا قال جمع من العلماء وقالوا : هو كما يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر : إن فعلت فجزاؤك القتل والضرب ، وهو إن لم يجازه لم يكن كذابا ، وقد روى عن ابن عباس جواز المغفرة بلا توبة أيضا ، وقال فى الآية هى جزاؤه ، فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

٣ - ويرى فريق ثالث أن حكم الآية إنما هو للقاتل المستحل ، وحكمه مما لا شك فيه . وعكرمة وابن جُريج فسرا متعمدا مستحلا فى الآية . أى : ومن يقتل مؤمنا متعمدا لقتله مستحلا له ، فجزاؤه جهنم خالدا فيها أبدا .

الأمر بالتبيُّن

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

المفردات : **الضرب فى الأرض** : السير فيها بالسفر للتجارة أو الجهاد ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه أو بقوائم راحلته ، ﴿ **فى سبيل الله** ﴾ : أى لجهاد أعدائكم فتبينوا أى تثبتوا وتأنَّوْا ، ﴿ **ألقى إليكم السلام** ﴾ : أى انقاد واستسلم لكم فلم يقاتلكم ، ﴿ **عرض الحياة الدنيا** ﴾ : أى متاعها الحاضر الذى يأخذ منه البر والفاجر ﴿ **مغانم كثيرة** ﴾ : أى رزق وفضل كثير .

جاء فى سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة منها : ما أخرجه البخارى والترمذى والحاكم وغيرهم عن

---

(١) الآية ٢٤ من سورة محمد .
(٢) الآية ٤٠ من سورة الشورى .

والآية تنفى المساواة بين القاعدين الذين لا عذر لهم وبين المجاهدين بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله ، إذ أن المساواة غير واردة فكيف يسوى بين قوم قعدوا وآخرين خرجوا يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ؟ قال تعالى : ﴿ **فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة** ﴾ وقد أخبر النبى ﷺ عن فضل المجاهدين فقال : (إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)[1] ، وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (من رمى بسهم فله أجره درجة) ، فقال رجل يا رسول الله وما الدرجة ؟ فقال : (أما أنها ليست بعتبة أمك ما بين الدرجتين مائة عام)[2] .

قوله تعالى : ﴿ **وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ المراد بالحسنى هى الجنة ، قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[3] بعد قوله جل شأنه : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[4] ، والمراد بالزيادة فى قوله جل شأنه : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ رؤية الله تعالى قال سبحانه : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾[5] ، وقال عليه الصلاة والسلام : (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر)[6] ، وإنما حكم الله لكل منهم ، أى من القاعدين والمجاهدين ، بالجنة ، لأنهم مؤمنون رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

ثم قال سبحانه : ﴿ **وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجر عظيماً** ﴾ . ولا يدرك مدى هذه الدرجة وذلك الأجر العظيم إلا الله ، لذا فصلها سبحانه بعد ذلك بقوله : ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة ﴾ وهذا دليل على عظم الأجر وعلى أن رحمة الله وسعتهم فضلاً وتكرماً ، وإن مغفرته قد شملت ذنوبهم حيث ثبتت أقدامهم على طاعة الله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

الهجرة وفضلها

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٤) وفى التوحيد (٢٢) . وأخرجه النسائى فى الجهاد (١٨) . والإمام أحمد فى (٢) ٢٣٥ ، ٣٣٩ .

(٢) أخرجه أبو داود فى العتاق (١٤) . والإمام أحمد فى (٤) ١١٣ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة يونس .

(٤) الآية ٢٥ من سورة يونس .

(٥) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامه .

(٦) أخرجه البخارى فى المواقيت (١٦ ، ٢٦) وفى الأذان (١٢٩) . وفى التفسير سورة (٥٠) رقم (٢) وفى الرقاق (٥٣) وفى التوحيد (٣٤) . وأخرجه أبو داود فى السنة (١٩) . والترمذى فى الجنة (١٦) . والإمام أحمد فى (١٣) ١٦ ، ١٧ ، ٢٦ .

سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

المفردات : توفى الشيء : أخذه وافيا تاماً ، وتوفى الملائكة للناس : قبض أرواحهم حين الموت . والمأوى : المسكن . ﴿ **مراغماً** ﴾ : مكانا للهجرة ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فيرغم بذلك أنوف من كانوا مستضعفين له . ﴿ **وقع أجره على الله** ﴾ : أى وجب ، والوقوع والوجوب يتواردان على معنى واحد .

جاء فى سبب نزول هذه الآية ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** ﴾ : أخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس قال : «أن سبب نزول الآية أن قوماً من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون الإسلام ، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم ، فقال المسلمون : هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت الآية فكتبوا بها إلى من بقى بمكة منهم ، وأنه لا عذر لهم ، فخرجوا فلحق بهم المشركون ففتنوهم ، فرجعوا فنزلت : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾[1] فكتب إليهم المسلمون بذلك ، فتحزنوا فنزلت : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾[2] ، فكتبوا إليهم بذلك فخرجوا فلحقوهم فنجا من نجا وقتل من قتل» .

بعد أن بيّن الله تعالى أجر المجاهدين من درجات ومغفرة ورحمة ، وبين فضل الجهاد بالنفس والمال ، بين بعد ذلك ما للهجرة من أحكام وما على تركها من وعيد للمتقاعسين ، ووعد للمهاجرين ، وقد أمر النبى ﷺ بالسمع والطاعة والهجرة والجهاد والجماعة ، وقد رفع الله شأن قوم هاجروا فقال سبحانه : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ۞ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[3] ، وقال سبحانه : ﴿ لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾[4] ، وقال عز وجل : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾[5] ، وقال سبحانه : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾[6] .

---

(١) من الآية ١٠ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ١١٠ من سورة النحل .
(٣) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة النحل .
(٤) الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٨ من سورة الحشر .
(٦) الآية ١٠٠ من سورة التوبة .

وقد أوعد الله الذين قعدوا عن الهجرة وهم قادرون عليها ورضوا بالذل والهوان كما رضوا بأن يقيموا فى دار الكفر وتخلفوا عن نصرة الرسول وأصحابه ، أوعدهم جهنم وساءت مصيرا ، كما وعد الذين هاجروا بأن أجرهم قد وقع على الله حتى لو ماتوا قبل الوصول ، قال ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** ﴾ أى إن الذين تتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم حين انتهاء آجالهم حالة كونهم ظالمى أنفسهم برضاهم بالإقامة فى دار الذل والظلم حيث لا حرية لهم فى أعمالهم الدينية ولا يتمكنون من إقامة دينهم ونصره وتأييده ﴿ **قالوا فيم كنتم ؟** ﴾ أى تقول لهم الملائكة بعد توفيها لهم فى أى شىء كنتم من أمر دينكم ؟ أى أنهم لم يكونوا فى شىء منه إذ هم قدروا على الهجرة ولم يهاجروا .

﴿ **قالوا كنا مستضعفين فى الأرض** ﴾ هذا اعتذار عن تقصيرهم الذى وبخوا عليه ، أى إننا لم نستطع أن نكون فى شىء يعتد به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا فعجزنا عن القيام بواجبات الدين بين أهل مكة ، وهذه حجة لم تتقبلها الملائكة ، ومن ثم ردوا عليهم المعذرة فقالوا لهم : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا منها ؟** ﴾ وترحلوا إلى قطر آخر من الأرض تقدرون فيه على إقامة الدين وتحرروا أنفسكم من رق الذل الذى لا يليق بالمؤمن ولا هو من خصاله .

﴿ **فأولئك مأواهم جهنم** ﴾ أى أن أولئك الذين فصلت حالهم القطيعة نسكنهم فى الآخرة جهنم لتركهم ما كان مفروضاً عليهم ، إذ كانت الهجرة واجبة فى صدر الإسلام .

﴿ **وساءت مصيرا** ﴾ أى وقبحت جهنم مصيرا لهم لأن كل ما فيها يسوؤهم وفى هذا إيماء إلى أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة دينه كما يجب لبعض الأسباب ، أوعلم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ، وجبت عليه الهجرة ، أما المقيم فى دار الكفر ولا يمنع ولا يؤذى إذ هو عمل بدينه ، وأقام أحكامه بلا نكير ، فلا يجب عليه أن يهاجر ، كما هو مشاهد من المسلمين المقيمين فى بلاد الإنكليز الآن ، إلا أن الإقامة فيها ربما كانت سبباً من أسباب ظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه .

﴿ **إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان** ﴾ أى أن أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم وعدم الفرار به هجرة إلى الله ورسوله غير صادقين فى اعتذارهم ، أما الاستضعاف الحقيقى فهو عذر مقبول كأولئك الشيوخ الضعفاء والعجزة كعباس بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام ، والنساء كأم الفضل أم عبد الله بن عباس والولدان كعبد الله المذكور وغيره .

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الوحى (١) وفى العتق (٦) وفى مناقب الأنصار (٤٥) وفى الطلاق (١١) وفى الأيمان (٢٣) وفى الحيل (١) . وأخرجه مسلم فى الإمارة (١٥٥) . وأبو داود فى الطلاق (١١) . والنسائى فى الطهارة (٥٩) وفى الطلاق (٢٤) وفى الأيمان (١٩) . وأخرجه ابن ماجه فى الزهد (٢٦) .

﴿ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ﴾ أى أنهم قد ضاقت بهم الحيل فلم يستطيعوا ركوب حيلة واحدة منها وعُمِّيت عليهم الطرق فلم يهتدوا طريقاً منها إما للعجز كمرض وزمانه وإما للفقر وإما للجهل بمسالك الأرض ومضايقها بحيث لو خرجوا لهلكوا كما قالوا فى أمثالهم : «قتلت أرض جاهلها» . وقد أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كنت أنا وأمى من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون إلى الهجرة سبيلاً ، والمراد بالولدان هنا المراهقون الذين قربوا من البلوغ وعقلوا ما يعقل الرجال والنساء فيلحقون بهم فى التكليف بوجوب الهجرة معهم أو أن تكليفهم هو تكليف أوليائهم بإخراجهم من ديار الكفر . ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ أى أن أولئك المستضعفين الذين لم يهاجروا للعجز وتقطع الأسباب يرجى أن يعفو الله عنهم ولا يؤاخذهم بالإقامة فى دار الكفر .

وفى هذا إيماء إلى أن أمر الهجرة مشدد فيه ولو بإستعمال الحيل والبحث عن مضايق السبل وبذا لا يخدع أحد ممن يحب وطنه نفسه فيعد ما ليس بمانع مانعاً .

وفى هذا رمز إلى تعظيم أمر الهجرة وإلى أن تركها جرم عظيم وإلى أنه ينبغى أن يترصد لها الفرصة السانحة ويعلق قلبه بها .

﴿ وكان الله عفوا غفورا ﴾ أى وكان شأن الله تعالى العفو عن الذنوب التى لها أعذار صحيحة بعدم المؤاخذة عليها ومغفرتها بسترها وعدم فضيحة صاحبها فى الآخرة .

ثم رغب سبحانه فى أمر الهجرة ونشط المستضعفين لما جرت به العادة من أن الإنسان يتهيب الأمر المخالف لما اعتاده وأنس به ، ويتخيل مصاعب ومشقات لا توجد إلا فى خياله ، وأن ما يتصوره بعض الناس من عسر الهجرة لا محل له ، وأن عسرها إلى يسر فقال : ﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ ، أى أن من يهاجر فى سبيل الله : أى لقصد رضاه وإقامة دينه كما يجب وكما يحب الله تعالى يجد فى الأرض سبيلاً يرغم به أنوف من كانوا مستضعفين له ، ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل ، وفى هذا وعد للمهاجرين فى سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم .

وبعد أن وعد سبحانه من يهاجر بالظفر بما يحب ومن وجد أن السبل ميسورة أمامه ، ومن سعة العيش ، وعد من يموت فى الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم الذى ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله ونصرة رسوله فى حياته وإقامة سننه بعد وفاته ، وكان مستحقاً لهذا الأجر ، ولو مات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعباً ولا مشقة ، فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه له كما فى الحديث : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) فقال : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ . وفى إبهام هذا الأجر وجعله حقا واجباً عليه تعالى إيذان بعظم قدره وتأكيد ثبوته ووجوبه . ولله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء وليس لغيره أن يوجب عليه شيئاً ، إذ لا سلطان فوق سلطانه .

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ، أى وكان شأن الله الغفران أزلا وأبداً لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله ، والرحمة الشاملة لهم بعطفه وإحسانه .

روى ابن جرير عن ابن جبير : أنها نزلت فلا جندب بن ضمرة ، وكان بلغه قوله تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ وهو بمكة حين بعث بها رسول الله ﷺ إلى مسلميها فقال لبنيه : احملونى فإنى لست من المستضعفين ، وإنى لأهتدى إلى الطريق ، وإنى لا أبيت الليلة بمكة ، فحملوه على سرير وتوجهوا به إلى المدينة ، وكان شيخاً كبيراً ، فمات بالتنعيم (موضع قرب المدينة) ولما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله ويقول : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ﷺ ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك ، ولما بلغ خبر موته الصحابة رضى الله عنهم قالوا لبنيه : مات بالمدينة فنزلت .

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن من سار لأمر فيه ثواب ، كطلب علم وحج وكسب حلال ومات قبل الوصول إلى المقصد ، فله هذا الحكم . أخرج البيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازيا فى سبيل الله فمات كتب له أجر الغازى إلى يوم القيامة)[1] .

السبب فى شرع الهجرة فى صدر الإسلام

شرعت الهجرة فى صدر الإسلام لأسباب ثلاثة تتعلق بحال الفرد وحال الجماعة :

١ - البعد عن الاضطهاد فى أمور الدين بإقامة شعائره ، بحيث يكون المسلم حراً فى تصرفه كما يعتقد ، فكل شخص يظن أنه ربما يُفتن عن دينه ، أو يكون ممنوعاً من إقامته ، يجب عليه أن يهاجر منه إلى مكان لا خطر فيه على نفسه ولا على دينه ، فإن لم يفعل ذلك فقد ارتكب إثماً كبيراً ، وحمل وزراً عظيماً .

٢ - تلقى الدين والتفقه فيه ، وقد كان ذلك فى عصر النبى ﷺ حين كان إرسال الدعاة والمرشدين من قبله متعذراً لتصدى المشركين لهم وحرمانهم من أداء وظائفهم لما لهم من القوة والبطش .

وهذا الحكم فى كل من يقيم ببلد ليس فيه علماء يقيمون أحكام الدين ، عليه أن يهاجر إلى بلد يتلقى فيه أمور دينه ، وأحكام شريعته .

٣ - إنه يجب على جماعة المسلمين أن تكون لهم دولة قوية ، تنشر دعوة الإسلام ، وتقيم أحكامه وحدوده ، وتحمى دعاته وأهله من عدوان العادين ، فإذا خيف على هذه الدولة من غارة الأعداء وجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها ، مهما بعدت دارهم ، وشط مزارهم ، وإلا كانوا راضين بضعفها ومعينين لأعداء الإسلام على إبطال الدعوة وتشريد الدعاة .

وقد كانت هذه الأسباب موفورة قبل فتح مكة ، فلما يسر الله فتحها وقوى الإسلام على الشرك فى جزيرة العرب كلها ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وأرسل النبى ﷺ إلى أطراف الجزيرة وغيرها من

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد (٩) . والإمام أحمد فى (٥) ٢٤١ .

يعلم الناس شرائع الإسلام ، زالت هذه الأسباب . وقد روى ابن عباس أن النبى ﷺ قال : (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا)(١) . وإذا وجد أحد الأسباب الثلاثة المتقدمة فى أى عصر وجبت الهجرة ، وأهمها اعتداء الكفار على بلاد المسلمين وخوف استيلائهم عليها .

صلاة الخوف

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

المفردات : ﴿ **ضربتهم فى الأرض** ﴾ : أى سافرتم فيها ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه ، أو بقوائم راحلته . والقصر بالفتح من القِصر ضد الطول . وقصرت الشىء : جعلته قصيراً ، والجناح : التضييق من جنح البعير إذا انكسرت جوانحه (أضلاعه) لثقل حمله . ﴿ **يفتنكم** ﴾ : يؤذوكم بقتل أو غيره . إقامة الصلاة : الذكر الذى يدعى به للدخول فيها . والأسلحة : واحدها سلاح وهو كل ما يقاتل به كالسيف والخنجر والمسدس والبندقية من أسلحة العصر الحاضر . ﴿ **قضيتم الصلاة** ﴾ : أى أديتموها فأقيموا الصلاة أى ائتوا بها مقوَّمة تامة الأركان والشروط . ﴿ **كتابا موقوتا** ﴾ فرضاً منجماً فى أوقات محدودة لا بد من أدائها فيها .

كان الكلام فى سابق الآيات فى الجهاد والحث عليه لإقامة الدين وحفظه ، وإيجاب الهجرة لأجل ذلك وتوبيخ من لم يهاجر من أرض لا يقدر على إقامة دينه فيها ، والجهاد يستلزم السفر وذكر هنا أحكام من

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (١٩٤) . وأبو داود فى الجهاد (٢) . والنسائى فى البيعة (١٥) .

سافر للجهاد أو هاجر فى سبيل الله إذا أراد الصلاة وخاف أن يفتن بها عنها ، فبين أنه يجوز له أن يقصر منها ، وأن يصلى جماعتها بالطريقة التى ذكرت فى الآية الثانية من هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا** ﴾ ، أى إذا سافرتم أى سفر ، فليس عليكم تضييق ولا ميل عن محجة الدين إذا قصرتم الصلاة ، أى تركتم شيئاً منها فتكون قصيرة بشرط أن تخافوا فتنة الكافرين لكم بالقتل أو الأسر أو غيرهما ، وليس هذا خاصاً بزمن الحرب ، بل إذا خاف المصلى قطّاع الطريق كان له أن يقصر هذا القصر ، وليس هذا هو قصر الصلاة الرباعية فى السفر المبين فى كتب الفقه ، إذ هذا مأخوذ من السنة المتواترة ، بل المراد هنا القصر فى صلاة الخوف المذكور فى الآية الأولى والمبين فى الآية التى بعدها وفى سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ **فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا** ﴾ .

فالآية التى هنا بصدد القصر من عدد الركعات بأن تصلى طائفة مع الإمام ركعة واحدة فإذا أتمتها تأتى الطائفة الأخرى وهى التى كانت تحرس الأولى فتصلى معه الركعة الثانية ، وآية البقرة فى القصر من هيئة الصلاة بالترخيص فى عدم إقامة صورتها بأن يكتفى المشاة والركبان بالإيماء عن الركوع والسجود .

صلاة القصر فى السفر وشرطها

كان النبى ﷺ يصلى الظهر والعصر والعشاء فى السفر ركعتين ركعتين ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر وسائر الصحابة ؛ ففى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : «صحبت رسول الله ﷺ فكان فى السفر لا يزيد على ركعتين ، وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان»[1] ، يعنى فى صدر خلافته ، وإلا فعثمان قد أتم فى آخر خلافته وكان ذلك أحد الأسباب التى أُنكِرت عليه وقد خُرِّج لفعله تأويلات .

قال ابن القيم : وأحسن ما اعتذر به عن عثمان أنه تزوج بمنى ، والمسافر إذا أقام فى موضع وتزوج فيه أتم صلاته فيه ، وهو قول الحنفية والمالكية .

وقد روى الشيخان عن عائشة قالت : «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر»[2] .

وقال عمر بن الخطاب : صلاة السفر ركعتان والجمعة ركعتان والعيد ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ وقد خاب من افترى . وكان قد سأل النبى ﷺ ما بالُنا نقصر ؟ فقال له رسول الله ﷺ : (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته)[3] .

---

(١) أخرجه البخارى فى التقصير (١١) . والنسائى فى التقصير (٥) . وابن ماجه فى الإقامة (٧٣ ، ١٢٤) . والإمام أحمد فى (١) ٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ . وفى (٢) ٢٠ ، ٣١ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٥٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة (١) . ومسلم فى المسافرين (١) . والنسائى فى الصلاة (٣) . والإمام مالك فى السفر (٨) .

(٣) أخرجه مسلم فى المسافرين (٤) . وأبو داود فى السفر (١) . والترمذى فى تفسير سورة (٤) رقم (٢٠) . والنسائى فى الخوف (١) . وابن ماجه فى الإقامة (٧٣) . والدارمى فى الصلاة (١٧٩) . والإمام أحمد فى (١) ٢٥ ، ٣٦ . وفى (٦) ٦٣ .

وقال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر : إنما نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف فى القرآن ولا نجد صلاة السفر فى القرآن ، فقال له ابن عمر : يا أخى إن الله بعث محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً فإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل .

فالحق ما عليه الحنفية وغيرهم من وجوب القصر فى السفر خلافا للشافعية الذين أجازوا الإتمام .

وشرط القصر فى الصلاة والإفطار فى رمضان : أن يكون السفر مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومشى الأقدام ، بالاقتصاد فى البر ، وجرى السفينة والريح معتدلة فى البحر ، لحديث أنس أنه قال حين سئل عن قصر الصلاة : «كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أيام أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين» . رواه أحمد .

وقدره الشافعى بمسيرة يومين ، وحقق المرحوم أحمد الحسينى بك فى كتابه (دليل المسافر) أن هذه المسافة تقدر بنحو ٨١ ك م عند الحنفية ، و ٨٩ ك م لدى الشافعية والمالكية والحنابلة ، وعلى هذا فالمسافر من القاهرة إلى طنطا فما فوقها يقصر الصلاة عند الحنفية لأن المسافة بينهما ٨٧ ك م ، وإلى المحطة التى تليها (شبرا النملة) لدى المذاهب الثلاثة لأن المسافة بينهما ٩٣ ك م .

كيفية صلاة الخوف

ثم بيّن سبحانه ما قبله من النص المجمل الوارد فى مشروعية القصر وبيان كيفيته عند الضرورة ، وذكر هذا البيان فى القرآن ، واكتفى فيما عداه بالبيان بطريق السنة لمزيد الحاجة إليه ، لما فيه من كثرة التغيير عن الهيئة الأصلية فقال : **﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ﴾** ، أى : وإذا كنت أيها الرسول فى جماعتك من المؤمنين وأردت أن تقيم بهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك بعد أن تجعلهم طائفتين ، ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو يحرسون المصلين خوفاً من الاعتداء ، وليحمل الذين يقومون معك فى الصلاة أسلحتهم ولا يدعوها وقت الصلاة ، لئلا يضطروا إلى المكافحة عقبها مباشرة ، أو قبل إتمامها ، فيكونوا مستعدين لها .

﴿ فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ﴾ أى فإذا سجد الذين يقومون معك فى الصلاة فليكن الذين يحرسونكم من خلفكم إذ أحوج ما يكون المصلى للحراسة حين السجود لأنه يرى من يهم به ويجب حينئذ أن يكون الباقون مستعدين للقيام مقامهم والصلاة مع النبى ﷺ كما صلوا وهو قوله : **﴿ ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾** أى ولتأت الطائفة الأخرى الذين لم يصلوا لاشتغالهم بالحراسة فليصلوا كما صلت الطائفة الأولى وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم فى الصلاة كما فعل الذين من قبلهم .

وحكمة الأمر بالحذر للطائفة الثانية أن العدو قلما يتنبه أول الصلاة لبدء المسلمين فيها ، إذ هو إذا رآهم

صفاً ظن أنهم قد اصطفوا للقتال واستعدوا للحرب والنزال ، فإذا رآهم سجدوا علم أنهم فى صلاة فيخشى أن يميل على الطائفة الأخرى عند قيامها فى الصلاة كما يتربص ذلك بهم عند كل غفلة .

وقد بيّن الله تعالى علة الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى فى الصلاة فى قوله : ﴿ ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾ أى تمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله وبما أنزل عليكم لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم التى بها بلاغكم فى سفركم بأن تشغلكم صلاتكم عنها فيميلون حينئذ عليكم ويحملون حملة واحدة وأنتم مشغولون بالصلاة واضعون السلاح تاركون حماية المتاع والزاد فيصيبون منكم غِرّة فيقتلون من استطاعوا قتله وينتهبون ما استطاعوا نهبه فلا تغفلوا عنهم وقد يعرض لبعض المحاربين أعذار يشق عليكم حمل السلاح مع ثقله فى ثيابكم وربما أفسد الماء السلاح إذ يجعله يصدأ ، أو إذا كنتم مرضى بالجروح أو غير الجروح من العلل ، ولكن يجب عليكم فى جميع الأحوال أن تأخذوا حذركم ولا تغفلوا عن أنفسكم ولا عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فإن عدوكم لا يغفل عنكم ولا يرحمكم ، والضرورات تقدر بقدرها .

﴿ إن الله أعد للكافرين عذابا مهيناً ﴾ بما هداكم إليه من أسباب النصر بأخذ الأهبة والحذر والاعتصام بالصبر والصلاة ، رجاء ما عند الله من المثوبة والأجر ، فهذا العذاب المهين هو عذاب غلبة المسلمين وانتصارهم عليهم إذا قاموا بما أمرهم الله تعالى به ويؤيده قوله تعالى : ﴿ إنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ ، وقوله : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ﴾[1] .

روى البخارى أن هذه الرخصة التى فى الآية نزلت فى عبدالرحمن بن عوف وكان جريحاً . وروى أحمد والحاكم والبيهقى عن ابن عباس الزرقى قال : «كنا مع رسول الله ﷺ فى عُسفان فاستقبلنا المشركون وعليهم خالد بن الوليد ، وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا النبى ﷺ الظهر ، فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم . ثم قالوا : يأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم . فنزل جبريل بين الظهر والعصر بهذه الآيات : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ .

وقد روى عن النبى ﷺ يوم ذات الرقاع : «أن طائفة صفت مع النبى ﷺ وطائفة وجاه العدو (اتجاهه) فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائماً فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة الثانية التى بقيت من صلاته فأتموا فسلم بهم»[2] ، وسميت هذه الغزوة ذات الرقاع لأنها نقبت أقدامهم فلفوا على أرجلهم الرقاع والخرق . وقد قال بهذه الصلاة أفقه الصحابة عليهم الرضوان : على وابن عباس وابن مسعود وابن عمرو وزيد بن ثابت وأبو هريرة وأبو موسى ، ومن فقهاء الأمصار : مالك والشافعى وغيرهما .

---

(١) الآية ١٤ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه مسلم فى المسافرين (٣٠٥ ، ٣١٠) . وأبو داود فى السفر (١٤ ، ١٦) . والنسائى فى الخوف (١٠ ، ١٣ ، ١٨) . والدارمى فى الصلاة (١٨٥) . والإمام مالك فى الخوف (٢) . والإمام أحمد فى (٢) ١٣٢ ، ١٤٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤ .

﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾ أى فإذا أديتم الصلاة على هذه الصورة فاذكروا الله تعالى فى أنفسكم بتذكر وعده بنصر من ينصرونه فى الدنيا ونيل الثواب فى الآخرة ، وبألسنتكم بالحمد ، والتكبير والدعاء ، وعلى كل حال تكونون عليها من قيام فى المسابقة والمقارعة وقعود للرمى أو المصارعة واضطجاع من الجروح أو المخادعة ، فذكر الله مما يقوى القلوب ويعلى الهمم ويجعل متاعب الدنيا حقيرة ومشاقها سهلة ، والثبات والصبر يعقبهما الفلاح والنصر ، كما قال تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾[1] .

والخلاصة : إننا أمرنا بالذكر على كل حال نكون عليها فى الحرب ، كما يدل على ذلك السياق ، فأجدر بأن نؤمر به فى حال السلم ، إذ أن المسلمين فى جهاد مستمر وحروب دائمة ، فهم تارة يجاهدون الأعداء ، وأخرى يجاهدون الأهواء ، ومن ثم أمرهم الله بالذكر فى كثير من الآى كقوله : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾[2] لما فى ذلك من تربية النفس وصفاء الروح ، وتذكير جلال الله وعظمته ، وأن كل شىء هين فى سبيله وابتغاء مرضاته .

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها جزاء معلوما ، ثم عذر أهلها فلا حال العذر غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً فى تركه إلا مغلوباً على عقله ، فقال : «فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم» : أى بالليل والنهار فى البر والبحر وفى السفر والحضر والغنى والفقر والسقم والصحة والسر والعلانية وعلى كل حال .

﴿ فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ﴾ الاطمئنان : السكون بعد اضطراب وانزعاج : أى فإذا سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتم بعد أن تضع الحرب أوزارها فأدوا الصلاة بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها ولا تقصروا من هيئتها كما أذن لكم حال الخوف . ثم علل وجوب المحافظة على الصلاة حتى فى وقت الخوف ولو مع القصر منها فقال : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ ، يقال وقت العمل يقتُهُ ووقَّته توقيتا إذا جعل له وقتا يؤدى فيه ؛ أى أن الصلاة كانت فى حكم الله فرضاً مؤكدا فى أوقات محدودة لابد من أدائها فيها بقدر الإمكان فأداؤها فى أوقاتها مع القصر بشرطه خير من تأخيرها لتؤدى كاملة تامة .

والحكمة فى توقيتها فى تلك الأوقات المعلومة أن الأشياء إن لم يكن لها وقت معين لا يحافظ عليها الجمع الغفير من الناس .

إلى ما فى هذا النوع من الذكر المهذب للنفس من التربية العملية للأمة الإسلامية بأن تلتزم أداء أعمالها فى أوقات معينة مع عدم الهوادة فيهاومن قصر فيها فى تلك الأوقات الخمسة فى اليوم والليلة ، فهو جدير بأن ينسى ربه ويغرق فى بحار الغفلة ، ومن قوى إيمانه وزكت نفسه لا يكتفى بهذا القدر القليل من ذكر الله ومناجاته ، بل يزيد عليه من النوافل ما شاء الله أن يزيد .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١٩١ من سورة آل عمران .

والخلاصة : أن الصلوات الخمس إنما كانت موقوته لتكون مذكرة للمؤمن بربه فى الأوقات المختلفة لئلا تحمله الغفلة على الشر أو التقصير فى الخير ولمن يريد الكمال فى النوافل والأذكار أن يختار الأوقات التى يرى أنها أوفق بحاله .

أحكام تتعلق بصلاة الخوف

اتفق العلماء على مشروعية صلاة الخوف لقول الله تعالى : **﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾** .

قال الإمام أحمد : ثبت فى صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة أيها فعل المرء جاز .

قال ابن القيم : أصولها ست صفات وإليك بيانها :

١ - أن يكون العدو فى غير جهة القبلة فيصلى الإمام فى الثنائية بطائفة ركعة ثم ينتظر حتى يتموا لأنفسهم ركعة ويذهبوا فيقوموا تجاه العدو ، ثم تأتى الطائفة الأخرى فيصلون معه الركعة الثانية ، ثم ينتظر حتى يتموا لأنفسهم ركعة ويسلم بهم ، فعن صالح بن خوات عن سهل بن أبى خيثمة «أن طائفة صفت مع النبى ﷺ وطائفة وجاه العدو فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائماً فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته ثم ثبت جالساً فأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم»[(١)] رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

٢ - أن يكون العدو فى غير جهة القبلة فيصلى الإمام بطائفة من الجيش ركعة والطائفة الأخرى تجاه العدو ، ثم تنصرف الطائفة التى صلت معه الركعة وتقوم تجاه العدو ، وتأتى الطائفة الأخرى فتصلى معه ركعة ثم تقضى كل طائفة لنفسها ركعة ، فعن ابن عمر قال : صلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مواجهة للعدو ثم انصرفوا وقاموا فى مقام أصحابهم مقبلين على العدو ، وجاء أولئك ثم صلى بهم النبى ﷺ ركعة ثم سلم ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة . رواه أحمد والشيخان .

والظاهر أن الطائفة الثانية تتم بعد سلام الإمام ، من غير أن تقطع صلاتها بالحراسة فتكون ركعتاها متصلتين ، وأن الأولى لا تصلى الركعة الثانية إلا بعد أن تنصرف الطائفة الثانية من صلاتها إلى مواجهة العدو . فعن ابن مسعود قال : ثم سلم وقام هؤلاء فصلوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا .

٣ - أن يصلى الإمام بكل طائفة ركعتين ، فتكون الركعتان الأوليان له فرضاً ، والركعتان الأخريان

---

(١) سبق تخريجه .

له نفلا ، واقتداء المفترض بالمتنفل جائز ، فعن جابر أنه ﷺ «صلى بطائفة من أصحابه ركعتين ثم صلى بآخرين ركعتين ثم سلم» . رواه الشافعى .

٤ - أن يكون العدو فى جهة القبلة فيصلى الإمام بالطائفتين جميعاً مع اشتراكهم فى الحراسة ومتابعتهم له فى جميع أركان الصلاة إلى السجود ، فتسجد معه طائفة وتنتظر الأخرى حتى تفرغ الطائفة الأولى ثم تسجد ، وإذا فرغوا من الركعة الأولى تقدمت الطائفة المتأخرة مكان الطائفة المتقدمة وتأخرت المتقدمة ، فعن جابر قال : (شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصفنا صفين خلفه والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبى ﷺ فكبرنا جميعاً ، ثم ركع وركعنا جميعاً ، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ، ثم انحدر بالسجود والصف الذى يليه وقام الصف الآخر فى نحر العدو ، فلما قضى النبى ﷺ السجود والصف الذى يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ، ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ، ثم ركع النبى ﷺ وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه ورفعنا جميعاً ، ثم انحدر بالسجود والصف الذى يليه الذى كان مؤخراً فى الركعة الأولى ، وقام الصف المؤخر فى نحر العدو ، فلما قضى النبى ﷺ السجود بالصف الذى يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ، ثم سلم النبى ﷺ وسلمنا جميعاً»[1] .

٥ - أن تدخل الطائفتان مع الإمام فى الصلاة جميعاً ثم تقوم إحدى الطائفتين بإزاء العدو وتصلى معه إحدى الطائفتين ركعة ثم يذهبون فيقومون فى وجاه العدو ، ثم تأتى الطائفة الأخرى فتصلى لنفسها ركعة والإمام قائم ثم يصلى بهم الركعة الثانية ، ثم تأتى الطائفة القائمة فى وجاه العدو فيصلون لأنفسهم ركعة والإمام والطائفة الثانية قاعدون ثم يسلم الإمام ويسلمون جميعاً .

فعن أبى هريرة قال : «صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف عام غزوة نجد فقام إلى صلاة العصر فقامت معه طائفة وطائفة أخرى مقابل العدو وظهورهم إلى القبلة ، فكبر فكبروا جميعاً الذين معه والذين مقابل العدو ثم ركع ركعة واحدة وركعت الطائفة التى معه ثم سجد فسجدت الطائفة التى تليه والآخرون قيام مقابل العدو ثم قام وقامت الطائفة التى معه فذهبوا إلى العدو فقابلوهم ، وأقبلت الطائفة التى كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو ، ثم قاموا فركع ركعة أخرى وركعوا معه وسجد وسجدوا معه ، ثم أقبلت الطائفة التى كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قاعد ومن معه ، ثم كان السلام فسلم وسلموا جميعاً ، فكان لرسول الله ﷺ ركعتان ولكل طائفة ركعتان» رواه أحمد وأبو داود والنسائى .

٦ - أن تقتصر كل طائفة على ركعة مع الإمام فيكون للإمام ركعتان ولكل طائفة ركعة ، فعن ابن عباس : أن النبى ﷺ صلى بذى قرد فصف الناس خلفه صفين صفاً خلفه وصفاً موازى العدو فصلى بالذين خلفه ركعة ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء وجاء أولئك فصلى بهم ركعة ولم يقضوا ركعة . رواه النسائى .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأذان (٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤) . وفى التهجد (٣٦) . وأخرجه مسلم فى الجهاد (١٦) . والنسائى فى الصلاة (٢٠) .

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : (فرض الله الصلاة على نبيكم ﷺ فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة ﴾[١] .

وعن ثعلبة بن زهدم قال : «كنا مع سعيد بن العاص بطيرستان فقال : أيكم صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف ؟ فقال حذيفة : أنا . فصلى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا» . رواه أبو داود والنسائى .

الإسلام ينهى عن الوهن

وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

المفردات : الوهن : الضعف . والابتغاء : الطلب .

هذا نهى كريم يوجهه الله تعالى إلى أمة الإسلام ، ينهاهم فيه عن الضعف فى طلب الأعداء جهاداً فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، ذلك لأن الجهاد عزة وكرامة ورفعة ، وشهامة يرفع الله به أقواماً ويخفض بتركه آخرين ، وإن كان فى الجهاد آلام وجراح ومخمصة ونصب ، إلا أن للمجاهد بكل أمر من تلك الأمور أجراً عظيماً . قال الله تبارك اسمه : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾[٢] . وقال فى حق هؤلاء المجاهدين : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾[٣] .

فإن كنتم أيها المؤمنون تألمون ألماً نفسياً أو بدنياً ، فإن عدوكم كذلك يألم كما تألمون ، إلا أن الذى يهون عليكم آلامكم ويأسوا جراحاتكم ويرضى أنفسكم أنكم ترجون من الله ما لا يرجون ، فأنتم ترجون الجنة ونعيمها ، وما أعده الله لكم من النعيم المقيم ، فقد أعد لكم سبحانه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾[٤] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (١) ٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ . وفى (٢) ٢٠ ، ٣١ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٥٤ .
(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .
(٣) الآيتان ١٢٠ ، ١٢١ من سورة التوبة .
(٤) الآيتان ١٦٩ ، ١٧٠ من سورة آل عمران .

أما أعداؤكم فقد حرموا هذا النعيم بكفرهم وعصيانهم لله ، ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[١] . ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾[٢] . فأنتم ترجون الجنة والمثوبة وهم لا يرجون ذلك ، وكان الله عليماً بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ، حكيماً تنزه عن العبث ، فوضع الأمور فى نصابها ، أعطاكم الجنة فضلاً ، وأدخل أعداءكم النار عدلاً ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[٣] .

من دروس القرآن الكريم

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

---

(١) الآية (١١) من سورة محمد .
(٢) الآية (١٢) من سورة محمد .
(٣) الآيتان (٧ ، ٨) من سورة الزلزلة .

المفردات : ﴿ **بما أراك الله** ﴾ : أى بما عرفك وأوحى به إليك . ﴿ **خصيماً** ﴾ : أى تخاصم وتناضل عنهم . ﴿ **يختانون أنفسهم** ﴾ : يخونونها ويتكلمون ما يخالف الفطرة مما يعود عليهم بالضرر . والمجادلة : أشد المخاصمة . والوكيل : هو الذى يوكل إليه الأمر فى الحفظ والحماية . والمراد بالسوء هنا : ما يسوء الإنسان به غيره : وبالظلم : ما كان ضرره خالصاً بالعامل كالحلف الكاذب . والاستغفار : طلب المغفرة من الله مع الشعور بقبح الذنب والتوبة منه ، والكسب : ما يجر منفعة ، أو يدفع مضرة . والإثم : الذنب . والخطيئة : الذنب غير المتعمد ، والإثم ما يصدر عنه مع ملاحظة أنه ذنب . يرم به : أى يقذفه به ويسنده إليه . ﴿ **احتمل** ﴾ : كلف نفسه أن تحمل . والبهتان : الكذب على غيرك بما يبهت منه ويتحير عند سماعه .

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[١] وكقوله تبارك اسمه : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾[٢] ، وكقوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾[٣] .

قوله جل شأنه : ﴿ **لتحكم بين الناس بما أراك الله** ﴾ فيه بيان للحكمة التى أنزل الله من أجلها الكتاب على رسوله ، فإن الهدف الأسمى والغاية العليا والحكمة القصوى من إنزال الكتاب على نبيه ومصطفاه ، ما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[٥] ، وقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[٦] وقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[٧] وقوله : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾[٨] ، وقوله : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾[٩] .

وكما قال الله تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ أفغير الله ابتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾[١٠] . قوله : ﴿ **بما أراك الله** ﴾ أى بما أعلمك وأوحى إليك .

وما من شك فى أن القرآن كله عدل لا يعرف الظلم من قريب أو بعيد ، وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه بعد أن يقضى بين الناس يحذرهم من الغش والزور والبهتان ويقول لهم كلمات تشيب من هولها الولدان وتقشعر منها الأبدان .

---

(١) الأيتان (٤١ ، ٤٢) من سورة فصلت .
(٢) الآية (١٠٥) من سورة الإسراء .
(٣) الآية (١٤) من سورة الرعد .
(٤) الآية (٥٧) من سورة الأنعام .
(٥) الآية (٤٤) من سورة المائدة .
(٦) الآية (٤٥) من سورة المائدة .
(٧) الآية (٤٧) من سورة المائدة .
(٨) الآية (٤٩) من سورة المائدة
(٩) الآية (٥٠) من سورة المائدة .
(١٠) الأيتان (١١٤ ، ١١٥) من سورة الأنعام .

ثبت فى الصحيحين عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال : (ألا إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو مما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو ليذرها)[١] . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ فى مواريث بينهما قد درثت ليس عندهما بينة فقال رسول الله ﷺ : (إنكم تختصمون إلى وإنما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها انتظاماً فى عنقه يوم القيامة) ، فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقى لأخى . فقال رسول الله ﷺ : (أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما ثم ليحلل كل منكما صاحبه)[٢] .

قصة الآيات

هذه الآيات قصة اشتملت على المعانى والعبر شأن قصص القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يُفترى ﴾[٣] وقال : ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾[٤] .

روى ابن جرير عن قتادة : أن هؤلاء الآيات أنزلت فى شأن طعمة بن أبيرق ، وكان رجلا من الأنصار وهو أحد بنى ظفر سرق درعاً لعمه كان وديعة عنده ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين فجاء اليهودى إلى نبى الله ﷺ يهتف ، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبى الله ﷺ ليعذروا صاحبهم وكان نبى الله عليه الصلاة والسلام قد هم بقبول عذره حتى أنزل الله فى شأنه : ﴿ ولا تجادل ﴾ الخ . وكان طعمة قذف بها بريئا فلما بين الله شأن طعمة نافق ولحق بالمشركين بمكة فأنزل الله فيه : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ أى لا تخاصم ولا تناضل ولا تدافع عن من خانوا إذ لا مكانة للخيانة فى الإسلام . وهذا تثبيت لموقف الرسول ، فإنه لم يكن قد قضى فى القضية ، بل كل ما فى الأمر أنه قد هم بالقضاء ، فنزلت الآيات مبينات حقيقة الموقف قال تعالى : **﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيماً ﴾** . وقال جل شأنه فى نهاية القصة : **﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾** .

---

(١) أخرجه البخارى فى المظالم (١٦) وفى الأحكام (٢٠ ، ٢٩ ، ٣١) . وأخرجه مسلم فى الأقضية (٥) .
(٢) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٧) . والإمام أحمد فى (٦) ٣٢٠ .
(٣) الآية (١١١) من سورة يوسف .
(٤) الآية (١٧٦) من سورة الأعراف .

وهكذا انكشف أمر المنافقين ، وافتضح مكنون أسرارهم ، إنهم كالخفافيش لا يسيرون إلا في الظلمات ، وتغشى أعينهم أنوار الحق ، وقد قال الله لرسوله : ﴿ واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ ، إذ أن قلب رسول الله ﷺ أنظف القلوب وأنقاها وأخشاها لله وأتقاها وأطيبها وأزكاها ، قال عبد الله بن مسعود : اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاختاره لرسالته ، لقد زكى الله تعالى عقله فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾[١] ، وزكى لسانه فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾[٢] ، وزكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾[٣] ، وزكى معلمه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾[٤] ، وزكى فؤاده فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾[٥] ، وزكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[٦] ، وزكى أصحابه فقال : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[٧] ، وزكى الله أهل بيته فقال : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[٨] .

ولن يستطيع المنافقون أن يثيروا الشبهات على هذا الجو الصافى الكريم .

ما ضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة ... أن لا يرى نورها من ليس ذا بصرِ

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر المرء طعم الماء من سقم

وما ضر الورود وما عليها ... إذا المزكوم لم يطعم شذاها

ومهما حاول المنافقون أن يثيروا التراب على السماء فلسوف يثيرونها على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

ما يضر البحرَ أمسى زاخراً ... إن رمى فيه غلام بحجر

وأنّى لهم أن يحجبوا ضوء الشمس أو نور القمر ؟ إنهم كذبابة وهنانة تحاول بجناحيها أن تكسف ضوء شمسنا ، وتخسف نور قمرنا ، بل وأنّى لهم ذلك وقد زكى الله نبينا كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[٩] . نعم ﴿ واستغفر الله ﴾ أى ألزم الاستغفار فى كل أمر من أمورك ، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل شدة مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب . ولقد كان الصادق المعصوم يقول : (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إلى الله وأستغفره فى اليوم مائة مرة)[١٠] . قوله

(١) الآية (٢) من سورة النجم .
(٢) الآية (٣) من سورة النجم .
(٣) الآية ٤ من سورة النجم .
(٤) الآية (٥) من سورة النجم .
(٥) الآية (١١) من سورة النجم .
(٦) الآية (١٧) من سورة النجم .
(٧) الآية (٢٩) من سورة الفتح .
(٨) الآية (٣٣) من سورة الأحزاب .
(٩) الآية (٤) من سورة القلم .
(١٠) أخرجه البخارى فى الدعوات (٣) . ومسلم فى الذكر (٤٢) . وأبو داود فى الديات (٣) . وابن ماجه فى الأدب (٢٥٧) . والإمام أحمد فى (٤) ٢١١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٤١٠ . وفى (٥) ٤١١ .

تعالى : ﴿ إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ صيغتان من صيغ المبالغة فعول وفعيل ، أى عظيم المغفرة عظيم الرحمة لمن يقف ببابه ويلوذ بجانبه . وقد كان أحد الصالحين يناجى ربه فيقول : الهى . . أستحى أن أسألك وأنا أنا . . ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت ؟ إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

وقال آخر :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير الآثم
أدعوك ربِّ كما أمرت تكرما ... فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرضى ... وجميل عفوك ثم أنى مسلم

قوله تعالى : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ أى لا تنافح ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بارتكاب المخالفات عندما يؤذون المؤمنين والمؤمنات بأى صورة من صور الإيذاء سواء كان ذلك أذى بالعين أو الأذن أو السرقة أو الغيبة أو غير ذلك مما يضر المسلمين . ﴿ إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما ﴾ أى كثير الخيانة والإثم . وعجيب أمر هؤلاء يستخفون من الناس ويخافونهم ، ولا يستخفون من الله والله معهم أينما كانوا .

الله يدرى كل ما تضمر ... يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشر

وكيف يكون منهم ذلك ويبيتون ما لا يرضى الله من القول ويعزمون على إحداث الفتنة والضلال ويكذبون على رسول الله ويريدون أن يتهموا البرىء ، وكان الله بما يعملون محيطا .

قوله تعالى : ﴿ هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ﴾ ، خطاب إلى المنافقين فيه توبيخ وتبكيت وتقريع ، فقد وقفوا موقف الدفاع عن صاحبهم الذى سرق وأخذوا يجادلون عنه أمام الصادق المعصوم ﷺ ، فقال لهم الله تعالى : ﴿ فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ﴾ . لا أحد يستطيع ذلك . قال تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾[١] ، وقال سبحانه : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾[٢] ، وقال جل شأنه : ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ أمن يكون عليهم وكيلا ﴾ ، أى يكلون إليه أمرهم ويفوضون إليه شئونهم ، وكل مسئول عن عمله . ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين ﴾ ، ﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه ﴾[٤] . قال تعالى فى سورة عبس : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[٥] .

---

(١) الآية (٣٨) من سورة النبأ .
(٢) الآية (١٠٥) من سورة هود .
(٣) الآيتان (٣٥ ، ٣٦) من سورة المرسلات .
(٤) الآيتان (١١ - ١٤) من سورة المعارج .
(٥) الآية (٣٧) من سورة عبس .

ثم لماذا يصر الباطل على موقفه ويحاول أن يصارع الحق فى عرصات الدنيا ؟ وماذا على أهل الباطل لو آمنوا بالله واليوم الآخر وتابوا إلى الله وأنابوا واستغفروا ؟ أو ما قرءوا قوله تعالى : ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً** ﴾ . وقوله جل شأنه ﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾[1] . أو لم يعلم هؤلاء أن المسئولية فى الإسلام مسئولية فردية ؟ قال تعالى : ﴿ **ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله علياً حكيماً** ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى * أن لا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾[2] .

وكيف تصل الحال بهؤلاء المنافقين إلى حد أنهم يريدون أن يرموا البراء بما اقترفوا هم من الخطايا والآثام ؟ ألم يعلموا حكم الله فى هذا ؟ ألم يسمعوا قوله تبارك اسمه : ﴿ **ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾ نعم البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان .

وفى نهاية المطاف : فى هذه القصة يبين الله تعالى فضله على نبيه ومصطفاه وأنه ثبته على الحق وعصمه من شراك أهل الضلال وشباكهم فقال : ﴿ **ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾ .

وكيف يستطيع أحد على وجه الأرض أن يضل من عصمه الله من الخطأ وأحاطه بالعناية والرعاية والصيانة وخاطبه قائلاً : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[3] .

أحكام تتعلق بالقضاء

ماذا يجب على القاضى

على القاضى أن يسوِّىَ بين الخَصمين فى خمسة أشياء :

١ - فى الدخول عليه
٢ - والجلوس بين يديه
٣ - والإقبال عليهما
٤ - والاستماع لهما
٥ - والحكم عليهما .

---

(١) الآية (٨٢) من سورة طه .
(٢) الآيات (٣٦ - ٤١) من سورة النجم .
(٣) الآية (٦٧) من سورة المائدة .

والمطلوب منه التسوية بينهما فى الأفعال ، ولا ينبغى أن يلقِّن واحداً منهما حجته ولا شاهداً شهادته ، لأن ذلك يضر بأحد الخصمين .

ولا يلقن المدعى الدعوى والاستحلاف ، ولا يلقن المدعى عليه الإنكار والإقرار ، ولا يلقن الشهود أن يشهدوا أو لا يشهدوا ولا أن يضيف أحد الخصمين دون الآخر ، لأن ذلك يكسر قلب الآخر ولا يجيب هو إلى ضيافة أحدهما ولا إلى ضيافتهما ماداما متخاصمين .

وروى : أن النبى ﷺ كان لا يضيف الخصم إلا وخصمه معه ولا يقبل الهدية من أحد .

عن بريدة أن النبى ﷺ قال : « من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً[1] فما أخذه بعد ذلك فهو غلول » .

وقال عليه الصلاة والسلام « لعنة الله على الراشى والمرتشى فى الحكم » رواه أحمد .

رسالة عمر بن الخطاب فى القضاء

لقد وضع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الدستور المحكم للقضاء فى الرسالة التى أرسلها إلى قاضيه أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - ونذكرها فيما يلى : بسم الله الرحمن الرحيم . « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس[2] سلام عليك أما بعد :

« فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أولى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له ، آس . بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ؛ إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهُدِيت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » .

« الفهم الفهم فيما تَلَجْلَجَ فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعَمَى » .

« المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان ، وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام » .

---

(١) « رزقناه رزقا » أى أدينا إليه أجر عمله والغُلُول أخذ المال بغير استحقاق .

(٢) عبد الله بن قيس هو اسم أبى موسى وأبو موسى كنيته ولقبه الأشعرى .

المفردات

١ - آس بين الناس	:	سو بينهم
٢ - حَيْفَكَ	:	أى ميلك معه لشرفه
٣ - تَلَجْلَج	:	تردد
٤ - ظنين	:	متهم
٥ - درأ	:	دفع
٦ - القلق والضجر	:	ضيق الصدر وقلة الصبر
٧ - تخلق الناس	:	أظهر لهم فى خلقه خلاف نيته .

جزاء من يفعل الخير

* لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

المفردات : النجوى : المسارة بالحديث ، أو هو جمع واحِدُهُ نجىّ بمعنى المتناجين : أى المتسارين . المعروف : ما تعرفه النفوس وتقره وتتلقاه بالقبول . ابتغاء الشىء : طلبه .

أخرج البيهقى عن أبى أيوب الأنصارى : أن النبى ﷺ قال له : « يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم ؟ فقال : بلى يارسول الله ، قال : تصلح بين الناس إذا تفاسدوا ، وتقرب بينهم إذا تباعدوا » ، وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » .

النجوى : عبارة عن الحديث الذى يدور بين الناس سرّاً ، وقد نفى الله تعالى الخيرية عن كثير من هذا الحديث ، أما الذى رغَّب فيه الشرع الكريم ، فذلك كالأمر بالصدقة والمعروف أو الإصلاح بين الناس ، وقد ألقى الله تعالى باللائمة على قوم نهاهم عن النجوى فعادوا إليها قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤ وك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾[1] ثم وجه الله المؤمنين إلى النجوى التى يحبها فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون ﴾[2] ثم بين سبحانه وتعالى مصدر النجوى المنهى عنها فقال ﴿ إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[3] .

(١) سورة المجادلة آية : ٨ .
(٢) سورة المجادلة آية : ٩ .
(٣) سورة المجادلة آية رقم : ١٠ .

فياحبذا النجوى إذا كانت بالبر والتقوى والأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس ، ولا حبذا النجوى إذا كانت بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، كما حدث من المنافقين الذين سبق ذكرهم فى قوله تعالى ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ﴾[(١)] وقد سبق شرح ذلك فى قصه طعمة بن أبيرق المنافق ، وقد وعد الله تعالى الآمرين بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس أجراً عظيماً ، إن هم فعلوا ذلك ابتغاء مرضاة الله بعيداً عن الرياء والسمعة ، فهو سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيره تركه وشريكه ومن أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته . فالإخلاص كلمة طيبة كشجرة طيبه أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، والرياء كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجتثّت من فوق الأرض مالها من قرار ، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله .

إتباع غير سبيل المؤمنين

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

المفردات : المشاقة : المعاداة والمخالفة مأخوذة من الشّق كأن كل واحد من المتعاديين يكون فى شِق غير الذى فيه الآخر .

بعد أن وعد الله تعالى أهل الخير بالجزاء الحسن والأجر العظيم ، أوعد أهل الضلال الذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى واتبعوا غير سبيل المؤمنين ، أوعدهم بأنه سيوليهم الوجهة التى تولوها وأرادوها ؛ هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فقد أوعدهم بأنه سبحانه سيصليهم جنهم وساءت مصيرا .

إن الذين شاقوا الرسول وخرجوا على تعاليمه وناصبوه العداء ؛ لاسيما بعد ما تبين لهم الهدى واضحاً ، هؤلاء لاخلاق لهم فى الآخرة ، ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين * يوم يبعثهم الله جميعا فينبؤهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد ﴾[(٢)] وقال سبحانه : ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾[(٣)] ومن

---

(١) الآية : ١٠٨ من سورة النساء .
(٢) سورة المجادلة آية رقم : ٥ ، ٦
(٣) سورة المجادلة آية رقم : ٢٠ .

يتبع غير سبيل المؤمنين ويخرج على إجماعهم الذى قال فيه الصادق المعصوم « لا تجتمع أمتى على ضلالة » .
فإن الله تعالى يوجهه إلى ما توجه إليه وكان له فيه كسب واختيار وفى الآخرة مصيره النار وبئس القرار قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[1] .

الشرك ذنب لا يغفر

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

المفردات : **يدعون** : أى يتوجهون ويطلبون منها المعونة لهيئة غيبية لا يعقل الإنسان معناها ، **والشيطان** : هو الخبيث المؤذى من الجن والإنس ، **والمريد والمارد** : من مرد على الشىء إذا مرن عليه حتى صار يأتيه بلا تكلف ، والمراد أنه مرد على الإغواء والإضلال أو تمرد واستكبر عن الطاعة .

واللعن : هو الطرد والإبعاد مع السخط والإهانة ، **والنصيب** : الحصة والسهم من الشىء ، **والمفروض** : المعَيَّن **والأمانى** : جمع أمنية يقال تمنى الشىء إذا أحب أن يكون له وإن لم يتخذ له أسبابه .

والتمنى : تقدير شىء فى النفس وتصويره فيها سواء أكان عن تخمين وظن أم كان عن رؤ ية وبناء على أصل ، ولكنه يغلب فيما يبنى على الحَدْس والتخمين وما لا حقيقة له ، **البتك** : القطع ، وسيف باتك : أى

(١) سورة طه : الآيات ١٢٣ - ١٢٦ .

قاطعٍ ، والتبتيك : التقطيع ، والغرور : الباطل ، والمحيص : المهرب والمخلص ، يقال : وقعوا فى حَيصَ بيصَ وفى حاص باص أى فى أمر يعسر التخلص منه .

الشرك كفر بوحدانية الله ، فقد يكون الكفر ناشئاً عن النفاق[١] وقد يكون ناشئاً عن الشرك[٢] ، وقد يكون ناشئاً عن العناد[٣] ، وقد يكون ناشئاً عن الكبر[٤] .

وقد تجلت رحمة الله تعالى بعباده أنه يغفر من الذنوب ما دون الشرك : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[٥] .

ولما كان الشرك أكبر الذنوب لما فيه من جحود الوحدانية بعد ظهور الآيات الدالة على إفراد المعبود بالعبادة واعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ؛ لما كان ذلك كذلك فإن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به ، قال جل جلاله ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[٦] ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنىٌ حميد * وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾[٧] فما عاقبة الشرك ؟ .

قال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ جافى الحق وتنكب الجادة ، وحاد عن الصراط المستقيم ، وخاب وخسِرَ وَسَفَهُ نفسه وعقله ، يتمثل ذلك فى أن المشركين لا يلجأون إلى الله إنما يلجأون إلى أصنام ومخلوقات لا تملك موتاً ولا حياة ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً ، لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له ، إن يدعون من دونه إلا إناثاً كمناة والعزى ، وإن يدعون إلا شيطانا مريدا من الجِنَّةِ والناس ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبىٍّ عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾[٨] وقد يكون شيطان الإنس شراً من شيطان الجن .

ووصف الشيطان بأنه مريد لطغيانه وتمرده على أوامر الله ، لذلك استحق اللعنة ، قال تعالى : ﴿ لعنه الله ﴾ أى طرده من رحمته مذءوما مدحورا لذا قال : ﴿ لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴾ قال له الله : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾[٩] لذا فإن سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وجاءت صور الضلال فى قوله جل شأنه : ﴿ ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ .

أما الإضلال فيكون بالشرك وعدم قبول الحق والإصرار على الباطل ، وأما الأمانى فتكون بتزيين الشهوات واللذات ، وأما التبتيك فهو شق آذان الأنعام كالبَحيرة التى تنذر لآلهتهم ، وأما تغيير خلق الله فقد

---

(١) النفاق إظهار الإيمان وإبطان الكفر .
(٢) الشرك عبادة من لا يستحق أن يعبد من الكائنات من دون الله .
(٣) العناد معرفة الحق ورفضه رغم معرفته .
(٤) الكبر التعالى وعدم الاستجابة للحق كما فعل إبليس حينما رفض أمر الله بالسجود لآدم .
(٥) الآية رقم : ١١٠ من سورة النساء .
(٦) جزء من الآية رقم : ٣١ من سورة الحج .
(٧) سورة لقمان الآيتان رقم/١٢ ، ١٣ .
(٨) جزء من الآية رقم : ١١٢ من سورة الأنعام .
(٩) جزء من الآية رقم : ٦٥ من سورة الإسراء

يكون حسيا كالواصلة[١] والموصلة والواشمة والمستوشمة والمتنمصة والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ، وقد يكون معنويا ، وذلك بتغيير الفطرة التى فطر الناس عليها ، وهى أى الفطرة دين الله قال تعالى : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢] : قال ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه) .

﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ﴾ فى الدنيا والآخرة فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى : ﴿ يعدهم ﴾ أى بالفقر إذا أنفقوا فى سبيل الله ، وبالغنى إذا مارسوا الميسر وأكل الربا وقبلوا الرُّشى ، ﴿ ويمنيهم ﴾ . بمغفرة الله لهم بعد اقترافهم هذه الذنوب : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٣] .

وقد حكم الله على أفعال الشيطان من الوعد والأمانى فقال : ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ أى باطلاًوخداعا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . أو كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف كما حكم على أتباعه بقوله : ﴿ أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾ أى مفرا ولا مهربا .

ثم حكم سبحانه لأوليائه الذين آمنوا به رباً وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً « وعملوا الصالحات » فاجتمع لهم التصديق بالجنات والإقرار باللسان والعمل بالأركان حكم لهم سبحانه بقوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ . فما أجمل الخلود الأبدى فى النعيم المقيم ، هذا وعد من الله والله تعالى إذا وعد أنجز : ﴿ وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا ﴾ لا أحد أصدق من الله قولاً ولا أحد أصدق من الله حديثاً ولا أحد أصدق من الله وعداً .

منطق العدالة الإلهية

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

(١) الواصلة من تصل شعرها بما ليس منه والموصلة من تحترف وصل الشعر والواشمة من تحترف صناعة الوشم والمستوشمة من تطلب الوشم من الواشم والمتنرصة التى تنتف شعر الحواجب وما أشبه للتجمل والمتفلجات اللاتى يلجأن إلى تفليج ما بين الأسنان للحسن .

(٢) سورة الروم آية رقم : ٣٠ . (٣) سورة فاطر ، آية رقم : ٦ .

المفردات : **الأمانى** : واحدها أمنية وهى الصورة التى تحصل فى النفس من تمنى الشىء وتقديره ، وكثيراً ما يطلق التمنى على ما لا حقيقة له ، ومن ثم يعبرون به عن الكذب كما قال عثمان رضى الله عنه : « ما تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت » ، **وليا** : أى يلى أمره ويدفع العقاب عنه ، **ولا نصيرا** : أى ينصره وينقذه مما يحل به ، **والنقير والنقرة** : النكتة التى تكون فى ظهر النواة وبها يضرب المثل فى القله ، **الحنيف** : المائل عن الزيغ والضلال ، **والخليل** : المحب لمن يحبه من الخُله (بالضم) وهى المودة والمحبة التى تتخلل النفس وتمازجها قال شاعرهم[1] .

قـد تخللت مسلك الـروح منى وبـذا سمى الخليـل خليـلا

محيطاً : أى عالماً بالأشياء قادراً عليها .

أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن موقوفا « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » وقال الحسن : إن قوما غرتهم المغفرة فخرجوا من الدنيا وهم مملؤون بالذنوب ولو صدقوا الظن لأحسنوا العمل .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السُّدّى قال « التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين . نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد نبيكم وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا فأنزل الله ﴿ **ليس بأمانيكم** ﴾ . الخ الآية ، فأفلج[2] الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان الأخرى .

قوله تعالى : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب** ﴾ أى ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاه أهله به أن يقول القائل منهم : إن دينه أفضل وأكمل ؛ بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه فإن الجزاء إنما يكون على العمل ، لا عمل التمنى والغرور : فليس أمر نجاتكم ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطا بالأمانى فى الدين فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهى ولا تحصل فائدتها بالانتساب إليها دون العمل بها .

ثم أكد ذلك وبينه بقوله : ﴿ **من يعمل سوءاً يجز به** ﴾ أى أن من يعمل سوءاً يلق جزاءه ، لأن الجزاء بحسب سننه تعالى أثر طبيعى للعمل ، لا يتخلف فى اتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأمانى والظنون ، فعلى الصادق فى دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله ويجعل ذلك المعيار فى سعادته ، لا أن يجعل تكأته أن هذا الكتاب أكمل ولا أن ذلك الرسول أفضل .

---

(١) الشاعر هو بشار بن برد ذكره الإمام القرطبى فى الجزء الخامس صـ ٤٠٠ .
(٢) أفلج الله حجتهم جعلها ظاهرة غالبة على غيرها .

روى « أنه لما نزل قوله ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ راع ذلك أبا بكر وأخافه فسأل النبى ﷺ ، قال : من ينج مع هذا يارسول الله ؟ فقال له النبى ﷺ : أما تحزن ؟ أما تمرض أما يصيبك البلاء ؟ قال بلى يارسول الله قال : « هو ذاك »[١] .

وأخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « سددوا وقاربوا فإن فى كل ما أصاب المسلم كفارة ، حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها » ، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ومن ثم . يرى عامة العلماء أن الأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها يكفر الله بها الخطايا .

ويرى بعضهم أن المصايب لا تكفِّر إلا إذا أثرت فى النفس تأثير صالحاً ، وكانت سبباً فى قوة الإيمان وترك السوء والتوبة منه والرغبة فى صالح العمل بما تحدثه من العبرة ، فتكون مربية لعقله ونفسه ، أما إذا ضاعفت الذنوب كالمصايب التى تحمل صاحبها على الجزع ومهانة النفس وضعف الإيمان إلى ذنوب أخرى لم يكونوا ليقترفوها لولا المصيبة فلا تكفر شيئا من الخطايا بل تزيدها .

﴿ ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا ﴾ أى من يعمل السوء ويستحق العقاب عليه لا يجد له وليًّا غير الله يتولى أمره ويدفع الجزاء عنه ، ولا نصيرا ينصره وينقذه مما يحُل به ، لا من الأنبياء الذين تفاخر بهم ولا من غيرهم من المخلوقات التى اتخذها بعض البشر آلهة وأربابا ، فكل تلك الأمانى تكون أضغاث أحلام ، وإنما يكون المدار فى ذلك على الإيمان والأعمال كما قال :

﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾ أى ومن يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التى تصلح بها النفوس فى أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية ، سواء أكان العامل ذكراً أم أنثى ، وهو مطمئن القلب بالإيمان — فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم ، ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئا ولو حقيراً كالنقير .

وفى هذه الآية وما قبلها من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأمانى التى يأوى إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين ؛ الذين يظنون أن الله يحابى من يسمى نفسه مسلما ويفضله على اليهودى والنصرانى لأجل هذا اللقب ، فالذين يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم وحرموا الاهتداء بهديه هم فى ضلال مبين .

وبعد أن بين سبحانه أن النجاة والسعادة منوطان[٢] بصالح الأعمال مع الإيمان ، أردف ذلك ذكر درجات الكمال فقال : ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ أى لا أحد أحسن ممن جعل

---

(١) رواه القرطبى ج ٥ صـ ٣٩٧ ، ٣٩٨ بألفاظ مختلفة روايات عدة .
(٢) منوط به مرتبط به وجوداً وعدماً .

قلبه خالصاً لله وحده فلا يتوجه إلى غيره فى دعاء ولا رجاء ، ولا يجعل بينه وبينه حجابا من الوسطاء والشفعاء ، ولا يرى فى الوجود إلا هو ويعتقد أنه سبحانه ربط الأسباب بالمسببات ؛ فلا يطلب شيئا إلا من خزائن رحمته ، ولا يأتى بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها . وهى السنن والأسباب التى سنها فى الخليقة .

وهو مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص . محسن للعمل متحل بأحسن الأخلاق والفضائل .

وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه لأن الوجه أعظم مظهر لما فى النفس من إقبال وسرور وكآبة ، وفيه هو الذى يدل على ما فى السريرة .

﴿ واتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ أى واتبع إبراهيم فى حنيفيته التى كان عليها بميله عن الوثنية وأهلها وتبريه مما كان عليه أبوه وقومه منها ، قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾(١) .

﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ أى اصطفاه الله لإقامة دينه فى بلاد غلبت عليها الوثنية ، وأفسد الشرك عقول أهلها ، وقد بلغ من الزلفى عند ربه ما صح به أن يسمى خليلا ، فقد اختصه بكرامة ومنزلة تشبه الخليل لدى خليله ، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تتبع ملته وتؤتس طريقته ، والخلاصة ـ إنه مَنَّ عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح وكمال المعرفة وفنائه فى التوحيد .

ثم ذكر ما هو كالعلّة لما سبق بقوله : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى أن كل ما فى السموات والأرض ملك له ومن خلقه مهما اختلفت صفات المخلوقات ، فجميعها مملوكة عابدة له خاضعة لأمره ، ﴿ وكان الله بكل شىء محيطا ﴾ إحاطة قهر وتسخير ، وإحاطة علم وتدبير ، وإحاطة وجود ؛ لأن هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها ، ولا هى ابتدعت نفسها ، بل وجودها مستمد من ذلك الوجود الأعلى ، فالوجود الإلهى هو المحيط بكل موجود ، فوجب أن يخلص له الخلق ويتوجه إليه العباد وقد جاءت هذه الآية خاتمة لما تقدم لفوائد :

١ - بيان الدليل على أنه المستحق وحده لإسلام الوجه له والتوجه إليه فى كل حال : لأنه هو المالك لكل شىء وغيره لا يملك لنفسه شيئا .

٢ - نفى ما يتوهم فى اتخاذ الله إبراهيم خليلاً من أن هناك شيئاً من المقاربة فى حقيقة الذات والصفات .

٣ - التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده فى الآيات التى قبلها إذ من له ما فى السموات والأرض خلقاً وملكاً فهو أكرم من وعد .

---

(١) سورة الزخرف الآيات رقم : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

استفتاء وإفتاء وإرشاد

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا (١٢٧) وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)

المفردات : يستفتونك : أى يطلبون منك الفتيا ، يفتيكم : يبين لكم ما أشكل عليكم ، يقال أفتاه إفتاء وفتيا وفتوى ، وأفتيت فلانا رؤياه عبرتها له . ما كتب لهن : أى ما فرض لهن من الميراث ، وأن تقوموا : أى تعنوا عناية خاصة ، بالقسط : أى بالعدل ، خافت : أى توقعت ما تكره بوقوع بعض أسبابه أو ظهور بعض أماراته ، نشوزا : ترفعاً وتكبرا ، إعراضا : ميلا وانحرافاً ، فلا جناح : أى لا إثم ولا حرج ، أحضرت الأنفس الشح : أى إن الشح حاضر لها لا يغيب عنها ، والمعلقة التى ليست مطلقة ولا ذات بعل ، من سعته : من غناه . واسعاً : غنياً .

أخرج ابن جرير قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه ، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئاً ، فلما نزلت آيات المواريث فى أول سورة النساء شق ذلك على الناس ، وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال ، والمرأة التى هى كذلك ، فيرثان كما يرث الرجل ؟ فرجوا أن يأتى فى ذلك حديث من السماء ، فانتظروا فلما رأوا أنه لا يأتى حديث قالوا : لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بد ، ثم قالوا : سلوا ؛ فسألوا النبى ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية قوله تعالى ﴿ **ويستفتونك فى النساء** ﴾ أى يطلبون منا الفتيا فى شئونهن المالية والاجتماعية ، فإن للنساء فى الإسلام رسالة تقوم بها على تربية النشء وصيانة الرجال ؛ فلو قام الرجال بمعرفة الحقوق والواجبات التى بينها الله تعالى فى كتابه وسنة رسوله ﷺ كذلك لو قامت النساء بمعرفة الحقوق والواجبات ، فأدى كل من الرجال والنساء من الواجبات ما أوجبه الله عليه وأخذ حقوقه بالمعروف ؛ لاستقامت شئون الفرد والأسرة والمجتمع .

ولقد بين الله تعالى الحقوق والواجبات فى قوله : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾[١] والمقصود بالدرجة ما بينه الله تعالى فى قوله : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾[٢] .

ولما كثر السؤال فى شئون النساء فقد فصل القرآن الكريم أحكام تلك الشئون فى مواضع عديدة من سورة البقرة والنساء والنور والأحزاب والطلاق والتحريم ، وفى هذه السورة يقول تعالى : ﴿ **قل الله يفتيكم فيهن** ﴾ والله جلت قدرته وعظمة حكمته قوله الحق وحكمه الصدق ، فما أجدر الأمة أن تأخذ بأحكام ربط ، ثم يقوله سبحانه : ﴿ **وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن** ﴾ أى والذى سبق بيانه فى هذه السورة الكريمة ، والذى يتلى عليكم فيها ، فيه بيان وإيضاح وتفصيل فى يتامى النساء ، فلقد تحدثت السورة عن حقوق اليتيم وقد جاء الأمر بإيتاء اليتامى أموالهم فى الآية الثانية ، بعد أن أمرت الآية الأولى بتقوى الله وتقوى الأرحام من القطيعة ، جاءت الآية الثانية تأمر برعاية اليتيم فى ماله قال تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن ﴾ بين الله تعالى الحكم فى هذا ، فقد كانوا يمنعون الإناث من الميراث وكذلك الولدان الذين لم يبلغوا الحلم فجاء الحكم واضحاً وصريحاً فى قوله جل شأنه ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا ﴾[٤] ثم فصل الله تعالى ذلك الحكم فى قوله : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾[٥] فأثبت بذلك حقوق النساء والمستضعفين من الولدان ، أما قوله تعالى فى شأن يتامى النساء ﴿ **وترغبون أن تنكحوهن** ﴾ الرغبة هنا تحتمل معنيين : إما أن تكون رغبة فى نكاحهن لجمالهن وإما أن تكون رغبة عن نكاحهن وعدم تزويجهن لغيركم ؛ طمعاً من الولى فى مال اليتيمة ، فيبقيها تحت يده دون أن يزوجها لغيره ، حتى يستولى على مالها ، وقد بين الله الحكم فى ذلك فيما يتلى علينا فى الكتاب فى قوله ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾[٦] فعلى الولى أن يرعى حق الله فى اليتيمة ، فلا يمنعها من الزواج إن تقدم لها من يرضى دينه وأمانته ، وعليه أن يجاهد نفسه ويتقى الله فلا يمدن عينيه إلى مالها فإن خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم ، وقد أشار النبى ﷺ بأصبعيه قائلاً « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » وقد جاء فيما يتلى علينا فى الكتاب ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا ﴾[٧] فليعلم ولى اليتيم أن « البر لا يبلى وأن الذنب لا ينسى وأن الديان لا يموت فاعمل

---

(١) جزء من الآية رقم : ٢٢٨ من سورة البقرة .
(٢) جزء من الآية رقم : ٣٣ من سورة النساء .
(٣) الآية رقم : ٢ من سورة النساء .
(٤) الآية رقم : ٧ من سورة النساء .
(٥) جزء من الآية رقم : ١١ من سورة النساء .
(٦) جزء من الآية رقم : ٣ من سورة النساء .
(٧) الآية رقم : ١٠ من سورة النساء

ما شئت كما تدين تدان »[١] وبالكيل الذى تكيل به للناس سيكال به عليك ، فمن أراد أن يحفظ الله عليه ماله ، ويبارك فى ذريته من بعده ، فليعمل بقوله جل شأنه : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾[٢] .

وكما أوصى الله باليتامى خيراً فى مالهن وزواجهن ومعاملتهن ، أوصى بالمستضعفين من الولدان فقال : ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ وقد كانوا يحرمون من الميراث ، ففصل الله فى الأمر وأمر بايتائهم حقوقهم كما أمر بالقيام لليتامى بالقسط ورعاية الشئون الخاصة بالمعاملة من حيث جميع نواحيها ، ثم رغب الله تعالى فى فعل الخير حتى يشحذ الهمم ويحرك كوامن النفوس فقال : ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً ﴾ .

نشوز الرجل

قال تعالى : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ﴾ إذا كان النشوز من جهة المرأة تخيف خروجها على طاعة الزوج وتمردها على حسن المعاشرة فإن الله تعالى بين طرق الإصلاح فى قوله : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليًّا كبيراً ﴾[٣] .

وإن كان النشوز من جهة الرجل ، فإن الله تعالى يبين طريق الإصلاح فى ذلك فقال : ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ﴾ وقد يكون الصلح بإعطائه شيئاً من مالها على سبيل أن ترضى نفسه ويطيب قلبه وقد يكون الصلح بتنازلها عن بعض حقوقها[٤] .

روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها وكان لها منه ولد فقالت : لا تطلقنى ودعنى أقوم بتربية ولدى وتقسم لى فى كل شهرين . فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب لى والصلح خير من الطلاق والشقاق والخلاف الذى يهدم كيان الأسرة ويقطع رابطة من أقدس الروابط .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾[٥] وإن كان النشوز منهما معاً يبين الله الحكم فى ذلك فقال : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾[٦] .

---

(١) استخدام وتضمين من حديث نبوى شريف لفظه : « البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان » .
(٢) الآية رقم : ٩ من سورة النساء .
(٣) جزء من الآية رقم/٣٤ من سورة النساء
(٤) ذكر الإمام القرطبى رأيا لمقاتل بن حيان : أن يعطيها من ماله ليعوضها عن نشوزه ج ٥ صـ ٤٠٥ .
(٥) جزء من الآية رقم : ٢٢٩ من سورة البقرة .
(٦) الآية رقم : ٣٥ من سورة النساء .

أما قوله تعالى : ﴿ **وأحضرت الأنفس الشح** ﴾ **فمعناه أن النفوس قد لا يغيب البخل عنها إلا من شاء** الله له الفلاح فهو ممن أدركهم الحق بلطف بره فى قوله تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[1] فإذا كان الإصلاح بإعطاء شىء من المال أو بالتنازل عن بعض الحقوق فى سبيل إصلاح الأسرة ودوام المعاشرة فإن ذلك أمرٌ محبوب ومرغوب بل إن ذلك من عزم الأمور التى رغب الله تعالى فيها بقوله : ﴿ **وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ .

العدل بين النساء

قال تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة** ﴾ . العدل فى هذه الآية غيره فى قوله تعالى : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾[2] ، إذ العدل فى أية التعدد المقصود به العدل المادى فى النفقة والسكنى أما العدل فى هذه الآية ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾ فالمقصود به العدل القلبى فقد يميل القلب إلى إحداهن بعض الميل فعلى المرء أن يقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك »[3] ، فالميل من أعمال القلوب ، لذا كان المنهى عنه كل الميل لا بعضه ، وهذا أمر ممكن فلا تناقض بين الآيتين ، حاشا لله أن يقع فى كلامه أدنى تناقض ؛ وذلك لأن العدل هناك عدل مادى وهو ممكن أما العدل هنا فهو ميل قلبى قد يقع بعضه فلا شىء فيه ، والمنهى عنه أن يقع كله لذلك قال تعالى : ﴿ **فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة** ﴾ والمرأة المعلقة هى التى أساء زوجها عشرتها فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى : أن صدق النية فى الإصلاح وتقوى الله يغفر الله به ما قد يتجاوزه العبد من صغائر الأمور ، قال سبحانه : ﴿ **وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾ .

داء استعصى دواؤه

إذا تعسر العلاج وتعذر الدواء ولم يكن هناك مفر من الطلاق فإن الله تعالى عالج هذا الموقف بقوله : ﴿ **وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته** » ، وذلك حتى لا يخطىء الحساب فيأتى بأوخم العواقب والقاعدة فى ذلك أنه « لا ضرر ولا ضرار » فليذهب كل من الزوجين إلى حال سبيله ، وكان الله واسعاً حكيماً ، واسع الرحمة والمغفرة موصوف بالحكمة منزه عن العبث .

---

(١) جزء من الآية رقم : ٩ من سورة الحشر .

(٢) فى الآية الثانية من سورة النساء .

(٣) حديث نبوى شريف رواه الإمام القرطبى ج ٥ صـ ٤٠٧ وقد روى فى نفس السياق عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » .

التقوى هى السلاح الأقوى

وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

المفردات : وصينا : أى أمرناهم أمراً مؤكدا ، أوتوا الكتاب من قبلكم : المقصود بالكتاب التوراة والزبور والإنجيل ، غنيا : أى مستغنيا عن كل ما سواه . حميدا : أى محمود فى ذاته وصفاته وأفعاله .

بعدما بين الله تعالى من الأحكام ما فيه سعادة الخلق ، ذكر سبحانه هنا أنه مالك الملك المتصرف العليم المريد القدير الغنى الحميد الوكيل المقتدر السميع البصير ، وأنه سبحانه شرع ما شرع وبين من الأحكام ما بين لصالح الخلق ، وأنه تعالى قد وصى الأمم السابقة كما وصى أمة خاتم الأنبياء بتقواه جل فى علاه ، فالتقوى هى السلاح الأقوى ، وهى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقىَّ هو السعيد
فتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

قوله تعالى : ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[١] فهو سبحانه لا تضره معصية العاصين كما لا تنفعه طاعة الطائعين ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾[٢] .

جاء فى الحديث القدسى « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرِّى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى

---

(١) جزء من الآية رقم : ٧ من سورة الزمر .
(٢) الآية رقم : ٤٦ من سورة فصلت .

لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر ، ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم والبخارى واللفظ لمسلم :

هو سبحانه الوكيل القائم على كل نفس بما كسبت ، القيوم على جميع خلقه ، الذى يجب أن تكلوا إليه أموركم ، وتعتمدوا عليه فى قضاء حوائجكم ، قال تعالى : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ .

كن عن همومك معرضا — وكِل[1] الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة — تسليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق — وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط لك — فى عواقبه رضا
الله يفعل مايشاء — فلا تكن متعرضا

ومن مظاهر قدرته جل فى علاه أنه القادر على إفنائكم ؛ ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾[2] وكقوله جل فى علاه : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾[3] .

وكقوله جل جلاله : ﴿ والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[4] .

إذا كان ذلك معلوماً لديكم أيها الناس فابتغوا ما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة ، وادعوا الله مخلصين له الدين ، وقولوا : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾[5] ولا تجعلوا همكم ومبلغ علمكم الدنيا ، « فإن من أصبح وهمه الدنيا فرق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتبه الله له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه أمره وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة »[6] ومن ثم جاء قوله تعالى مرشدا وهاديا : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾[7] فاطلبوهما معا ، فالدنيا قنطرة للآخرة ، وهى كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر

(١) فعل أمر من وكل : كِل .
(٢) الآيات رقم : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ــ من سورة فاطر .
(٣) الآية رقم : ١٧ من سورة المائدة .
(٤) جزء من الآية رقم/٣٨ من سورة القتال أو محمد ــ ﷺ .
(٥) جزء من الآية رقم : ٢٠١ من سورة البقرة وهو من أدعية القرآن الكريم التى علمها رسول الله ﷺ لأصحابه وأهله .
(٦) من تحذير رسول الله ﷺ لأصحابه .
(٧) من الآية رقم : ١٣٤ من سورة النساء .

فيه من خسر ، والدنيا دار مفر والآخرة دار مقر ، فخذوا من مفركم لمقركم ، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم رقيب على حركاتكم وسكناتكم فاعبدوا الله كأنكم ترونه فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم .

كونوا شهداء لله

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

المفردات : ﴿ قوامين ﴾ جمع قوام وهو المبالغ فى القيام بالشىء حتى يأتى به على خير وجه ، انظر إلى قوله تعالى ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾[1] : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾[2] : ﴿ وأقيموا الشهادة ﴾[3] ، ﴿ تلووا ﴾ أى ألسنتكم بالشهادة والمراد تحرفونها ولا تأتون بها على وجهها ، فإن اللىَّ هو التحريف وتعمد الكذب ﴿ تعرضوا عنها ﴾ لا تؤدوها .

قال عبد الله بن رواحة لما بعثه النبى ﷺ يخرص[4] على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : (والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلىَّ ولأنتم أبغض إلىَّ من أعدائكم من القردة والخنازير[5] وما يحملنى حبى إياه وبغضى لكم على أن لا أعدل فيكم ؟ فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض) . وقال ﷺ : (خير الشهداء الذى يأتى بالشهادة قبل أن يسئلها) .

وفى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ أى بالعدل ، والعدل لا يتجزأ ، كما أن الشهادة إذا أديت لله وابتغاء مرضاته فإنها أيضا لا تتجزأ ولا تقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، فإذا رأيت كالشمس فاشهد وإلا فلا ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، والعدل هو العدل ، والشهادة : هى الشهادة على نفسك وعلى والديك والأقربين والغنى والفقير ، فلا مراعاة

(١) جزء من آيات كثيرة فى سور القرآن أولها سورة البقرة الآية رقم : ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ .
(٢) جزء من الآية رقم : ٩ من سورة الرحمن .
(٣) جزء من الآية رقم : ٢ من سورة الطلاق .
(٤) أرسله رسول الله ﷺ ليقدر ما عليهم من أموال وثمار .
(٥) إشارة منه إلى ما عذب الله به بعضهم فى الآية ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .. ﴾ الآية : ٦٠ من سورة المائدة .

ولا انحراف ولا إعراض ، فلا يحملنكم الهوى كما لا تحملنكم العصبية والمحسوبية على ترك العدل : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾[1] والحق أحق أن يتبع ، وإن تلووا الشهادة بألسنتكم لتحرفوها أو تعرضوا عن قول الحق فإن الله كان بما تعملون خبيرا بدقائق الأمور وحقائقها .

ثم يأتى الخطاب الثانى بالثبات على الإيمان : **﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾** ، أى اثبتوا وداوموا على الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وآمنوا برسوله داعيا إلى الله بإذنه ، وآمنوا بالقرآن الذى نزل على رسوله منجما حسب الأسباب ومقتضيات الأحوال ، كما أمرهم سبحانه أن يؤمنوا بالكتب المنزلة على الأنبياء من قبل : من توراة وزبور وإنجيل ، فمن كفر بنبى أو بكتاب فقد كفر كفرا مخلدا فى النار ، كذلك قال الله تعالى : **﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً ﴾** . فما من نبى بعثه الله إلا ودعا قومه بالإيمان بهذه الأصول فمن خرج عن أصل منها فقد خسر خسرانا مبينا وضل ضلالاً بعيداً .

صفات المنافقين وخصائصهم

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

---

(١) جزء من الآية رقم : ٨ من سورة المائدة .

المفردات : ﴿ **بشر** ﴾ المراد أنْذِر وإنما قال بشر تهكما بهم . ﴿ **العزة** ﴾ القوة والمنعة .[١] ﴿ **يتربصون بكم** ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم . ﴿ **نستحوذ عليكم** ﴾ الاستحواذ هو الاستيلاء والمراد ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم ومنعنا المؤمنين من قتلكم .

أخبر الله تعالى فى قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا** ﴾ أخبر عن قوم لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم ، فهم مذبذبون بين الإيمان والكفر ، لا يثبتون على حال ولا يستقرون فى أى مجال ، لقد آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا وازدادوا ضلالا فازدادوا كفرا : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾[٢] من أحوال هؤلاء : ﴿ إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴾[٣] . إنهم من ذوى الوجوه المتقلبة والقلوب المريضة ، يلبسون لكل مقاما لبوسه ، يأكلون على كل الموائد ، قلوبهم أَمَرُّ من الصبر[٤] وألسنتهم أحلى من العسل ، لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا من المصحف إلا رسمه ، همهم بطونهم وقبلتهم نساؤهم ، إذا رأوك حسدوك ، وإذا تواريت عنهم اغتابوك ، السُّنة عندهم بدعة ، والبدعة عندهم سنة ، هؤلاء الذين ازدادوا كفرا لن يغفر الله لهم حيث ماتوا على ذلك ، ولن يهديهم سبيلا إلى الجنة إذ أنهم سيبعثون على ما ماتوا عليه .

قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما** ﴾ البشارة لا تستعمل غالبا إلا فى سار الأخبار إذ هى مأخوذة من انبساط بشرة الوجه ، فاستعمالها فى الأخبار السيئة يكون من باب التهكم والتوبيخ ، أى بشر المنافقين بالعذاب المؤلم الذى لا يقْدَر قدره ولا يحيط بكنهه إلا علام الغيوب .

ثم بين الله بعض صفاتهم التى تستوجب الذم فقال : ﴿ **الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ أى هؤلاء المنافقون هم الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصارا ، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها ، ويمالئون الكافرين عليهم اعتقادا منهم أن الدولة ستكون لهم ، فيجعلون لهم يدا عندهم .

ثم وبخهم الله على ما فعلوا فقال : ﴿ **أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا** ﴾ العزة : القوة والمنعة : أى إن كانوا هم بذلك يطلبون عندهم الغلبة والمنعة ، فإن العزة لله يؤتيها من يشاء ، فعليهم أن يطلبوها منه تعالى بصادق إيمانهم واتباعهم هدايته التى أرشد إليها أنبياءه ، وبينوا لهم أسبابها ، وقد آتاها

---

(١) (يخوضوا) لما كان الكلام من المنافقين منافيا لطبيعة الايمان والحق كانوا كمن يلقون بأنفسهم فى لجة ويخوضوا فيها .
(٢) الآية رقم/٨ من سورة البقرة .
(٣) الآية رقم ١٤ من سورة البقرة .
(٤) كناية عن الحقد الشديد المرارة ، والصبر والصبار نبات مر الطعم شديد المارة .
(٥) الآيتان رقم : ٩٠ ، ٩١ من سورة آل عمران .

المؤمنين ، حينما اهتدوا بكتابه ، وساروا على سنته ونهجوا نهجه ، فلما أعرضوا عن هذه الهداية التى اعتز بها أسلافهم ذلوا وخنعوا لعدوهم وصار منهم منافقون يوالون الكافرين ، يبتغون عندهم عزة وشرفا وما هم بمدركين .

قوله تعالى : ﴿ **وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره** ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة نَهْىٌ من الله تعالى للمؤمنين عن القعود مع هؤلاء النفر المارقين ، الذين مرضت قلوبهم بداء النفاق وهو كما قال تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **إنكم إذاً مثلهم** ﴾ أى إذا جالستموهم وهم يكفرون ويستهزئون بالآيات فإنكم تشتركون معهم فى الإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وقد حكم الله على كل من المنافقين والكافرين بحكمه العادل القاطع الذى لا يقبل نقضا ، فقال : ﴿ **إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا** ﴾ فالكفر كله ملة واحدة ؛ سواء أكان ناشئاً عن نفاق أو جحود أو شرك أو عناد أو كبر .

قوله تعالى ﴿ **الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين** ﴾ . هذه أحوال المنافقين فى كل زمان ومكان ، تراهم دائماً إذا الريح مالت مالوا حيث تميل فهم دائما فى حالة تربص وانتظار ، إن كان النصر للمؤمنين أطلقوا لسيقانهم الريح طمعاً فى الغنائم وعرض الدنيا ، ويقـولون لهم ﴿ **ألم نكن معكم** ﴾ وإن كـانت الدائـرة للكافرين سعوا إليهم ، وقالوا لهم ﴿ **ألم نستحوذ عليكم** ﴾ الاستفهام هنا للتقرير أى : لقد تمكنا منكم وكنا نستطيع هزيمتكم ولكننا لم نفعل ذلك ، ولقد منعناكم من المؤمنين وحميناكم منهم ، كل ذلك يبتغون به عرض الحياة الدنيا الزائل ومتاعها الفانى ، وماذا عليهم لو صدقوا الله ورسوله ؟ لذا جاء الحكم من الله العلى الكبير ﴿ **فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** ﴾ فكلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾(٢) .

من صفات المنافقين

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

(١) جزء من الآية رقم : ٦٨ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان رقم : ٥١ ، ٥٢ من سورة غافر .

المفردات : الخداع : إيهام غيرك أن الشىء على ما يحب ويريد ، بتزيينك له وهو على غير ذلك ، كسالى : واحدهم كسلان وهو المتثاقل المتباطئ المراءاة : من الرؤية وهى أن يكون من يرائيك بحيث تراه كما يراك فالمرائى يريهم عمله وهم يرونه استحسان ذلك العمل . الذبذبة حكاية صوت الحركة للشىء المعلق ، ثم استعملت فى كل اضطراب وحركة .

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم من صفات المنافقين إلى صفات المنافقين ، أن أفعالهم مبنية على الخداع ، حتى بلغوا من ذلك مبلغاً ظنوا به أنهم يخادعون الله علام الغيوب ، وعميت قلوبهم عن حقيقة الأمر ونسوا أن الله يعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور ، والله خادعهم أى مجازيهم على فعلهم هذا .

الله يدرى كل ما تضمر يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

ومن صفاتهم أيضاً أنهم : إذا قاموا إلى الصلاة قاموا وهم فى حالة كسل وتباطؤ وتثاقل ، كأنهم يحملون على ظهورهم جبالا ، مع أن الله تعالى جعل فى الصلاة راحة للقلوب إذا صلت ، وسكينة للنفوس إذا كلت كان رسول الله ﷺ يقول لبلال رضى الله عنه « ارحنا بها يا بلال » والصلاة مفتاح الجنة وهى كهف المؤمن قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾[1] وقال : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾[2] وقال : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾[3] .

وقد سأل الإمام على كرم الله وجهه رسول الله ﷺ قائلا له : « ما سنتك يارسول الله ؟ قال : المعرفة رأسمالى والعقل دينى ، والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » فالصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات رياضة أبدان وطهارة أردان وتهذيب وجدان وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم المصابرون والمثابرون وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يريد به المخلوق التوجه إلى الخالق ، انظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع ، وكيف سادت العلية بالزعاع حين مست الأرض الحياة ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة سواء فى عتبة الله .

إن المؤمنين إذا وقفوا بين يدى الله فى الصلاة عاشوا فى روحانيات صافية ، إنهم عندئذ يسلكون مدارج الأنوار ، ويقفون على حقائق الأسرار ، ويعيشون فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

---

(١) الأيتان الأوليان من سورة المؤمنون .
(٢) الآية التاسعة من سورة المؤمنون .
(٣) الآيات رقم : ١٩ إلى ٢٣ من سورة المعارج .

أما المنافقون إذا قاموا إلى الصلاة فهم كسالى متباطئون ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، لا يقصدون بها وجه الله ، ولا يؤدونها ابتغاء مرضاته ، إنما يراءون بها الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، أى عندما يراهم الناس ، حتى يظهروا أمامهم مخبتين خاشعين ، فإذا ما خلوا بأنفسهم بارزوا الله بالعظائم : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ﴾[١] إنهم مذبذبون مترددون متحيرون لا هم كافرون ولا هم مؤمنون ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم وراء الهوى ووراء المصلحة والمنفعة والغنائم ، ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾[٢] إنهم محكوم عليهم بالضلال لأنهم سدوا منافذ المعرفة عن رؤية الحق ، ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾[٣] ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[٤] فلن تجد لهؤلاء سبيلا إلى طريق الهدى والحق أعاذنا الله منهم وعافانا من أفعالهم .

نهى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

المفردات : ﴿ **أولياء** ﴾ أى لا تتخذوا الكافرين أعواناً ونصراء . ﴿ **من دون المؤمنين** ﴾ أى حالة كونكم متجاوزين لهم . ﴿ **سلطانا** ﴾ حجة قوية ظاهرة ﴿ **الدرك الأسفل** ﴾ الطبقة التى فى قعر جنهم .

لما بينت الآيات السابقة قبائح المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يبتغون عندهم العزة ، ونسوا أن العزة لله جميعاً ، فمن أراد قوة فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، ومن أراد مؤنساً فتقوى الله تكفيه ومن لم يكفه شىء من هذا فإن النار تكفيه .

---

(١) جزء من الآية رقم : ١٠٨ من سورة النساء .
(٢) الآية رقم : ١٧ من سورة البقرة .
(٣) الآية رقم : ١٨ من سورة البقرة .
(٤) من الآية رقم : ٥ من سورة الصف .

لما كان ذلك كذلك فقد وجه الله النهى الحازم الجازم إلى الجماعة المسلمة المؤمنة ينهاهم سبحانه عن اتخاذ الكافرين أعوانا ونصراء من دون المؤمنين ، فإن الكفر كله ملة واحدة ، سواء أكان كفر نفاق أو كفر شرك أو عناد أو مكابرة ثم قال لهم سبحانه ﴿ **تريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً** ﴾ أى حجة قوية على استحقاقكم العقاب .

﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار** ﴾ والمقصود به قعر جنهم فالنار دركات كل درك أسفل من غيره والجنة درجات لأن كل درجة[1] أعلى مما قبلها .

ذلك لأن النفاق فى العقيدة أشد من الكفر فاستحق المنافقون أن يكونوا فى الدرك الأسفل ، لأن الكافر يُظْهِرُ كفره ، أما المنافق فيظهر الإيمان ويضمر الكفر ، لذا استحقوا الدرك الأسفل ولن تجد لهم من ينصرهم من دون الله .

هل لهم من توبة

الذنوب كالأمراض ، والتوبة كالدواء ، ولكل داء دواء يستطب به ، وقد أراد الله وسعت رحمته أن يفتح باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها وتغرب فى مشرقها ، عندئذٍ لا يقبل الله توبة من كافر قال تعالى : ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ﴾[2] .

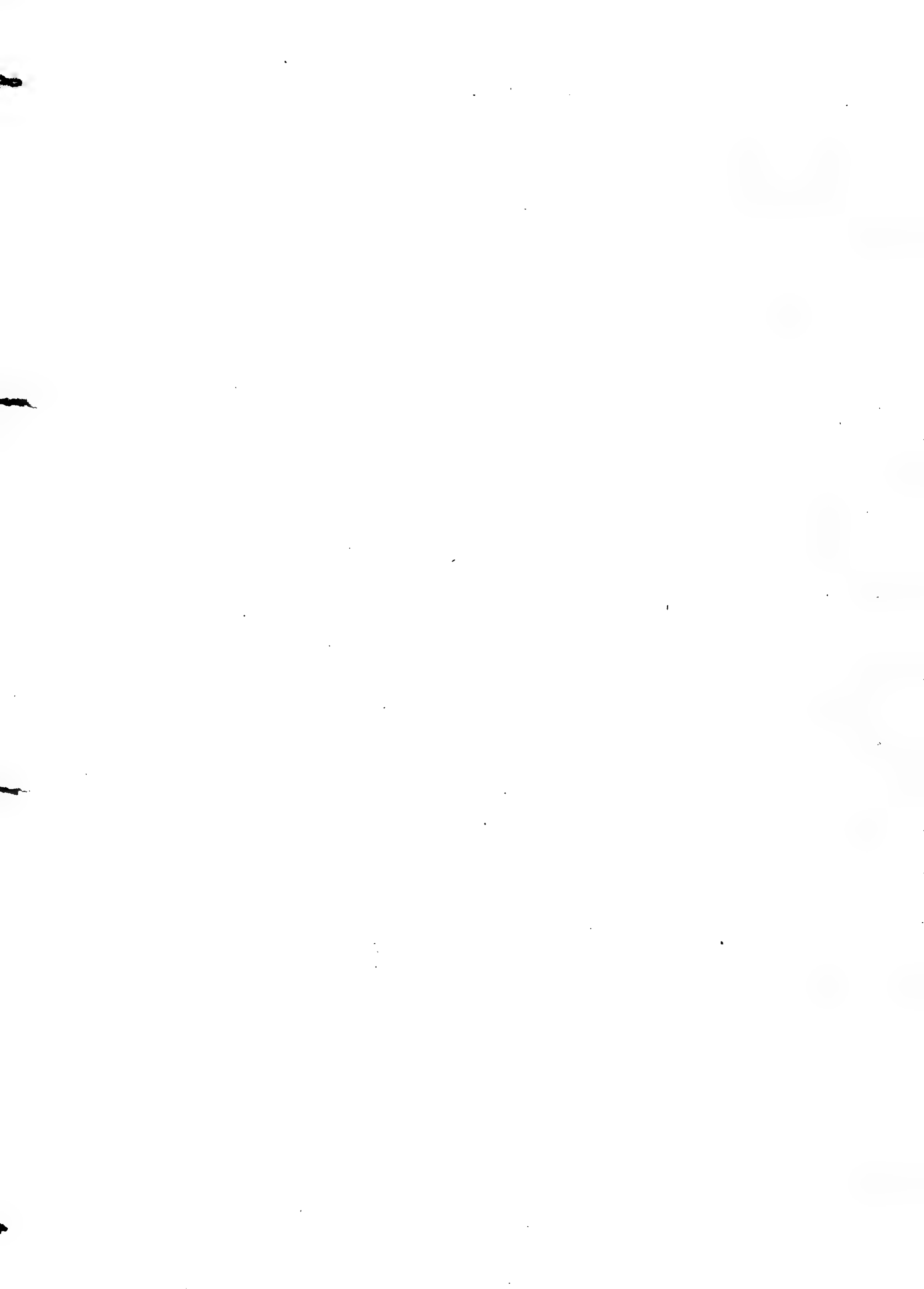
ولما كانت الأمراض مختلفة اختلف الدواء باختلافها ، فتوبة آكل الربا كما قال الله تعالى : ﴿ وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾[3] وتوبة آكل مال اليتيم أن يرد الحقوق إلى أصحابها ، وتوبة المغتاب أن يستسمح من اغتابه ، ويمدحه فى المجالس الذى ذمه فيها ، إلى غير ذلك وقد جاءت توبة المنافقين مبينة فى قوله جل شأنه : ﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله** ﴾ فيشترط فى هذه التوبة أن تكون إقلاعاً عن الذنب وعزماً على عدم العود وندماً على ما فات ، وإصلاحاً بين الناس وبين الإنسان ونفسه ، واعتصاماً بالله وكتابه وسنة رسوله ، وإخلاصاً فى الدين لا رياء فيه ولا سمعة ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[4] قال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾[5] . إذا تمت لهم تلك الشروط فى توبتهم حكم الله لهم بقوله : ﴿ **فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى**

---

(١) الدرك المنزلة الوضيعة والدرجة المنزلة الرفيعة .
(٢) جزء من الآية رقم : ١٥٨ من سورة الأنعام .
(٣) جزء من الآية رقم : ٢٧٩ من سورة البقرة .
(٤) الآية رقم : ١١٠ من سورة الكهف .
(٥) جزء من الآية رقم : ٢ من سورة الزمر .

الله المؤمنين أجراً عظيماً * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما * ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ . إن الله تعالى لا يعذب العاصى حبًّا فى العقاب ، ولا تعطشاً إلى العذاب ، ولا تصيداً للأخطاء إنما بمنطق العدالة الإلهية ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون ﴾[1] ، ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ﴾[2] فإن شكر هؤلاء العصاة وآمنوا واعتصموا بالله وجعلوا وجهتهم إرضاء الله رفع الله عنهم كل ابتلاء وانتقام ، وشكر الله لهم صنيعهم وأثابهم عليه جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومنحهم رضوانه وأولاهم مغفرته ، وكان الله شاكراً عليماً .

(١) الآيتان رقم ٢٥ ، ٢٦ من سورة القلم .
(٢) من الآية رقم ٢٨ من سورة ص .



محتويات المجلد الأول

الصفحة

الجـــزء الأول

(سورة الفاتحة ، سورة البقرة الآيات من ١ ــ ١٤١)

الصفحة

الجـزء الثانى
(سورة البقرة الآيات من ١٤٢ ـــ ٢٥٢)

الجـزء الثالث

(سورة البقرة الآيات من ٢٥٣ ــ ٢٨٦ ــ سورة آل عمران الآيات من ١ ــ ٩٢)

الصفحة

الصفحة

الجـزء الرابـع

(سورة آل عمران الآيات من ٩٣ ـ ٢٠٠ ـ سورة النساء الآيات من ١ ـ ٢٣)

الجـزء الخامس

(سورة النساء الآيات من ٢٤ ــ ١٤٧)

الصفحة

انتهى المجلد الأول ويليه المجلد الثانى